مكتبة الدراسات التاريخية

الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي

تأليف
دكتور محمد حمدي المناوي

دار المعارف بمصر

مكتبة الدراسات التاريخية

الوزارة والوزراء
فى العصر الفاطمى

تأليف
دكتور محمد حمدى المناوى

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تناول الكثير من المؤلفين العرب الوزارة فى مؤلفاتهم ضمن ما تناولوه من موضوعات أخرى ، ولكن بعض هؤلاء المؤلفين أفرد مؤلفه للكلام عن الوزارة أو الوزراء من هؤلاء الماوردى [١] والجهشيارى [٢] والصابى [٣] وابن الصيرفى [٤] وعمارة اليمنى [٥] .

وكتاب الماوردى « أدب الوزير » — وهو من كتب النظم — تناول فيه نظام الوزارة من الناحية التنظيمية وقعد لها القواعد وقنن القوانين ، مستمداً ذلك من الشواهد التاريخية ، وهو بذلك يقسم الوزارة إلى وزارتى تنفيذ وتفويض ، وحدد الشروط الواجب توافرها فى كل من يشغل كل نوع منها وواجباته وحقوقه .

أما الجهشيارى والصابى فقد تكلما فى كتابيهما عن الوزراء العباسيين ، وزاد الجهشيارى بذكر كتاب النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والأمويين . فى حين اختص كتابا ابن الصيرفى وعمارة اليمنى بالكلام عن الوزراء الفاطميين .

وابن الصيرفى فى كتابه « الإشارة إلى من نال الوزارة » يذكر الوزراء مبتدئاً

---

(١) هو ، على بن محمد بن حبيب المصرى البغدادى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

(٢) أبو عبد الله محمد بن عبدوس — المتوفى سنة ٣٣١ هـ .

(٣) أبو الحسن الهلال بن المحسن — المتوفى سنة ٤٤٨ هـ .

(٤) أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب بن سليمان .

(٥) القاضى الفقيه نجم الدين أبومحمد عمارة بن أبى الحسن الحكمى ثم اليمنى .

بابن كلس ومنتهياً بالمأمون البطائحى ، مع نبذة عن كل منهم . أما عمارة اليمنى فقد تناول فى كتابه « النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية » ما عاصره من أحداث فى عهد الوزير الصالح طلائع بن رزيك – الذى كان من أخلص المقربين إليه – وفى عهد من تلاه من الوزراء حتى نهاية الدولة . وبذلك يكون مؤلفا ابن الصيرفى وعمارة قد غطيا الفترة من أول الدولة حتى المأمون البطائحى ، ومن عهد الصالح طلائع بن رزيك حتى آخر الدولة تاركين الفترة بين المأمون والصالح وهى فترة حفلت بكثير من الأحداث التى صنعها الوزراء أو شاركوا فيها .

وإنه من العسير على المرء أن يقدم جديداً فى موضوع طرقه غيره من المؤلفين ، وقد يكون التجديد فى الكيفية التى يعالج بها الموضوع ، مع إبراز لنواح لم يطرقها غيره أو مروا بها مرًّا خفيفاً ، وهو ما حاولته فى كتابى هذا . فقد عنيت بإبراز الدور الذى لعبه الوزراء فى حياة هذه الدولة التى عاشت على مدى قرنين من الزمان حياة عجيبة لا تعرف وسطاً ، فهى إما فى قمة المجد والشموخ ، أو فى حضيض الضعف والمهانة ، تتسع رقعتها تارة حتى تمتد من أقصى المغرب حتى العراق ثم نراها تنكمش على نفسها فى مصر محاولة الدفاع عن كيانها ضد الطامعين فيها ، نجدها تارة دولة غنية كأغنى ما تكون الدول تبهر العالم بثرائها وكنوزها ، ونراها وقد خيم عليها الفقر وحطمتها المجاعة حتى لا يجد خليفتها ما يأكله . نراها دولة نشرت لواء التسامح حتى وجد الكل على اختلاف عقائدهم الأمن والأمان ، ونراها فى وقت آخر كأشد ما تكون تعصباً واضطهاداً لغير شيعتها .

وقد كان للوزراء أثر كبير فى كل ما وصلت إليه الدولة ارتفاعاً أو انخفاضاً نتيجة للسياسة التى ساروا عليها ، سواء فى السياسة الداخلية أو فى علاقة مصر بالدول الأخرى عربية كانت أو أجنبية . لذلك أفردت باباً يبحث فى علاقة الوزراء بالدولة من حيث موقفهم من الدعوة الإسماعيلية ، وأثرهم فيما تعرضت له الدعوة الإسماعيلية من هزات وانقسامات، وسياسة الوزراء الداخلية ، وأثر ذلك

فى حالة البلاد الاقتصادية وحالة الأمن والاستقرار الداخلى ، وسياسة الوزراء تجاه الجيش سواء كان لهذه السياسة أثرها فى تقدم الجيش أو انقسامه ، وما صاحب ذلك من فتن وثورات ومجاعات .

وأفردت باباً آخر عن سياسة الوزراء بالنسبة للبلاد العربية كالمغرب والشام والعراق والحجاز واليمن ، وقد كان للوزراء أثر كبير فى علاقة مصر بهذه البلاد ، بعضهم كان له الفضل فى زيادة روابط مصر بها ، وآخرون كانت سياستهم عاملا على فصم هذه الروابط .

باب ثالث خصصته لدور الوزراء فى علاقات مصر بالبلاد الأجنبية ، مثل البيزنطيين والصليبيين وببلاد النوبة ، وهو دور له خطورته ، وأهميته .

باب رابع قد يبدو لأول وهلة أنه لا جديد فيه ، ألا وهو الباب الخاص بالوزراء الفاطميين مرتبين حسب تواريخ توليهم الوزارة ، وتختلف المراجع فى ترتيب الكثيرين منهم خاصة من تولى الوزارة فى أواخر عهد المستنصر وقبل وزارة بدر الجمالى ، فهى فترة حافلة بالاضطراب ، كثير فيها تغيير الوزراء الذين كانوا يتساقطون كأوراق الخريف . وقد بذلت جهداً كبيراً فى محاولة التوفيق بين آراء المراجع المختلفة حتى أمكن الحصول على جدول أقرب ما يكون إلى الصحة .

إلى غير ذلك من أبواب ، أبرزت فيها نواحى هامة فى حياة الوزراء الفاطميين مثل كيفية تعيين الوزراء ورواتبهم ثرواتهم وألقابهم ، مع دراسة جديدة لدار الوزارة فى العهود المختلفة حتى استقرت فى الدار التى بقيت إلى آخر عهد الدولة .

وليست الملاحق التى ذيلت بها هذه الدراسة أقل أهمية ، فهى دراسة تحليلية لا غنى عنها عن جنسيات الوزراء ودياناتهم والمؤلفات التى ألفوها أو التى ألفت لهم ، وملحق عن سنوات حكم كل وزير . ومن هذه الدراسة يمكن بسهولة معرفة فترات الاستقرار وفترات الاضطراب السياسى فى الدولة ، وأثر ذلك فى نواحى الحياة الأخرى .

وإنى لأرجو أن أكون بهذه الدراسة قد قدمت جديداً فى ميدان العلم والمعرفة ، وبالله التوفيق .

مدخل

نظام الوزارة فى العالم الإسلامى

نشأته وتطوره إلى قبيل العصر الفاطمى

اتفقت كتب اللغة ومؤرخو النظم الإسلامية على أن اشتقاق لفظ الوزارة على ثلاثة أوجه ، أحدها أنه من الوزر وهو الحمل الثقيل ، لأنه يحمل عن الملك أثقاله ، والثانى أنه مشتق من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بظهره ، والثالث أنه مشتق من الوزر وهو الملجأ والجبل المنيع وكل معقل وزر ، ومنه قوله تعالى : (كلا لا وزر) أى لا ملجأ ، لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته ، لأن عليه مدار السياسة وإليه تفوض الأموال .

والوزارة كما يرى ابن خلدون أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة .

وقد جاء فى القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام : (واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى)[1] .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أحاديث يذكر فيها لفظ الوزير ، فعن الترمذى أنه كان للنبى عليه السلام أربعة وزراء ، اثنان من أهل السماء ، واثنان من أهل الأرض هما أبو بكر وعمر . وذكر الماوردى أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل من المسلمين أعظم أجراً من وزير صالح مع إمام يطيعه ويأمره بذات الله تعالى » . وروى عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه » .

وورد عن على بن أبى طالب ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه لم يكن نبى إلا أعطى سبعة نجباء وزراء ورفقاء وإنى أعطيت أربعة عشر » .

وقد أورد المؤرخون العرب ضمن حديث سقيفة بنى ساعدة قول أبى بكر للأنصار : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » .

---

(١) سورة طه الآيات ٢٩/٣٢ .

ويدفعنا ذلك إلى التساؤل ، هل عرفت الدولة الإسلامية نظام الوزارة فى صدر الإسلام ؟

والإجابة القاطعة عن ذلك ، أن منصب الوزير لم يعرف ولم يتحدد اختصاصه إلا بعد فترة من قيام الدولة العباسية ، فإن بساطة الإسلام وسذاجة الدولة فى أول عهدها جعلت الحاجة إلى هذه الوظيفة معدومة .

فالرسول صلوات الله عليه كان رأس الدولة عند نشأتها ، وكان عليه الصلاة والسلام يجمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية ، وكانت الثانية تخضع إلى حد كبير للناحية الدينية التى كانت تسير فى الحدود التى رسمها الشرع ويصدر بها الوحى . إلا أن النبى فى بعض الحالات التى تتعلق بأمور الدنيا وصالح الجماعة كان يشاور أصحابه ، ويأخذ بآرائهم فى كثير من الأمور ، ويستعين ببعض خاصته مثل أبى بكر وعمر فى قضاء مهام الدولة العامة ، حتى كان بعض العرب ممن اختلطوا بالفرس والروم والحبشة يسمون أبا بكر وزير النبى .

ويقول صاحب الفخرى : « واختلف المتكلمون فى كون الله تعالى أمر رسوله بالاستشارة مع أنه أيده ووفقه ، وفى ذلك أربعة وجوه أحدها أنه عليه السلام أمر بمشاورة الصحابة استمالة لقلوبهم وتطييباً لنفوسهم ، والثانى أنه أمر بمشاورتهم فى الحرب ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل عليه ، والثالث أمر بمشاورتهم لما فيه النفع والمصلحة ، والرابع أنه إنما أمر بمشاورتهم ليقتدى به الناس ، وهذا عندى أحسن الوجوه وأصلحها » .

كما كان الرسول يستعين ببعض من يحسن الكتابة ، ويخصص لكل فريق عملا يقوم به ، فيذكر الجهشيارى أن علياً بن أبى طالب وعثمان بن عفان كانا يكتبان الوحى ، فإن غابا كتبه أبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكان خالد ابن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان يكتبان بين يديه فى حوائجه ، وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس ، وكان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم وفى

دور الأنصار بين الرجال والنساء ، وكان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحى[1] .

وقد سار أبو بكر فى إدارته للدولة الإسلامية على نفس طريق النبى ، إذ كان يستشير الصحابة ويستأنس برأيهم ، وكان عمر يلى القضاء لأبى بكر ، وأبو عبيدة على بيت المال قبل أن يسيره إلى الشام . ومن كتابه على بن أبى طالب وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان ، وكان يكتب له من حضر .

وكانت الدولة الإسلامية فى عهد أبى بكر هى الجزيرة العربية ، وقد جزأها إلى ولايات ، وجعل على كل ولاية أميراً له إمامة الصلاة والفصل فى القضايا وإقامة الحدود .

وكان عمر بدوره — عندما ولى الخلافة — لا يبرم أمراً إلا إذا استشار كبار الصحابة ، وكان له خاصة من كبار أولى الرأى منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لا يكاد يفارقه فى سفر ولا حضر ، وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ونظراؤهم .

ولكن طرأ عامل جديد له أهميته فى عهد عمر ، فالدولة الإسلامية قد

---

(١) لم تتفق المراجع فى أسماء من كان يكتب للنبى ، وإن اتفقت فى البعض واختلفت فى البعض الآخر . فيذكر اليعقوبى « تاريخ اليعقوبى » ج ٢ — ص ٨٧ وكان كتابه الذين يكتبون الوحى والعهود على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح والمغيرة بن شعبة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وحنظلة بن الربيع وأبى بن كعب وجهم بن الصلت والحصين النميرى .

فى حين يذكر بن الأثير « تاريخ الكامل » ج ٢ — ص ١٣٠ « كان عثمان بن عفان يكتب له (أى للنبى) أحياناً وعلى بن أبى طالب أحياناً وخالد بن سعيد وأبان بن سعيد وعلاء بن الحضرمى . وأول من كتب له أبى بن كعب وكتب له زيد بن ثابت وكتب له عبد الله بن سعد بن أبى سرح وكتب له معاوية بن أبى سفيان وحنظلة الأسيدى .

ويذكر محمد كرد على « الإدارة الإسلامية فى عز العرب » ص ١٣ — أن عدد كتاب النبى بلغوا اثنين وأربعين رجلا .

اتسعت شرقاً وغرباً ، وضمت بلاداً لها تراثها ونظمها الإدارية وأخذت الأموال تتدفق على المدينة ، واستدعت الحالة تدواوين الدواوين على مثال دواوين الفرس والروم ، والسبب فى تدوين الدواوين أن عامل عمر على البحرين أتاه يوماً بخمسمائة ألف درهم فاستعظمها وجعل عليها حراساً فى المسجد ، فأشار عليه بعض من عرفوا فارس والشام أن يدون الدواوين يكتبون بها الأسماء ، ودونها له عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم .

والديوان ، الدفتر الذى يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطاء ، وعرف الديوان بأنه موضع لحفظ ما تعلق بحقوق السلطة من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال ، وأطلق بعد حين على جميع سجلات الحكومة ، وعلى المكان الذى يجلس فيه القائمون على هذه السجلات والأضابير والطوامير(١) . ولما دوّن عمر الدواوين استخدم محمد بن شاهين الزهرى كاتباً للجيش .

وإلى جانب ديوان الجيش ، كان يوجد دواوين للخراج والأموال فى الأقاليم المفتوحة ، وكانت دواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ، ودواوين مصر باليونانية أو اليونانية والقبطية .

وإذا عرفنا أن من أهم المهام التى كان يضطلع بها الوزير فيما بعد ، الإشراف على دواوين الدولة وإدارة مالية البلاد ، أمكننا القول أن وظيفة كاتب الديوان هذه ، هى التى تطورت فيما بعد إلى وظيفة الوزير فى عهد العباسيين .

واعتمد عثمان بن عفان فى أول خلافته على مشورة كبار الصحابة ، ثم مال إلى الاعتماد على أهله وعشيرته من بنى أمية ، واختص به مروان بن الحكم .

وقد حافظ معاوية على الخطوط العريضة للنظم الإدارية فى عهد الرسول والراشدين ، ولم يحد عنها إلا فيما قضت به المصلحة ودعا إليه نظام الحكم الجديد ، فكان يتمسك بنظام الشورى وينزل على حكم مستشاريه فى الأمور

---

(١) الطوامير : جمع طامور ، وطومار وهو الصحيفة .

التى لها مساس بمصلحة الرعية . وإلى جانب هؤلاء المستشارين كان هناك كتاب الدواوين المختلفة ، وهى ديوان الجند الذى وضع فى أيام عمر وكان بالعربية ، وديوان الخراج الذى كان فى أقاليم الدولة منذ عهد الفتح ، والذى ظل فى كل إقليم يكتب بلغته حتى عربت الدواوين فى خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وديوان الرسائل ، وعنه تصدر الرسائل إلى الأمراء والعمال ، وكان بالعربية وهو ما يعرف بديوان الإنشاء . وقد استجد فى عهد معاوية ديوان الخاتم الذى تختم فيه الكتب بعد أن تكتب ولم يكن يتولاه إلا التقاة ، وممن تقلده عبد الحميد بن يحيي الكاتب أشهر كتاب بنى أمية .

فالخلافة الأموية وإن استحالت إلى ملك استبدادى ، وتمتع الخلفاء الأمويون بكل مظاهر الأبهة التى تمتع بها الملوك والقياصرة خصوصاً فى عهد عبد الملك بن مروان ومن جاء بعده من خلفاء ، إلا أن وظيفة الوزارة لم تأخذ مكانها ضمن وظائف الدولة ، بل ظل الخليفة يعتمد على كتابه إلى جانب مستشارين يختارهم للاستعانة بآرائهم .

والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس ، فإن العباسيين لما قضوا على الخلافة الأموية بمساعدة الفرس ، كان من الطبيعى أن يأخذوا عنهم نظم الحكم والإدارة ، فحلت جماعات من الموظفين محل الأرستقراطية العربية التى كانت تحيط بالخليفة الأموى ، وقسمت إلى طبقات يسيطر بعضها على بعض وكان على رأسها الوزير .

وقد أجمع المؤرخون على أن أول وزير فى الدولة العباسية هو حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال الذى كان يعرف بوزير آل محمد ، والذى سرعان ما قتل بتحريض من الخليفة السفاح فى رجب سنة ١٣٢ هـ . ولكن الذى لا شك فيه أن الوزارة حتى ذلك الوقت لم تكن قد استقرت نظمها بعد ، وأن لقب الوزارة الذى اقترن بأبى سلمة ، يقصد به أنه المدبر السياسى للحركة الهاشمية ، فهو الذى كان يكاتب الدعاة ويوجههم ، حتى إذا انتصرت جيوش ابنى قحطبة

ودخلا الكوفة فى المحرم سنة ١٣٢ هـ ، أظهرا أبا سلمة وسلما إليه الرياسة وأسمياه وزير آل محمد وذلك قبل بيعة أبى العباس بنحو شهرين تقريباً فدبر الأمور باسم الإمامة الهاشمية بدون تحديد لأى من فرعيها ، بل إن أبا سلمة عمل من جهته على جعل الخلافة فى ولد على لا لآل العباس ، وكان هذا سبباً فى قتله بعد أشهر قلائل . فأبو سلمة إذن لم يكن متولياً لوظيفة خاصة يجرى لها قوانين وتنظم بها دواوين ، بل كان رأساً مفكراً لحركة ثورية لم تستقر الأوضاع لها بعد ، فلما استقرت أوضاعها تخلصت منه سريعاً .

ولكن مع ذلك يمكن القول أن ظهور فكرة الوزارة واشتراك الفرس فى السلطان الجديد ، ثم ظهور وزراء أقوياء فيما بعد مثل البرامكة وبنو سهل أدى بمرور الزمن إلى تكون نظام الوزارة الحقيقى . وإلى رسوخه كأساس للإدارة العباسية . ولقد كانت وظيفة الوزراء الأول للعباسيين كوظيفة الكاتب عند الأمويين ، فكانوا يعينون ممن يجيدون الكتابة .

وبعد قتل أبى سلمة لم يتسم أحد ممن جاء بعده وزيراً تطيرا مما حدث له ، فخالد بن برمك برغم مكانته الكبيرة وإشرافه على ديوانى الجند والمال ، كان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً . كما أن أبا أيوب الموريانى الذى قلده المنصور الدواوين وغلب عليه غلبة شديدة ، حتى قالت العامة إنه سحر أبا جعفر ، لم يطلق على نفسه لقب الوزير بل « كاتب الخليفة » .

ولقد ظلت الوزارة فى خلافة المنصور اسماً على غير مسمى ، وذلك لاستبداده وبطشه ، وكان المنصور يشرف على كل صغيرة وكبيرة ، ويبت فى أمور الدولة بنفسه ويعمل من صدر النهار إلى وقت متأخر من الليل ، مما أدى إلى تركيز السلطة فى يده ، ولم يترك أحداً ممن يستعين بهم يعمل برأيه فقط بل ينهى إليه كل ما يعرض له من أمور الدولة قبل البت فيها .

بل إنه لم ينج أحد من وزراء السفاح أو المنصور من القتل إلا خالد ابن برمك .

فلما تولى المهدى الخلافة (١٥٨ — ١٦٩ هـ) عظم مركز الوزارة واستقرت قواعدها ، وذلك لأن عصر المهدى كان عصر استقرار سياسى وإدارى ، فالدولة قد رسخت قواعدها واستقرت أمورها . وانشغل المهدى باللهو وأخذ يترك أمور الحكم لوزرائه ، وأعطاهم سلطات واسعة إلى جانب كفاءة ومقدرة وزيره أبى عبيد الله معاوية بن يسار الذى كان كاتباً له قبل الخلافة ، فقد استطاع أن ينظم الدواوين ويستحدث طرقاً جديدة فى جميع الخراج ، إلى جانب تفوقه فى الكتابة وعلمه .

ومن هذا الوقت بدأت تتحدد وظيفة الوزير وسلطاته ، وبدأت مكانة الوزراء بالظهور فى العصر العباسى ، وأخذوا فى منازعة الخلفاء سلطاتهم مما أدى إلى كثير من النهايات المحزنة التى تعرض لها الكثيرون منهم .

ولقد تولى فى العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) — والذى يعتبر العصر الذهبى للخلافة العباسية — وزراء لعبوا دوراً كبيراً فى تصريف أمور الدولة ، وقد كان اختيار أغلبهم يأتى نتيجة تفوقهم فى الكتابة أو الإدارة وإن اشترك أغلبهم أيضاً فى النهاية المحزنة التى انتهوا إليها ، ومن هؤلاء الوزراء معاوية ابن يسار ويعقوب بن داود وزيرا المهدى ، والبرامكة — يحيى وابناه الفضل وجعفر — الذين قبضوا على أزمة الحكم ، وصارت الدولة كلها تحت أيديهم يتصرفون فيها كيف شاءوا ، وظلوا يديرون أمورها لمدة سبع عشرة سنة ، إلى أن قضى عليهم الرشيد قضاء مبرماً سنة ١٨٧ هـ . كما أنه فى عهد المأمون استحوذ الفضل بن سهل وأخوه الحسن بن سهل — وهم كالبرامكة من الفرس — على النفوذ والسلطان ، وكان الفضل يلقب ذا الرياستين ، أى رياسة الحرب ورياسة التدبير ، كما كان يؤمر مع الوزارة ، فكان أول وزير اجتمع له اللقب والتأمير .

وبعد بنى سهل أخذ المأمون يدير شئون الدولة بنفسه ، وإن استعان بوزراء لم يكن لهم استقلال بالرأى أو التدبير ولم يكونوا يزيدون فى المنزلة على الكتاب .

وإن التشابه بين سياسة البرامكة وبنى سهل وعلاقتهم بالخليفة وما انتهى إليه أمر كل منهم ، يبين لنا حقيقة الصراع بين رجال من الفرس عملوا على إحياء مجد أسلافهم وإرجاع سلطان إيران ، وبين خلفاء تهاونوا فى حقوقهم أول الأمر ثم حاولوا استدراك ما فات واستعادة سلطتهم ، وإن اقتضاهم ذلك إجراءات عنيفة وجر إلى التنكيل بزعماء الفرس ووزرائهم .

ولقد بدأ الخلل يصيب الخلافة السياسية بعد المعتصم (٢١٨/٢٢٧ هـ = ٨٣٣/٨٤٢ م) وابنه الواثق (٢٢٧/٢٣٢ = ٨٤٢/٨٤٧ م) ، فالعناصر التركية التى جمعها المعتصم وأدخلها فى الجيش ، بدأت تشعر بشأنها تتدخل فى سياسة الدولة ، خصوصاً وأن الواثق فتح أمامها الطريق إلى الحكم بتعيين كبار قواد الترك فى الإدارة . وقد حاول المتوكل أن يقاوم عوامل الضعف فى الدولة ويوقف سيطرة الأتراك . ولكن انتهى الأمر بمقتله على يدهم سنة ٢٤٨ هـ ، وهو حادث له خطره استبيحت فيه حرمة الخلفاء ، وبدأ بذلك ما يسمى بعهد النفوذ التركى ، ودخلت الدولة فيما أطلق عليه المؤرخون العصر العباسى الثانى أو عصر الانحلال ، والذى يبدأ من سنة ٢٣٢ هـ حتى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، فى هذه الفترة أصبح النفوذ كله فى يد القواد الأتراك ثم الديلم والسلاجقة ، يتصرفون فى أمور الدولة كما يشاءون ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه ، كما تدخل نساء القصر فى شئون الحكم ، وأدى ذلك إلى التنافس على الحصول على مناصب الدولة وأهمها الوزارة ، فكثرت السعايات والوساطات ودفع الرشاوى إلى القواد الأتراك ونساء القصر للوصول إلى مركز الوزارة، بل لقد استعانوا بالمنجمين ليحتالوا على الخليفة ويغيروا خاطره على وزيره حتى يحلوا محله فى منصبه ، وبذلك تقلدها من يستطيع إشباع جشع الأتراك ونساء القصر للمال لا الكفء النزيه ، بل إن النزاهة والأمانة كانتا من أسباب الغضب على الوزير . فقد حدث أن أبا صالح محمد بن يزداد، عندما تولى الوزارة للمستعين بالله (٢٤٨/٢٥٢ هـ) ، ضبط الأموال ، فصعب ذلك على

أمراء الدولة ، وكان قد ضيق عليهم فتهددوه بالقتل فهرب ، ولم يجرؤ أحد على القيام بعده بأعباء الوزارة . فاستكتب المستعين تارة محمد بن الفضل الجرجرای وشجاع بن القسم ، ولكن لم يتسم أحد منهما بالوزير .

وكان كل وزير جديد يأتى بحاشيته وأنصاره ليضعهم فى وظائف الدولة ، فإذا ما سقط الوزير ذهب هؤلاء بذهابه فأدى ذلك إلى كثرة تغيير العمال والموظفين وأصبحت المصادرة شيئاً عادياً ، كما كانت عاملا فى إذكاء نيران الحقد والتنافس بين الوزراء والدس على بعضهم . وزاد الأمر سوءاً شعورهم بعدم الاستقرار فى وظائفهم ، فأضعف ذلك مركز الوزراء ووقف حائلا دون الاستقرار الإدارى ، وأخذ الوزراء يستعينون بحرم الخليفة فى خصوماتهم بل جروا معهم الجيش للتدخل فى شئونهم ، وبذلك نحروا قوتهم بأيديهم ، ولم يتورع بعض الوزراء فى سبيل مصلحته الشخصية من استعداء الجيش على الخليفة . فأصاب الخلل أركان الدولة وفشا الفساد وعمت الرشوة وكثرت المظالم ، كما كثر تغيير الوزراء أنفسهم حتى إنه فى خلافة المقتدر استوزر أربعة عشر وزيراً فى أربع وعشرين سنة وأشهراً ، كما تولى بعض الوزراء أكثر من مرة . وفى ذلك يقول المقريزى [١] عن المقتدر (٢٩٥/٣٢٠ هـ) « وهو أول من ولى الخلافة من الصبيان فغلبت على أموره النساء والخصيان ، وأكثر من قتل الوزراء وتغييرهم ... وغلب عليه أصحاب الدواوين ولم يجعلوا له أمراً ينفذ ، وصارت ثمل القهرمانة إحدى جواريه تجلس للمظالم ويحضرها الوزراء والقضاة والفقهاء » ، وانتهى به الأمر إلى أن قتل بيد الجند الذين خلعوا خلفه القاهر بالله محمد بن المعتضد (٣٢٠/٣٢٢ هـ) وسملوا عينيه وأصبح يستجدى الناس بالجامع .

وقد أدت هذه الحال إلى قيام الفتن والثورات فى كل ناحية ، وانفصلت الولايات البعيدة ، فقام الصغاريون فى سجستان ، والطاهريون والسامانيون فى خراسان وما وراء النهر [٢] ، واضطر الخليفة الراضى (أبو العباس أحمد بن

---

(١) المقريزى – كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ قسم ١ ص ١٨ .

(٢) يقول البيرونى « الآثار الباقية من القرون الخالية » ص ١٣٢ : « والذى بقى فى أيدى العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى لا ملكى دنياوى » .

المقتدر بن المعتضد ٣٢٢ – ٣٢٩ هـ) ، بعد أن رأى عجز وزيره سليمان بن الحسن بن مخلد عن تدبير الأمور لتغلب أصحاب السيوف على المملكة ، أن يرسل إلى ابن رائق أكبر الأمراء فاستماله وسلم الأمور إليه وجعله أمير الأمراء وكلفه تدبير المملكة ، فانضم إليه أمراء العسكر وصاروا حزباً واحداً ، وحضروا بين يدى الخليفة فأجلسهم فوق الوزير .

وأطلقت يد ابن رائق فى شئون الدولة يولى من يريد ويعزل من يريد ، وأصبح إليه النظر فى جميع الأمور ، ولم يبق للوزير سوى الاسم من غير حكم ولا تدبير ، بل أصبح تولية الوزراء وعزلهم فى يد أمير الأمراء . كما أدى النزاع بين الطامحين إلى إمارة الأمراء أن لاقت البلاد عامة ، وبغداد خاصة ، صنوف المذلة والتدمير .

وضعف أمر الوزارة والوزراء فى تلك الأيام وأصبح الوزير مجرد وزير شخصى للخليفة العباسى ليس له إلا الاسم فقط ، فلم يكن ينظر فى شىء من أمر النواحى ولا الدواوين ولا الأعمال ، وانحصر عمله فى الحضور فى أيام المواكب إلى دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ويقف ساكتاً .

وفى عهد المستكفى (٣٣٣/٣٣٤ هـ) استولى البويهيون على السلطة سنة ٣٣٣ هـ واستبدوا بالأمور وضعف أمر الخلفاء ولم يعد لهم من الأمر شىء[١] . وأنشأ البويهيون إمارة وراثية فى قلب الخلافة وامتد سلطانهم على العراق وفارس وخراسان واتخذوا الوزراء ليستعينوا بهم فى إدارة شئون الدولة ، وأصبح وزير الخليفة مجرد كاتب يدير إقطاعه ، يقول المقريزى[١] : « لما ملك معز الدولة بغداد خلع الخليفة المستكفى بالله، ونهب الديلم دار الخلافة حتى لم يبق فيها شىء، وأقام المطيع لله الفضل بن المقتدر (٣٣٤/٣٦٣هـ) ولم يجعل له أمراً ولا نهياً ولا رأياً ولا مكنه من إقامة وزير ، بل صارت الوزارة إليه يستوزر لنفسه من يريد » . وفى عهد هذا الخليفة فتح الفاطميون مصر .

---

(١) السلوك – جـ ١ ص ٢٧ – وانظر ابن الأثير « الكامل » – جـ ٨ ص ١٦٢ .

فإذا انتقلنا إلى مصر لنتتبع نشأة منصب الوزارة فيها منذ الفتح العربى حتى دخول الفاطميين ، نجد أن مصر مثلها مثل مقر الخلافة لم تعرف الوزارة فى أول الأمر ، بل كانت مجرد ولاية يديرها موظفون تابعون للخليفة .

وعندما فتح العرب مصر وجدوا بها نظماً راقية للإدارة والحكم ، فأبقوا عليها مكتفين بشغل المناصب الرئيسية للإشراف على إدارة الولاية . فكان الخليفة يعين والياً أو — كما يقال له أيضاً — أميراً يمثله وكانت سلطات الوالى تقوم على إمامة الصلاة وقيادة الجيش والإشراف على إدارة البلاد . وهو بذلك يجمع فى يده الرئاسة العليا الدينية والسياسية والحربية فى الدولة ، ويقع على عاتقه تأمين البلاد ، ولم يكن مسئولا إلا أمام الخليفة نفسه . وكان الوالى أحياناً يقوم بالإشراف على الخراج مما يجعله مطلق التصرف فى البلاد ..

ولكن كثيراً ما يسند الخليفة شئون الخراج إلى شخص آخر يطلق عليه اسم عامل الخراج ويكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة ، وكان هذا يحد من سلطة الوالى ويفتح باب التنافس بينهما ، وقد يبلغ من نفوذ عامل الخراج أحياناً أن عزل الولاة وتوليتهم كان يتم برأيه ، كما حدث عندما أسند هشام بن عبد الملك خراج مصر إلى عبيد الله بن الحجاب فظل بها مدة طويلة ، استطاع خلالها أن يستحوذ على ثقة الخليفة ، وأصبح بقاء الوالى فى ولايته رهناً برضاه ، حتى إنه عزل خمسة منهم خلال مدة بقائه بمصر من (١٠٥/١١٦ هـ = ٧٢٣/٧٣٤ م).

وإلى جانب الوالى وعامل الخراج كان هناك صاحب الشرطة ، ويعينه الوالى إلا فى بعض الحالات النادرة ، فكان الخليفة هو الذى يعنيه ، كما حدث فى عهد المأمون . وصاحب الشرطة مسئول عن الأمن داخل البلاد ، كما كان ينوب عن الوالى فى غالب الأحيان ، فى حكم الولاية ، إذا غاب عن مقر ولايته ، أو يحل محله إذا عزل الوالى أو مات .

وكان الوالى يستعين ببعض الكتاب فى تحرير رسائله إلى مقر الخلافة وإلى مختلف أقاليم مصر ، فكان بمصر ديوان إنشاء ولو أنه كان قليل الأهمية فى أول الأمر .

وقد اشترك أهل مصر بنصيب فى إدارة البلاد فكان هناك كاتبان قبطيان أحدهما لإدارة مصر العليا والآخر لمصر السفلى . كما أن رؤساء المالية ظلوا من القبط حتى عربت الدواوين فى عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ ﻫ ، وبذلك اضطر أهل الذمة إلى التخلى عن مناصبهم للعرب أو إلى المصريين الذين تعلموا العربية . ثم حاول عمر بن عبد العزيز إحلال المسلمين محل المسيحيين حتى فى الوظائف الصغيرة .

وعندما استقل أحمد بن طولون بحكم مصر فى إطار الخلافة العباسية ، وأصبح المتصرف فى شئون البلاد ، وضم إليه برقة والشام ، كان يشرف على أعمال الدولة بنفسه ويستطلع أحوال الرعية . ولم يتخذ وزيراً بل استعان بكاتبه أحمد بن محمد الواسطى(١) الذى كان يعمل عمل الوزراء وإن لم يتلقب بألقابهم ، وظل الواسطى هذا صاحب نفوذ كبير فى دولة ابن طولون الذى بلغ من ثقته فى مقدرة كاتبه أن أرسله إلى بغداد عندما دس عليه عند الخليفة واتهامه بالاستقلال بأمور مصر ، وذلك لكى يفسد تدبير منافسيه — كذلك عندما خرج ابن طولون إلى الشام وأناب عنه ابنه العباس ، طلب إليه أن يستعين بالواسطى هذا وأن يتبع مشورته(٢) . ومن الغريب أن ابن طولون على ثقته العظيمة بقدرة كاتبه فى الإدارة ، لم يكن — على ما يبدو — يثق فى دوام إخلاصه وولائه لأهل بيته بعد وفاته ، وقد حققت الأيام صدق رأى ابن طولون ، فإن الواسطى سرعان ما ترك مصر بعد وفاة سيده ، وانضم إلى الخليفة المعتضد فى بغداد وعاونه على أبى الجيش .

---

(١) اختلف المؤرخون فى أصل الواسطى ، فالبعض يرى أنه من واسط والبعض الآخر يرجح أنه مصرى من الواسطى ، ولكن المرجح من واسط بالعراق وهناك خمسة مواضع بهذا الاسم أولها واسط العراق والثانى واسط الرقة والثالث واسط نوقان ، وهى قرية على باب نوقان طوس يقال لها واسط اليهود . والرابع واسط مرزاباد وهى قرية بالقرب من مطير أباد .

(٢) يقول الكندى « الولاة والقضاة » ص ٢١٩ : « وخرج أحمد بن طولون فى جيوشه لثمان بقين من شعبان سنة ٢٦٤ واستخلف ابنه العباس على مصر وضم إليه أحمد بن محمد الواسطى مديراً ووزيراً ولكن برغم قول الكندى هذا فإنه لم يطلق على الواسطى لقب الوزير .

وعندما خرج الواسطى إلى بغداد استعان ابن طولون بكاتب مصرى هو جعفر بن عبد الغفار ، ويبدو أن ابن عبد الغفار لم يكن على قدر كاف من التفوق فى الكتابة ، ومع ذلك فعندما سئل ابن طولون عن الغرض الذى دفعه إلى استخدام كاتب مصرى – برغم عدم كفايته – بدلا من آخر بغدادى ، قال إن « أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له فى ذلك البلد أمور صالحة ، منها أن يكون بطانة الكاتب وحاشيته فى ذلك البلد ، فيعود مرفقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته فى اعتقاد[1] المستغلات به فيكون ضماناً لجباياته[2] ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون فى خدمتى ، والكاتب العراقى ليس كذلك لأنه يعتقد المستغلات فى بلده النائى عنه وعنى ويستبطن الرباع . ومن يشير عليه أن يعمر بلده الذى يعمل فيه وهو فى كل وقت يتطلع إلى بلده ، فبهذا السبب زهدت فى كتاب سر من رأى مع علمى بتقدمهم فى الكتابة والرجاحة » .

فابن طولون استطاع أن يعرف بثاقب بصره أن المصريين أقدر على تدبير أمورهم خصوصاً فى الشئون المالية ، « فاستكثر من الموظفين المصريين حتى أصبحت الإدارة المالية كلها فى أيديهم » . فإذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى فى بناء مصر الإسلامية ، فإن ابن طولون صاحب أول تجربة لإنشاء كيان مصرى خاص داخل الكيان الإسلامى العام .

وفى عهد خمارويه بن أحمد بن طولون علا شأن على بن أحمد المادرائى حتى صار إليه النظر فى جميع أمور مصر وربما اتخذ لقب الوزير .

والمدرائيون أسرة فارسية ظهرت فى مصر منذ أيام أحمد بن طولون ، وأخذ أمرهم منذ ذلك الوقت فى الذيوع وتولوا خراج مصر . وكان العمل الرئيسى للمدرائيين أنهم كانوا يضمنون الخراج للخلافة أو لصاحب الأمر فى مصر ،

---

(١) اعتقاد المال : يعنى جمعه .

(٢) أى لما يجتبى منه .

فيدفعون مبلغاً معيناً من المال ثم يستخرجون من الناس ما يشاءون ، وسيطروا بذلك على شئون مصر المالية ، وكانوا جميعاً ينهبون أموال الدولة ويزورون فى الأوراق ، وبذلك تعرضوا لكثير من المصادرات . وأهم رجال المادرائيين أحمد ابن إبراهيم أو محمد بن أحمد بن إبراهيم المادرائى الأطروش ، والحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى زنبور وعلى بن أحمد المادرائى السابق ذكره وابناه أبو بكر محمد وأبو الطيب على .

وقد ظل على بن أحمد المادرائى وولداه مسيطرين على أمور مصر الإدارية والمالية إلى أن قتل مع أبى العساكر جيش ، فحل محله ابنه أبو بكر وتولى أمور هارون بن خمارويه إلى أن دالت دولة الطولونيين ، ومع ذلك ظل له المكان المرموق فى مصر فترة تبعيتها للخلافة ، حتى قام فى ولاية محمد بن تكين بأمر البلد جميعه ، ونظر فى أعماله فشغب عليه الجند فى طلب أرزاقهم وأحرقوا دوره ودور أهله ، إلا أنه سرعان ما استعاد نفوذه حتى إنه عندما تجهز الإخشيد للمسير إلى مصر لولايتها بدلا من أحمد بن كيغلغ ، عارضه محمد بن على المادرائى ، ولذلك فإن الإخشيد عندما تقلد أمور مصر اضطهد المادرائى بتحريض من الفضل بن جعفر بن الفرات الذى عينه الخليفة الراضى وزيراً لكشف مصر والشام ، وأن يكون إليه الأمر فى تدبير ما يكون بالشامات ومصر ، وقد قويت صلة الفضل بالإخشيد حتى زوج ابنه جعفر بن الفضل من ابنة الإخشيد . وكان نفوذ ابن الفرات قوياً حتى إن تدبير الأموال والاستخراج كان فى داره ، وتدبير الحرب والرجال فى دار الإخشيد . وظل ابن الفرات على مكانة لدى الإخشيد حتى عين وزيراً للخليفة الراضى سنة ٣٢٦ هـ .

ويبدو أن الإخشيد بعد خروج ابن الفرات قد اضطر للاستعانة بأبى محمد ابن على المادرائى فأطلقه من اعتقاله واستوزره فى رجب سنة ٣٢٨ هـ وخلع عليه ومشى الأشراف وسائر الناس فى ركابه ، واستكتب ابنه الحسين بن محمد ، ورد إليه الإخشيد التدبير بمصر والشام والرملة ، ولبس الدراعة ونزع الطيلسان ،

وكان لا يصدر إلا عن رأيه ولا يخليه من حضور مجلسه ويقول للناس إذا انصرف ، كم قبلت يده ووقفت بين يديه . إلا أنه سرعان ما غضب عليه مرة أخرى لأنه لم يترجل له عند عودته من العريش بعد انتصاره على ابن رائق ، لذلك قبض عليه بعد عودته بأيام كما قبض على ابنه الحسين .

واستوزر الإخشيد بعد المادرائى أبا الحسن على بن خلف بن طباب ثم عزله وقبض عليه ، واستعان بعده بأبى الحسن (أو أبى الحسين) محمد بن عبد الوهاب . ولكن الإخشيد صرفه واستعان بمحمد بن على بن مقاتل الذى أصبح وزيره منذ سنة ٣٢٣ ﻫ على الأقل .

فلما مات الإخشيد ، رجحت كفة المادرائى مرة أخرى ، إذ كانت له اليد الطولى فى أن يخلف أبو القاسم أنوجور أباه ، فكافأته أم أنوجور بأن أسندت الأمر إليه ، وقبض على محمد بن على بن مقاتل ، ونظر المادرائى فى الأمر كله إلى أن غضب عليه أنوجور وسجنه حيث ظل معتقلا حتى أطلقه كافور سنة ٣٣٦ ﻫ واستخدمه فترة من الزمن إلى أن اعتزل الحياة العامة .

ولعل أشهر وزير فى مصر قبل الفتح الفاطمى هو أبو الفضل جعفر ابن الفضل بن الفرات الذى ظل وزيراً حتى فتح جوهر الصقلى مصر . ولقد ذكرنا أن أباه الفضل بن جعفر كان وزيراً من قبل الخليفة العباسى بمصر والشام للإشراف على جمع الأموال للخلافة منهما . كما كان عيناً للخليفة على ابن طفج ، إلا أنه استطاع أن يحوز ثقة الإخشيد . فلما توفى الفضل طلب الخليفة الراضى من ابنه جعفر التوجه إلى بغداد ليتولى الوزارة ، ولكنه على ما يبدو آثر البقاء فى مصر مع صهره الإخشيد بعيداً عن مؤامرات بغداد ودسائسها . فلما يئس الخليفة من خروج جعفر بن الفضل ، كتب له يستخلفه على كشف أعمال الإخشيد كلها كما كان أبوه .

وقد أخلص جعفر بن الفرات للإخشيد وعاونه ، كما خدم خلفاءه من بعده حتى أصبح وزيراً لهم لا وزيراً للخليفة ، ولذلك نرى جوهر الصقلى عندما دخل

مصر ، يمتنع عن تلقيبه بالوزير لأنه كما يقول ليس بوزير خليفة .

والمراجع وإن أجمعت على تلقيبه بالوزير ، إلا أنها اختلفت فى أى عهد صار وزيراً للإخشيديين ، فابن سعيد يذكر أن ابن الفرات عاش بعد الإخشيد ، ودبر ملك ولده إلى أن زالت دولة بنى طفج . ويقال إنه تولى الوزارة فى عهد أنوجور بعد عزل أبى بكر المادرائى ، ولكن « كافور » عندما قدم من الشام سنة ٣٣٦ ﻫ أعاد الوزير المعزول إلى منصبه .

وعلى أية حال فإن أبا الفضل جعفر لم ينفرد بوزارة الإخشيديين إلا بعد اعتزال أبى بكر المادرائى ، فوزر لكافور ، ثم زاد نفوذه وسلطانه بعد وفاة الأخير وتولية أحمد بن على بن محمد بن طفج فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ﻫ (٩٦٧ م) ، وظل المسيطر على الأمور فى مصر فيما عدا فترة قصيرة فى سنة ٣٥٨ﻫ إذ قبض عليه أبو الحسن محمد الحسن بن عبد الله بن طفج قائد الجيوش الشامية واستوزر عوضه الحسن بن جابر الرياحى ، إلا أنه سرعان ما أفرج عنه بعد أن توسط له الشريف أبو جعفر مسلم الحسينى ، وفوض إليه أمور مصر ثانية ، وفى نفس العام فتح الفاطميون مصر .

هذا عن الوزارة فى دار الخلافة وفى مصر ، ونلاحظ أيضاً أن الدول التى استقلت فى المشرق مثل الطاهرية والصفارية والسامانية والحمدانية اتخذت الوزراء . أما فى الأندلس حيث قامت دولة تنافس الخلافة العباسية فى المشرق والفاطميين فى المغرب ، فقد ظهر نظام للوزارة أشبه بنظام الوزارة فى العصر الحاضر ، فكان هناك وزير لكل فرع من فروع الإدارة ، فجعلوا لحسبان المال وزيراً وللترسيل وزيراً وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كلٌ فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب » .

* * *

ولقد كان لتفاوت سيطرة الوزراء على شئون الدولة ، وتقلب أحوال الوزارة بين ضعف وقوة هو الذى حدا بالمؤلفين الذين تعرضوا للنظم الإسلامية ووضعوا لها القوانين ، إلى تقسيم الوزارة إلى نوعين : وزارة تنفيذ ووزارة تفويض . والأولى هى التى يكون فيها الخليفة قويـًّا يدبر أمور الدولة بنفسه مستعيناً بالوزراء لتنفيذ أوامره ، والثانية يكون فيها الخليفة ضعيفاً أو مشغولا بلهوه تاركاً أمور الدولة فى يد الوزير يتصرف فيها كما يريد ، ثم أخذ هؤلاء المؤلفون يستخلصون من الشواهد التاريخية قوانين ونظماً ومقاييس لكل نوع .

ومهام الوزير هى مساعدة الخليفة وتقديم المشورة له وتنفيذ أوامره والإشراف على دواوين الدولة ، ومن أهمها ديوان الخراج وديوان النفقات وديوان الرسائل وديوان التوقيع وديوان الخبر وديوان النظر فى المظالم وديوان البريد ، وكان إليه تعيين الولاة للولايات والموظفين بعد مراجعة الخليفة وإدارة مالية البلاد والإشراف على جمع الضرائب وإنفاقها ، حتى صار الوزير مقدماً على جميع القواد . فصارت إليه كما يقول ابن خلدون « النيابة فى إنفاذ الحل والعقد ، وتعينت رتبته فى الدولة وعنت له الوجوه وخضعت لها الرقاب » .

أما عن كيفية تقليد الوزراء عند العباسيين ، فيقول الجهشيارى : « ولما عزم المنصور على تقليد الربيع [١] العرض عليه قال : اجلس فى بيتك حتى يأتيك رسولى فاغتم لذلك ، فصار إليه الرسول بدراعة وطيلسان وشاشية [٢] ، فقال له : البس هذا واركب بهذا الزى ، فركب ، فأمر الفراش أن يطرح له مرفقه تحت البساط ، تقصيراً له عن منزلة المهدى وعيسى بن على ، لأنه كان يطرح لهما مرفقان ظاهرتان . فلما وصل إليه قال له : قد وليتك الوزارة والعرض » .

فخرج من هذا النص بملاحظتين هامتين ، الأولى أن هذا التقليد فى تعيين

---

(١) هو الربيع بن يونس بن محمد بن أبى فروة .

(٢) نوع من العمائم تتخذ من الحرير .

الوزراء ربما كان يتبع لأول مرة ، لأن الربيع اغتم فى أول الأمر عندما طلب منه الخليفة انتظار رسوله ، فلو كان هذا التقليد متبعاً من قبل لما جزع الربيع . والملاحظة الثانية أن منزلة الوزير كانت تلى منزلة ولى العهد .

ثم حدث تعديل بسيط فى تقليد الوزراء فيما بعد ، فكان الخليفة يرسل إلى الشخص المرشح للوزارة ليحضر لمقابلته ويخطره باختياره لهذا المنصب ، ثم يعود فى الغد فيخلع عليه الخليفة خلع الوزارة فيلبسها ، ويخرج من قصر الخليفة فى موكب يضم الحجاب والأمراء والقواد وكبار رجال الدولة حتى يصل إلى داره .

وكان اللباس الرسمى للوزير فى العصر العباسى الدراعة وقميصاً ومبطنة وخفًّا ، والدراعة قميص مفتوح من الأمام إلى موضع القلب ومزين بالزراير النفيسة .

أما راتب الوزير فى هذا العصر فكان يختلف باختلاف العصور واختلاف الأشخاص ، فيذكر الجهشيارى أن « أرزاق الكتاب والعمال فى زمان أبى جعفر ، للرؤساء ثلثمائة درهم للرجل ونحو ذلك ، وكذلك كانت فى أيام بنى أمية ، وعلى ذلك جرت إلى أيام المأمون ، فإن الفضل بن سهل وسع الجارى» . ولما كان رئيس الكتاب فى عهد بنى أمية هو الذى أصبح فى عهد العباسيين يعرف باسم الوزير ، فمن المحتمل أن الوزير ظل حتى عهد المأمون يتناول راتباً قدره ثلثمائة دينار . ولا شك أن ذلك لا ينطبق على البرامكة ، إذ أن دخل الدولة كله صار فى يدهم ، حتى صار المال لا يصل إلى الخليفة إلا عن طريقهم .

أما فى عهد الخليفة المعتضد (أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل ٢٨٩/٢٧٩ ﻫ) ، فقد كانت أرزاق وزيره عبد الله بن سليمان ألف دينار فى الشهر مضافاً إليها خمسمائة دينار لابنه القاسم ، ثم زيد راتب الوزير حتى أصبح فى خلافة المقتدر بالله (أبو الفضل جعفر بن المعتضد ٣٢٠/٢٩٥ ﻫ) خمسة آلاف دينار ، ولكل ولد من أولاده خمسمائة دينار . وكان مرتب الابن يزداد

فى بعض الأحيان إلى ألف دينار . يضاف إلى هذه المرتبات الضياع والأراضى والعقارات التى كان يهبها الخليفة لوزيره ، أو التى كان يحوزها لنفسه بطريقة أو أخرى[١] ، والتى كانت تصادر بالتالى عقب إقالته من الوزارة ، وكان ريع هذه الإقطاعات يصل إلى أكثر من خمسين ألف دينار فى السنة ، حتى كان الوزير فى بعض الأحيان يتنازل عن راتبه .

ولم يكن من عادة الخلفاء العباسيين فى أول الأمر تلقيب الوزراء ، وإن ذكر القلقشندى[٢] ، أن خالد بن برمك لقب بالسلطان ، كما تلقب أبناؤه البرامكة بهذا اللقب أيضاً تعظيماً لهم ، ثم انقطع التلقيب به إلى أيام بنى بويه فتلقب به ملوكهم ثم من بعدهم ملوك السلاجقة وغيرهم .

وقد دعا الخليفة المهدى وزيره يعقوب بن داود أخاه فى الله . ولقب الوزير الفضل بن سهل وزير المأمون بلقب ذى الرئاستين ، إشارة إلى تقلده الشئون الإدارية والحربية ، كما أنه كان يؤمر مع الوزارة ، فكان أول وزير لقب وأول وزير اجتمع له اللقب والتأمير . وسمى أبو الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد على الله بالوزير الشكور وجمع له أيضاً السيف والقلم .

ولكن الخلفاء العباسيين أسرفوا بعد ذلك فى بذل الألقاب ، وقد ساعد على ذلك سوء الأحوال وفساد الأمور ومحاولة الخليفة إرضاء كبار رجال الدولة ، ويقول البيرونى عن الإسراف فى منح الألقاب وكثرتها : « وبلغ الأمر غايته من التكلف والتثقيل حتى إن الذاكر لهم يمل ذكرهم قبل أن يبتدئ به ، والكاتب يفنى زماناً وأسطراً والخاطب لهم على خطر من فوت وقت الصلاة » . كما

---

(١) عندما صادر المعتصم أموال وزيره الفضل بن مروان قال : « ما كنت أعلم أن فى الدنيا من له هذا المال » ووزر أبو الحسن بن الفرات وارتفاع ضيعته وضيعة أخيه أبى العباس نحو مائتى ألف دينار ، وصرف بعد أربعة وعشرين شهراً وقد بلغ ثمانمائة ألف دينار وكسرا وذلك بما استضافه وجذبه من الأملاك والضياع .

(٢) القلقشندى ، «صبح الأعشى » ، جـ ٥ ، ص ٤٤٧ .

يقول[١] أيضاً عن وزراء الخلفاء إنهم قد « لقبوا بالأذواء كذى اليمينين وذى الرئاستين وذى الكفايتين وذى السيفين وذى القلمين وأمثال ذلك ، وتشبه بهم آل بويه لما كانت الدولة منتقلة إليهم وبالغوا فيه ، واستغرقهم الكذب فسموا وزراءهم بكافى الكفاة والكافى الأوحد وأوحد الكفاة » .

(١) الآثار الباقية – ص ١٣٢ ، ١٣٤

الباب الأول

الوزارة فى العصر الفاطمى واختصاصاتها

الفصل الأول

نشأة الوزارة وتطورها فى العصر الفاطمى

يقول القلقشندى إن الوزارة هى أرفع الوظائف عند الفاطميين وأعلاها رتبة ، وإنها كانت تارة فى أرباب السيوف وتارة فى أرباب الأقلام . وفى كلا الجانبين تارة تعلو فتكون وزارة تفويض ويعبر عنها حينئذ بالوزارة ، وتارة تنحط فتكون دون ذلك ويعبر عنها بالوساطة (١) .

ولكن متى عرف الفاطميون الوزارة كنظام من نظم الحكم التى تقوم عليها دولتهم ؟

لا شك أن التنظيم الداخلى لأية دولة لا يأتى إلا بعد أن تستقر قواعدها وتستقيم أمورها ، فمن هنا تبدأ الدولة فى وضع الأسس التى يقوم عليها نظام الإدارة فيها فتنشئ الوظائف المختلفة وتعطيها المسميات التى تتفق مع اختصاصاتها . والدولة الفاطمية دولة مذهبية قامت لنشر مذهب دينى يخالف مذهب الدولة القائمة ، وكان أمامها شوط طويل ومعارك رهيبة حتى تستقر لها الأمور وتتوطد أركانها . ومن الطبيعى فى هذه الفترة أن يقبض الخليفة الفاطمى بيديه على كل سلطان ، ويصرف الأمور بما يراه ، ويشرف على جميع أوجه النشاط فى هذه الدولة الناشئة . ولا يعنى ذلك أن الخليفة كان يقوم بكل الأعمال وحده ، ولكنه كان يستعين ببعض من يثق فيهم ، وقد تعلو منزلة البعض لدى الخليفة ويقوم بما يقوم به الوزراء عادة ، إلا أن الثابت أن نظام الوزارة لم يعرف إطلاقاً فى الفترة المغربية . فكان المهدى يستعين بأحد رجالات بنى الأغلب وهو عبد الله بن القديم ووكل إليه النظر فى جميع الدواوين والأعمال كما عهد

---

(١) صبح الأعشى : جـ ٣ ص ٤٨٢ / ٤٨٣ .

المهدى والقائم والمنصور إلى أبى جعفر بن محمد بن أحمد البغدادى النظر فى الدواوين والإشراف على الموظفين ، فكان هذان الرجلان يقومان بعمل الوزراء وإن لم يتسم أحدهما بالوزير[١] . وبلغت منزلة الأستاذ جوذر لدى القائم بأمر الله درجة كبيرة حتى نظر فى بيت المال وخزائن البز والكساء وجعله سفيراً بينه وبين أوليائه وسائر عبيده . كما استخلفه المنصور عندما خرج للقضاء على فتنة أبى يزيد مخلد بن كيداد على دار الملك وسائر البلاد وارتفعت منزلته حتى لقب بمولى أمير المؤمنين وأمره الخليفة ألا يقدم على اسمه اسماً آخر وكتب اسمه على الطراز . ومع هذه المنزلة السامية لم يكن جوذر وزيراً .

أما جوهر الصقلى فقد حاز ثقة المعز ، حتى إن المقريزى يذكر أنه صار فى رتبة الوزارة سنة ٣٤٧ هـ ، إلا أنه يعود فيقول إن المعز « لم يوقع اسم الوزارة على أحد فى أيامه »[٢] . ويبدو أن المقريزى يقصد أن وظيفة الكاتب التى اشتهر بها جوهر لا تختلف كثيراً عن وظيفةالوزير . والمعروف أن المعز لدين الله جمع فى يده كل سلطات الدولة ، وأنه كان يشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة ، فقد استدعى وهو بالمنصورية بالمغرب فى يوم شات باردة الريح عدة شيوخ من كتامة ، فدخلوا عليه فإذا هو جالس يرد على الكتب الواردة عليه بخطه ، كما أنه كان يوجه عماله ورجال دولته فى كل عمل يقومون به ، حتى إن جوهراً بعد فتح مصر كان يستشيره فى كل أموره كما حدث عندما رسم له

---

(١) وعبد الله بن القديم أحد رجالات بنى الأغلب ملوك تونس ، وقد قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولتهم ، وقد أمنه المهدى واستعان به فى كثير من الأمور ، فوكل إليه النظر فى جميع الدواوين والأعمال ، وظل على تلك الحال حتى اشترك مع الساخطين من أصحاب أبى عبد الله الشيعى ، وذهب ضحية اشتراكه معهم .

أما أبو جعفر بن محمد بن أحمد البغدادى فمن نوابغ عصره فكان شاعراً كاتباً ذكياً لسناً ، وقد ساءت العلاقة بينه وبين الوزير العباسى على بن عيسى وزير المقتدر . ولما عزم هذا الوزير على قتله فر إلى بلاد المغرب ، ووصل إلى سجلماسة ، ومدح عبيد الله المهدى بغرر القصائد ، ونال إعجابه ، فأخذ العهد عليه ، وأمره بالهرب إلى الأندلس ، ثم العودة إلى إفريقية إذا ما قامت الدولة الفاطمية فيها . وقد لبى البغدادى أوامر المهدى وعاد إلى إفريقية حين رفع أبو عبد الله الشيعى علم الفاطميين فى رقادة ولم يستطع أن يسند المهدى إليه النظر فى الأمور ، لأن ابن القديم كان يقوم بها عند وصول البغدادى إليها .

(٢) الخطط — حـ ١ ص ٤٣٩.

المعز السياسة التى يسير عليها مع بنى حمدان أصحاب حلب .

ولما فتح جوهر مصر ظل يصرف أمورها من شعبان سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م حتى وصول المعز فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م . وقد أبقى جوهر نظام الإدارة فى البلاد على ما هو عليه ، وإن أشرك مع الموظفين المصريين موظفين مغاربة . وكان جعفر بن الفرات وزيراً للإخشيديين ، فأقره جوهر على وزارته حتى يتألف المصريين ، وإن جعل عليه العيون وحد من سلطانه حتى أصبح منصبه لقباً ليس إلا . وأشرف جوهر بنفسه على أمور البلاد . فلما وصل المعز من المغرب انتهز ابن الفرات الفرصة وطلب من المعز إعفاءه فأعفاه ، وظل المعز يستعين بجوهر فى إدارة البلاد حتى المحرم سنة ٣٦٤ هـ (أكتوبر ٩٧٤ م) فعزله ربما خشية من اتساع نفوذه وشعبيته ، وأشرف على الأمور بنفسه مستعيناً ببعض الموظفين على رأسهم يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن .

فلما توفى المعز وولى ابنه العزيز الخلافة ، كانت البلاد قد دخلت فى طور جديد ، إذ استقرت الأمور وتوطدت أركان الخلافة وامتد نفوذها على الشام والحجاز ونعمت البلاد بالهدوء والطمأنينة ، وأخذت الدولة تقلد الخلافة العباسية فى التنظيمين السياسى والإدارى ، فابتدأ الخليفة يتنازل عن شىء من سلطاته لأحد خلصائه يعقوب بن كلس وأسند إليه رتبة الوزارة ، ولقبه بالوزير الأجل سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ومن ذلك التاريخ ابتدأت خطة الوزارة تأخذ مكانها فى الدولة الفاطمية ، وظلت أهم وظائفها التى لعبت دوراً كبيراً فى سياستها الدينية والداخلية والخارجية ثم أدت فى نهاية الأمر إلى سقوطها ، كما سنبين فى الأبواب القادمة .

ولقد مرت على الوزارة الفاطمية ظروف مختلفة تتراوح بين القوة والضعف خصوصاً فى القرن الأول من حكمها حيث كان مركز الوزير ونفوذه يتأثر بقوة الخليفة وشخصية الوزير نفسه ، فنجد وزراء أقوياء مثل ابن كلس والجرجرائى واليازورى أدوا للدولة الكثير ، ووزراء آخرين أضعفت نفوذهم قوة

الخليفة أو سيطرة القواد والانهازيين كما فى عهد الحاكم القوى وعهد المستنصر الضعيف الذى تغلب عليه القواد ، ففقدت الوزارة أهميتها وكثر عزل الوزراء . أما وزراء القرن الثانى فقد كان لهم من القوة والنفوذ ما سيطروا به على الدولة سيطرة تامة ،ولم يعد الخلفاء بجانبهم إلا صوراً باهتة وأصبح الوصول إلى منصب الوزارة يحدده نتيجة الصراع المسلح بين الوزير القائم والطامعين فى المنصب .

ولذلك يقسم المؤرخون وكتاب النظم الوزراء الفاطميين إلى قسمين ، وزراء أصحاب أقلام وهم وزراء التنفيذ فى القرن الأول[١] ، ووزراء أصحاب سيوف أو وزراء تفويض ويضم وزراء القرن الثانى[٢] . كما قسموا وزراء القرن الأول أيضاً إلى وزير ووسيط وأن الوسيط أقل منزلة من الوزير . وهذا التقسيم وإن أمكن تطبيقه بدقة على وزراء النصف الثانى من العصر الفاطمى وكلهم وزراء سيوف وكلهم كان له كل السلطة ، إلا أن له استثناء مع وزراء النصف الأول ، إذ من الملاحظ أن بعض هؤلاء الوزراء كانوا أصحاب سيوف مثل ابن عمار وبرجوان والحسين بن جوهر الذى أطلق عليه لقب قائد القواد ، كما أن من الوسطاء من فاق نفوذه نفوذ كثير من الوزراء مثل ابن عمار الذى تحكم فى الدولة حتى فكر فى عزل الخليفة الحاكم ، وعلى أية حال لم يكن هناك اختلاف كبير بين وظيفة الوزير والوسيط وصاحب السفارة .

ولقد كان ابن كلس أول وزراء الدولة من أعظم الرجال الذين أدوا للبلاد أجل الخدمات ، ووضع الكثير من الأسس التى قام عليها نظام الوزارة الفاطمية ، وبعد وفاته تولى رجال لم يبلغوا ما بلغ ابن كلس من النفوذ وقوة الشخصية ولم يتسموا بالوزراء بل أطلق عليهم الوسطاء ، وظل الحال كذلك حتى لقب أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح سنة ٤٠٨ هـ = ١٠١٥ م وزير الوزراء ثم اختفى لقب الوزير مرة أخرى ولم يظهر إلا فى عهد الوزير الجرجرائى سنة ٤١٨ هـ = ١٠٢٥ م الذى كان هو والوزير اليازورى سنة ٤٤٢ هـ =

(١ ، ٢) نقصد بالقرن الأول والقرن الثانى المائة سنة الأولى والمائة سنةالثانية من حكم الفاطميين .

١٠٥٠ م من أقدر وزراء الدولة . وبعد اليازورى دخلت البلاد فى طور من الضعف ، وابتدأت سيطرة القواد وقامت الفتن بين فرق الجيش من السودان والترك والمغاربة ، وساعد فى اشتداد الأزمة ضعف الوزراء الذين لم يعد لهم من الأمر شيء فكثر عزلهم ، بل كان من الوزراء من يعزل من الوزارة ويسجن ثم يعين مرة أخرى حتى فقدت الوزارة هيبتها ، وأصبح كل هم الوزير محاولة الاحتفاظ بمركزه ضد دسائس منافسيه ومحاولة الإثراء بأى طريق ، كما قبل البعض أن يشغل منصباً أقل بعد عزله من الوزارة ، وهو شيء لم يحدث من قبل ذلك ، وانتهى الأمر بدخول البلاد فى فترة من البؤس والشقاء والمجاعة استمرت سبع سنين ، وهى التى عرفت فى التاريخ بالشدة العظمى . وأخيراً لجأ المستنصر إلى بدر الجمالى وإلى عكا الذى بادر بالاستجابة إلى دعوة الخليفة ، وجاء إلى مصر سنة ٤٦٦ هـ واستطاع إعادة الهدوء والنظام وسيطر على البلاد واستحوذ على كل سلطان ، وظل مدة سنتين يدير شئون البلاد دون أن يلى الوزارة ، وفى ذلك يقول ابن الصيرفى [١] : « ودخل أمير الجيوش فى ربيع سنة ٤٦٦ هـ ١٠٧٤ م فخلع عليه ورد النظر إليه وبطل حينئذ أمر الوزارة » ، وكان مركز بدر يشبه مركز أمير الأمراء لدى العباسيين ، إلا أنه على ما يبدو أراد أن يضم إليه الوزارة ليأمن كل منافس قد يفسد عليه الأمر فتقرر ذلك سنة ٤٦٨ هـ = ١٠٧٦ م ، [٢] وأصبح قواد الجيش والموظفون والقضاة والدعاة تحت سلطانه ، وابتدأ عصر الوزراء العظام أو عصر وزراء السيوف الذى استمر حتى نهاية الدولة ، وذلك فيما عدا فترات قليلة لم يستوزر فيها الخلفاء مثل الخليفة الآمر الذى لم يستوزر أحداً بعد أن قبض على الوزير المأمون بن البطائحى من سنة ٥١٩ حتى سنة ٥٢٥ هـ = ١١٢٥ ـ ١١٣٠ م والخليفة الحافظ الذى ظل فترة بدون وزراء

---

(١) « الإشارة إلى من نال الوزارة » ص ٥٦ .

(٢) ابن تغرى بردى « النجوم » جـ ٥ ص ١٠١ . ويذكر فى حوادث سنة ٤٦٨ هـ : فيها لبس بدر الجمالى أمير الجيوش من المستنصر خلعة الوزارة بمصر ، وكانت منزلته قبل ذلك من الوزارة ، ولكن لبسها حتى لا يترتب أحد فى الوزارة فينازعه فى الأمر .

وتولى الأمر بنفسه بعد موت الوزير يانس من سنة ٥٢٦ هـ حتى سنة ٥٢٨ هـ ، =١١٣٢ – ١١٣٣ م إلى أن وزر له بهرام سنة ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م ، ثم ظل فترة أخرى دون وزراء من سنة ٥٣٣ حتى سنة ٥٤٤ هـ = ١١٣٩ – ١١٤٩ م وكان المفروض وقد قامت الدولة الفاطمية على أساس ديني يرتكز على المذهب الإسماعيلي ، أن يكون الوزير وهو الرجل الثاني في الدولة بعد الإمام أو الخليفة شيعياً إسماعيلياً ، ولكن من الملاحظ أن الفاطميين لم يتقيدوا كثيراً بذلك ، فكان من وزرائهم المسلم وغير المسلم حتى إن أول وزرائهم كان يهودياً قبل إسلامه ، كما استعانوا باليهود في كثير من أعمالهم مما دعا البعض لاتهامهم بأن أصلهم من اليهود ، يقول ابن مالك[1] : « والدليل على أنهم من ولد اليهود استعمالهم اليهود في الوزارة والرياسة وتفويضهم إليهم تدبير السياسة وما زالوا يحكمون اليهود في دماء المسلمين وأموالهم » .

ولا شك أنه تحت حكم الفاطميين عموماً لقي غير المسلمين من مسيحيين ويهود معاملة طيبة . وكانت مناصب الدولة حقاً لكل من توافرت لديه الكفاءة اللازمة دون أي دخل لمعتقد أو مذهب . ولما كانت الموارد المالية لها أهميتها للدولة . اختار الخلفاء وزراءهم من المهرة في الشئون المالية ، ومن بين هؤلاء عدد كبير من أهل الذمة الذين أسلم بعضهم قبل تولية الوزارة وظل البعض الآخر على دينه . وإنه وإن كان كتاب النظم يجيزون أن يكون وزراء التنفيذ من أهل الذمة دون وزراء التفويض . إلا أن الفاطميين لم يتقيدوا بذلك أيضاً فاتخذوا وزير تفويض نصراني هو بهرام الأرمني وزير الحافظ .

وإذا راجعنا قائمة وزراء العصر الأول عند الفاطميين ، نلاحظ أن بعضهم من أهل الذمة والبعض الآخر وإن كان مسلماً إلا أنه يتمذهب بغير مذهب الدولة فابن كلس وأبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحي وأبو على الحسن بن أبي سعد التستري كانوا يهوداً قبل إسلامهم ، ومن الوزراء المسيحيين عيسى بن نسطورس وأبو العلا فهد بن إبراهيم والشافي زرعة بن نسطورس وأبو سعد منصور بن

---

(١) كشف أسرار الباطنية – ص ٢٠٠ .

أبي اليم سورس بن مكرواه الذى يقال إنه أسلم وإن أنكرت النصارى إسلامه ، وكان من وزراء التنفيذ المسلمين وزراء على غير مذهب الدولة مثل اليازورى الذى يعتبر من أهم وزراء التنفيذ فقد كان سنياً حنيفاً .

أما وزراء التفويض فقد كانوا كلهم مسلمين عدا بهرام ، إلا أن جلهم كانوا على غير مذهب الدولة ، مع أن القضاة والدعاة كانوا نواباً عنهم . فبدر الجمالى وابنه الأفضل وحفيده أبو على أحمد والمأمون بن البطائحى وآل رزيك كانوا إماميين مغالين فى مذهبهم ، ورضوان بن ولخشى وابن السلار وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين كانوا سنيين .

وكما لم يتقيد الفاطميون بالناحية الدينية لم يتقيدوا كذلك بجنسيات الوزراء ، هذا وإن اعتمد الفاطميون فى مبدأ الأمر على المغاربة فى إدارة شئونهم ، حتى إن جوهراً الصقلى عندما فتح مصر جعل مع كل موظف مصرى آخر مغربياً ، إلا أنه منذ عهد العزيز ابتدأ الخلفاء فى الاستعانة بالمشارقة ، فابن كلس لم يكن مغربياً ، بل كان بغدادى الأصل ، كما أن أغلب وزراء التنفيذ الذين لعبوا دوراً كبيراً فى سياسة الدولة كانوا من المشرق . فالجرجرائى كان عراقياً من قرية جرجرايا من سواد العراق واليازورى كان فلسطينياً وغيرهم كثيرون من جنسيات مختلفة [١] .

كما استعان الفاطميون ببعض المصريين خصوصاً من النصارى لما لهؤلاء من خبرة فى الشئون المالية مثل عيسى بن نسطورس وزرعة بن نسطورس وأبو سعد منصور بن مكرواه وأبو عبد الله محمد بن أبى حامد التنيسى [٢] .

أما وزراء التفويض فأغلبهم من الأرمن مثل بدر الجمالى وابنه وحفيده ويانس وزير الحافظ وبهرام والصالح طلائع بن رزيك . والملاحظ أن هؤلاء الوزراء الأرمن هم الذين لعبوا دوراً كبيراً فى حياة هذه الدولة . كما كان من هؤلاء الوزراء المغربى مثل الوزير عباس والبرقى كابن مصال اللكى والكردى مثل ابن السلار وشيركوه وصلاح الدين .

---

(١) راجع الملحق الخاص بجنسيات الوزراء . وراجع ملحق الوزراء .

(٢) ارجع إلى جدول جنسيات الوزراء .

الفصل الثانى

اختصاصات الوزراء

ذكرنا أن الوزراء نوعان ، وزراء تنفيذ ووزراء تفويض، وأن سلطات الأول محدودة مقيدة بعكس الثانى الذى فوضت إليه جميع أمور الدولة ، لذلك كان من الطبيعى أن تتفاوت اختصاصات الاثنين ، كما أن هذه الاختصاصات كانت تتوقف فى مدى اتساعها على شخصية الوزير وقوة الخليفة .

وإن اشتقاق لفظ الوزير من المؤازرة بمعنى المعاونة يبين أن أول اختصاصات الوزير معاونة الخليفة فى إدارة شئون البلاد ، وأنه الوسيط بين الإمام والرعية ، لذلك فهو بحكم مركزه أكبر موظف إدارى فى الدولة ، وله التوقيع عن الحضرة ومراجعة الشئون الهامة وأول واجباته النظر فى مالية البلاد ، لذلك كان تعيين الوزراء فى العصر الأول للحكم الفاطمى يتوقف على تفوقهم فى النواحى المالية أو الكتابة .

ونحن إذا استعرضنا سجلات تعيين الوزراء الفاطميين التى وصلت إلينا ، فإنها على قلتها تعطينا صورة واضحة عن الفرق الكبير فى النفوذ بين وزراء العصر الأول ووزراء العصر الثانى الذين عرفوا بوزراء السيوف . فسلطات وزير التنفيذ مقيدة ، وعليه أن يرجع إلى الخليفة فى كثير من الأمور : هذا وإن لم يتقيد بعض الوزراء الأقوياء أمثال ابن كلس والجرجرائى واليازورى بهذه الاختصاصات ؛ فكان لهم من النفوذ والسلطان ما جعلهم يتعدون حدود اختصاصاتهم ، كما نجد أن بعض الوزراء — خصوصاً من جاء منهم بعد اليازورى — لم يكن لهم من الأمر شىء ولم يستطيعوا حتى ممارسة اختصاصاتهم .

فلما تولى الجمالى شئون البلاد ابتدأ عصر الوزراء العظام أو وزراء السيوف

ووزراء التفويض ، وأصبح السلطان الفعلى منذ ذلك الوقت فى أيديهم وتوارى الخلفاء فى الظلال .

وسواء كان الوزير وزير تنفيذ أو وزير تفويض فإن أهم واجباته تنظيم الإدارة المالية وضبط موارد الدولة ، نلاحظ ذلك منذ تعيين ابن كلس فى عهد المعز للنظر فى شئون الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس ، فلما وزر للعزيز نقل الدواوين إلى بيته ونظم أمور الدولة المالية . كما كان أهم عمل للوزراء الذين عينوا بعد ابن كلس ضمان أموال الدولة فإن قل ارتفاعها عن مبلغ الضمان قبض على الوزير أو عزل .

وكانت إدارة الدولة المالية تشمل عدة دواوين على رأسها ديوان النظر . وصاحب هذه الوظيفة هو رأس الكل . وله الولاية والعزل وإليه عرض الأرزاق فى أوقات معروفة على الخليفة والوزير . وإليه طلب الأموال واستخراجها والمحاسبة عليها . ويتفرع من ديوان النظر ديوانان أحدهما ديوان التحقيق ، وعمله مراقبة الدواوين الأخرى ، وديوان المجلس . وكان يحل محل ديوان النظر عند عدم وجوده ، وكان يتولاه عندهم أحد كتاب الدولة ممن يكون مترشحاً لأن يكون رأس الدواوين ، ويسمى « استيمارة » دفتر المجلس ويثبت به جميع مصروفات الدولة من رواتب وعطاء ومصروفات الاحتفالات ، كما كان من عمله المقارنة بين مصروفات السنين المختلفة .

ومن هذه الدواوين ديوان الرواتب وتحفظ به سجلات برواتب الموظفين سواء كانت أموالا أو رواتب عينية ابتداء من الوزير حتى أصغر موظف . وكان ديوان الرواتب يقوم فى مستهل كل عام بعمل ميزانية برواتب الموظفين يرفعها إلى ديوان المجلس الذى يقوم برفعها إلى الخليفة أو الوزير لاعتمادها بعد إجراء أية تعديلات يراها زيادة أو نقصاناً . وقد شرح المقريزى[1] ذلك فقال : « وإذا انقضى عيد النحر من كل سنة تقدم بعمل الاستيمار لتلك السنة تمام ذى الحجة منها ، فيجتمع كتاب ديوان الرواتب عند متوليه وتحمل العروض

(١) الخطط حـ ١ – ص ٣٩٨ .

إليه ، فإذا تحررت نسخة التحرير بيضت بعد أن يستدعى من المجلس أوراق بالأرزاق الذى يقبض بغير خرج ، وفى الأرزاق ما هو مستقر بالوجهين فيضاف هذا المبلغ بجهاته إلى المبالغ المعلومة بديوان الرواتب وجهاتها حتى لا يفوت من الاستيار شيء من كل ما تقرر شرحه ويعلم مقداره عيناً وورقاً وغلة وغير ذلك ، فيحرر ذلك كله بأسماء المرتزقين وأولهم الوزير ومن يلوذ به وعلى ذلك إلى أن ينتهى الجميع فإذا تكمل استدعى له من خزانة الفرش وطاء حرير لشده وشرابة لمسكه إما خضراء أو حمراء ، ويعمل له صدر من الكلام اللائق بما بعده ، وهذا كله خارج عن الكسوات المطلقة لأربابها بالرسوم المعدة فى كل سنة وما يحمل من دار الفطرة من الأصناف برسم عيد الفطر وعما يشهد به دفتر المجلس من العطايا الخافية والرسوم . فإذا فرغ من مسكه فى الشرابة حمل إلى صاحب ديوان النظر إن كان ، وإلا فلصاحب ديوان المجلس ليعرضه على الخليفة إن كان يضحى مستبدًّا أو الوزير لاستقبال المحرم من السنة الآتية فى أوقات معلومة فيتأخر العرض وربما يستوعب المحرم كله ليحيط العلم بما فيه ، فإذا كمل العرض أخرج إلى الديوان وقد شطب على بعضه وينقص بعض للاستكثار ويزاد قوم للاستحقاق ، ويصرف قوم ويستخدم آخرون على ما تقتضيه الآراء فى ذلك الوقت ثم يسلم لرب هذا الديوان فيحمل الأمر على ما شطب وعلامة الإطلاق خروجه من العرض » . وهذه المرتبات بلغت فى بعض السنين ما يزيد على مائة ألف دينار ونحو من مائتى ألف ومن القمح والشعير عشرة آلاف إردب .

هذا عن المصروفات ، أما عن الإيرادات فكان الوزراء يهتمون بها اهتماماً بالغاً وذلك لمقابلة مصروفات الدولة الباهظة من رواتب وتكاليف للمواكب والاحتفالات والمآدب المختلفة الكثيرة والكساوى وغيرها من مظاهر البذخ التى حفلت بها أيام الفاطميين . وكانت هناك دواوين مهمتها جمع إيرادات الدولة منها ديوانا الخراجى والهلالى ، أما الخراجى فهو ما يحصل سنويًّا من الأراضى الزراعية علاوة على ما يؤخذ هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف

الريف . أما الهلالى فهى ضرائب مختلفة غير مباشرة فرضت قبل حكم الفاطميين لجمع المال بأى طريق أو كما يقول المقريزى : « والمال الهلالى عدة أبواب كلها أحدثوها ولاة السوء شيئاً بعد شىء وكانت قد أسقطت فى عهد ابن طولون ثم أعيدت فى الدولة الفاطمية عندما ضعفت وصارت تعرف بالمكوس » . ومن هذه الدواوين ديوان الجوالى ويختص بجباية الضرائب المفروضة على أهل الذمة . وديوان الصعيد وديوان أسفل الأرض ومهمتهما المطالبة بما تأخر من حسابات هذه الأقاليم . أما ديوان الثغور فيختص بجباية إيرادات ثغور مصر وموانيها كالإسكندرية ودمياط ونسترّوة والبراس والفرما وعيذاب ، وكانت أغاب إيرادات هذه البلاد تتمثل فيما يجبى عن البضائع الواردة أو ما يعرف برسوم الجمارك .

وكل هذه الإدارات كانت خاضعة لديوان النظر أو ديوان المجلس الذى كان يخضع بدوره لإشراف الوزير . فكانت أعمال الدواوين تعرض على الوزير بمعرفة رئيس ديوان النظر أو المجلس .

وكان للوزير الرأى الأول فى اختيار رؤساء الدواوين ، وإن كان سجل تعيينهم يخرج باسم الخليفة حتّى فى عهد الوزراء أصحاب السيوف ، وإن كان اسم وزراء الأقلام لا يذكر فى السجل فى حين أنه ينص فى عهد وزراء السيوف أن الوزير هو الذى قام بترشيح صاحب السجل لوظيفته ، بل إن وزراء السيوف كانوا فى أحيان أخرى يصدرون السجلات بأسمائهم مباشرة ويبدو أن ذلك كان يحدث فى الأوقات التى يكون للوزير فيها السيطرة التامة على الدولة .

هذا من الناحية المالية . أما من الناحية الإدارية ، فقد كانت الدولة الفاطمية فى أول الأمر تمتد من المغرب حتّى الشام ، وكانت تنقسم إلى ولايات ، أو نيابات عظيمة وذلك قبل استقلال هذه البلاد وخروجها من أيديهم فكانت هناك ولاية لدمشق ومضافاتها من البلاد الشامية ، وولاية إفريقية وما معها من بلاد المغرب ، وجزيرة صقلية ، واليمن . أما مصر نفسها فقد كانت مقسمة إلى أربع ولايات كبيرة أو أربع أقاليم هى ولاية قوص وتشمل الصعيد وولاية الشرقية وتشمل الأراضى الواقعة شرق فرع دمياط وولاية الغربية وتنظم

جميع البلاد الواقعة بين فرعي رشيد ودمياط وولاية الإسكندرية مضافاً إليها البحيرة . وكانت هذه الولايات مقسمة بدورها إلى كور تشتمل على المدن والقرى . وإلى جانب هذه الولايات الأربعة كان هناك ولايتا مصر والقاهرة .

وكان هؤلاء الولاة جميعاً خارج مصر وداخلها يتصلون بالوزير ويرجعون إليه ، فيذكر المقريزى أن ملوك الأطراف كاتبوا اليازورى بما يليق بمكانته فيما عدا المعز بن باديس ملك المغرب فإنه قصر فى المكاتبة عما يكاتب به من تقدمه من الوزراء ، فإنه كان يكاتب كلا منهم « بعبده » فجعل مكاتبته « صنيعة » . أما سجلات تعيين هؤلاء الولاة فكانت أيضاً تخرج باسم الخليفة ، ولكن يلاحظ أن سجلات القرن الأول من حكم الفاطميين وقبل وزارة بدر الجمالى لم يكن يذكر فيها اسم الوزير ، فقد أورد القلقشندى سجلا بولاية الأعمال القوصية من عهد العزيز لم يرد فيها أية إشارة عن ترشيح الوزير له ، وهذا بخلاف سجلات تعيين الولاة منذ وزارة بدر الجمالى فقد كان ينص بها أن الترشيح كان بمعرفة الوزير ورأيه ، بل إن بعض السجلات كانت تصدر عن الوزير مباشرة . هذا وإن كان لبعض وزراء الأقلام الأقوياء مثل ابن كلس الرأى الأول فى تعيين الولاة ، فنرى ابن كلس يعارض الخليفة فى تعيين بكجور والياً على دمشق ، ولم يقبل إلا أمام ضغط الظروف[1]. أما وزراء السيوف فقد كان بيدهم تعيين الولاة وعزلهم حتى إن الصالح طلائع بن رزيك كان يبيع الولايات .

أما الجيش فقد كان للوزراء حتى أصحاب الأقلام منهم السلطة على أرباب السيوف من الأجناد . وكانت رتبة أسفهسلار الجيش أو قائده تلى رتبتى الوزير ثم صاحب الباب . وكان ديوان الجيش من الدواوين التى تخضع لإشراف ديوان المجلس ، وهو كما رأينا يتصل رأساً بالوزير . ولم يكن لكثير من وزراء الأقلام نفوذ على الجيش إلا أن القليل منهم مثل ابن كلس والجرجرائى واليازورى كان باستطاعتهم أو على الأقل بمشورتهم إرسال الحملات التأديبية للجهات

---

(١) انظر الفصل الخاص بأثر الوزراء فى علاقة مصر بالشام .

الثائرة ، فلما أصبح الأمر بيد وزراء السيوف صار هؤلاء أمراء الجيوش وبيدهم تعيين القواد وعزلهم وتعبئة الجيوش ولهم أمر السلم والحرب .

أما الوظائف الدينية وعلى رأسها قاضى القضاة وداعى الدعاة ، فكان تقليدهما قبل وزارة بدر الجمالى ، من قبل الخليفة رأساً بوصفه صاحب السلطة الدينية ، ولم يكن للوزراء سلطة على القضاء ، ولكنا نرى ابن كلس مع ذلك كان يتدخل فى شئون القضاء ، فبرغم أن القاضى على بن النعمان كان من أقرب المقربين للخليفة وكان يجالسه ويؤاكله ويركب معه ، وبرغم ما كان للقضاء من أهمية بالنسبة لمركز الدولة الدينى فإن الوزير كان يعارض ابن النعمان ، الذى أصبح « لا ينفذ حكماً ولا يعدل شاهداً ولا يقلد نائباً إلا بعد مطالعة الوزير بذلك ، وأبطل القاضى الجلوس بالجامع لمبالغة الوزير فى إضعاف يده » . وتدخل ابن كلس فى تعيين القضاة إذ استدعى القاضى محمد بن الحسن من طرابلس الغرب « وأمره بالنظر فى الأحكام وفوض إليه قضاء دمياط وتنيس والفرما وغيرها عوضاً عن محمد بن النعمان » . واستدعى القاضى أبا على أحمد ابن القاسم من تونس « فرد إليه أمر المظالم بمصر وأعمالها وكتب له بذلك سجلا عن العزيز وأذن له فيه فى الحكم وسماه القاضى » .

فلما وزر بدر الجمالى صار القضاة والدعاة نواباً عنه ، وكانت السجلات منذ ذلك الوقت إما تصدر عن الخليفة مع التنويه بأن الوزير هو الذى قرر هذه النيابة ، وإما أن تصدر عن الوزير مباشرة ، وأصبح القضاة يذكرون هذه النيابة فى الأحكام وعقود الزواج وغيرها . وأصبح من ألقاب وزير السيف « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » .

أما النظر فى المظالم فقد اهتم الفاطميون بها اهتماماً كبيراً حتى إن المعز لم يكن يرد أى متظلم ، وكان إذا خرج للنزهة والترويح عن النفس أحاط به المتظلمون فلم يتردد فى النظر فى ظلاماتهم . والغرض من إنشاء المظالم النظر فى القضايا التى يعجز القضاة عن تنفيذ أحكامهم فيها ، أو لإنصاف الشاكين من كبار رجال الدولة كالوزراء والأمراء والحكام وغيرهم ، فهذه المحكمة العليا كانت أساساً للحد

من تعدى ذوى النفوذ ، لذلك كان لابد من إسناد رياستها إلى رجل جليل القدر واسع الهيبة .

وكان الخليفة الفاطمى ينظر فى المظالم بنفسه أحياناً أو ينيب عنه غيره ، فكان المعز فى أول الأمر يجلس للمظالم ثم جلس يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن للمظالم فى جامع ابن طولون . وظل ابن كلس عندما وزر للعزيز يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح فيدخل الناس عليه بظلاماتهم . كما أن فهد بن إبراهيم أخذ فى وزارة برجوان ينوب فى التوقيع عنه وينظر فى قصص الرافعين وظلاماتهم وجلس لذلك فى القصر .

إلا أنه فى تاريخ لا يمكن تحديده وربما كان ذلك فى خلافة الحاكم عندما استبد بالأمور كان الذى يتولى النظر فى المظالم هو صاحب الباب ، فكان يجلس فى باب الذهب بالقصر وبين يديه النقباء والحجاب ، فينادى المنادى بين يديه يا أرباب الظلامات فيحضرون . فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت إلى الولاة والقضاة رسالة بكشفها ، ومن تظلم ممن ليس من أهل مصر أو القاهرة أحضر قصة بأمره فيتسلمها الحاجب منه ؛ فإذا جمعها أحضرها إلى الموقع بالقلم الدقيق فيوقع عليها ثم تحمل إلى الموقع بالقلم الجليل فيبسط ما أشار إليه الموقع الأول ، ثم تحمل فى خريطة إلى الخليفة فيوقع عليها ثم تخرج فى الخريطة إلى الحاجب فيقف على باب القصر ويسلم كل توقيع لصاحبه .

ولكن منذ وزارة بدر الجمالى أصبح الوزراء أصحاب السيوف هم الذين يجلسون للمظالم يومان فى الأسبوع . على أنه فى بعض الأحيان كان يعهد لمن ينوب عنهم فى ولاية المظالم ، إذ يذكر القلقشندى أنه صدر سجل لرزيك ابن الصالح طلائع بولاية المظالم فى وزارة أبيه .

أما عن كيفية انعقاد مجلس المظالم ، فكان الوزير يجلس فى صدر المكان ، وقاضى القضاة مقابله وعن جانبيه شاهدان من المعتبرين ، وبجانب الوزير يجلس الموقع بالقلم الدقيق ويليه صاحب ديوان المال . ويقف بين يديه صاحب الباب واسفهسلار العساكر ، وبين أيديهما النواب والحجاب على طبقاتهم .

ولا شك أن محكمة يحضرها مثل هؤلاء الموظفين الكبار لدليل على مدى أهميتها وعلى الاهتمام بتحقيق أكبر قدر من العدالة . وكانت الطريقة التى تتبع فى نظر المظالم ، أن الرقاع كانت ترفع باسم الخليفة وكانت تقرأ أمام الوزير الذى يقرر رأيه فيكتبه صاحب القلم الدقيق على صلب العريضة ، ثم يتولى صاحب القلم الجليل كتابتها مرة أخرى بتوسع وتحمل فى خريطة إلى الخليفة فيوقع على القصة بخطه « وزيرنا السيد الأجل "ونعته المعروف" أمتعنا الله تعالى ببقائه يتقدم بكذا وكذا إن شاء الله تعالى » ويحمل إلى الوزير ، وإن كان يحسن الكتابة كتب تحت خط الخليفة « امتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه » ، وإن كان لا يحسن الكتابة ، كتب « امتثل » لفظ . وكانت المناشير تخرج باسم الخليفة مع ذكر الوزير ، ولكن فى بعض الأحيان كانت التظلمات ترفع رأساً باسم الوزير وفى هذه الحالة كان المنشور يخرج باسم الوزير .

الباب الثانى

رسوم الوزارة وتقاليدها ودورها

الفصل الأول

الاحتفال بتعيين للوزراء

كان للفاطميين ولع كبير بإقامة الحفلات فى الأعياد والمناسبات المختلفة ، وكانت هذه الحفلات تمتاز بالأبهة والفخامة والبذخ بقصد إظهار سلطانهم وعظمة دولتهم . ولقد كان للوزارة فى العصر الفاطمى – فى معظم الأوقات – المركز السامى والمكانة العليا بعد الخليفة ، بل أصبح الوزراء – كما رأينا فى النصف الثانى من الخلافة الفاطمية – فى مكانة تتضاءل بجانبها مكانة الخليفة نفسه . فلا غرو إذاً أن يكون الاحتفال بتنصيب الوزير احتفالا كبيراً يعكس صورة لعظمة الدولة وأبهة الملك وخطر المنصب .

وإنه وإن لم تعطنا المراجع التاريخية صورة واضحة عن كيفية الاحتفال بتنصيب الوزير – كما أعطتنا عن الاحتفالات الأخرى – إلا أنه يمكننا من القليل الذى ذكرته أن نلم بفكرة عامة عن ذلك .

يقول المقريزى (١) : « ولست عشرة بقيت من المحرم (سنة ٣٦٣ هـ) قلد المعز الخراج ووجوه الأموال جميعها والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين وجميع ما ينضاف إلى ذلك وما يطوى فى مصر وسائر الأعمال ، أبا الفرج يعقوب بن يوسف الوزير وعسلوج بن الحسين ، وكتب لهما بذلك سجلا قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون ... » ، فالاحتفال كما نرى بسيط لا يعدو كتابة سجل وقراءته فى المسجد . وقد يرجع ذلك إلى شخصية المعز القوية التى تتضاءل بجانبها الشخصيات الأخرى ، كما أن ابن كلس وعسلوج لم يكونا وزيرين بالمعنى المفهوم برغم الاختصاصات

(١) كتاب « اتعاظ الحنفا » – نشر الدكتور الشيال ص ١٩٦ .

الواسعة التى أعطاها لهما المعز ، إذ أنه لم يتخذ له وزراء .

فلما آلت الخلافة إلى العزيز بالله ، دخلت البلاد فى عهد من الرخاء والأمن ، وكان العزيز يحب الأبهة والفخامة ميالا إلى الترف . وكان يعقوب ابن كلس أول من وزر للعزيز محبًّا – مثل خليفته – لحياة العظمة . فلا شك أن الاحتفال بتولية ابن كلس كان فخماً رائعاً برغم إشارة المؤرخين إلى ذلك إشارة عابرة .

وقد تولى ابن كلس الوزارة فى المحرم سنة ٣٦٧ هـ = ٩٧٨ ، وفى سنة ٣٦٨هـ خرج سجل بتلقيبه بالوزير الأجل وخلع عليه وحمل ، ثم اعتقل فى سنة ٣٧٣ هـ = ٩٨٤ م وظل معتقلا حتى أطلقه العزيز سنة ٣٧٤ هـ وحمله على الخيل بالسروج واللجم الثقال ، وقرئ سجل برده إلى تدبير الدولة ووهبه خمسمائة غلام من الناشئة وألف من المغاربة ملكه العزيز رقابهم . .

وعندما تولى الحاكم الخلافة فى ٢٩ رمضان سنة ٣٨٦ هـ امتنع المغاربة عن البيعة وتقديم الولاء إلا إذا كانت الوساطة لرجل منهم ، فتقرر الأمر على أن يندب للوساطة الحسن بن عمار . وفى الثالث من شوال سنة ٣٨٦ هـ = ٩٩٦م أقيم الاحتفال بتولى ابن عمار الوساطة بحضور الحاكم فخلع عليه وقلده بسيف من سيوف العزيز ولقبه بأمين الدولة وقاد بين يديه وحمل معه خمسين ثوباً من البز الرفيع وانصرف إلى داره فى موكب عظيم . وفى يوم الجمعة التالى (٥ شوال) قرأ القاضى محمد بن النعمان فى الجامع الأزهر سجل تعيين ابن عمار للوساطة وتلقيبه أمين الدولة وألزم سائر أهل الدولة بالترجل له .

وكان يحتفل بتنصيب الوزير فى الإيوان بالقصر ، فيخلع عليه خلع الوزارة ويقرأ سجله بحضرة الخليفة أحياناً إذا أراد تشريف وزيره ، وبحضور كبار رجال الدولة والأمراء والقواد ، ثم يتوجه إلى داره فى موكب كبير والكل مشاة فى ركابه .

وفى بعض الأحيان لم يكن الخليفة يحضر قراءة السجل ، بل قد يكون تعيين الوزير والخلع عليه مفاجأة له ولسلفه وللحضور من رجال الدولة ، فيذكر

المقريزى : « أن قائد القواد حسين بن جوهر ظل قائماً بعمله كوسيط حتى يوم الجمعة سابع شعبان سنة ٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م فاجتمع سائر أهل الدولة فى القصر بعد ما طلبوا ، وخرج الأمر إليهم أن لا يقام لأحد ، وخرج خادم من عند الخليفة فأسر إلى صاحب الستر كلاماً فصاح صالح بن على ، فقام صالح ابن على الروذبارى متقلد ديوان الشام فأخذ صاحب الستر بيده ولا يعلم هو ولا أحد ما يراد به ، فأدخل إلى بيت المال وأخرج وعليه دراعة مصمتة وعمامة مذهبة ومعه مسعود فأجلسه بحضرة قائد القواد وأخرج سجلا وقرأه ابن عبد السميع الخطيب فإذا فيه رد سائر الأمور ، التى ينظر فيها قائد القواد حسين بن جوهر ، إليه ، فعندما سمع من السجل ذكره قام وقبل الأرض ، فلما انتهت قراءة السجل قام قائد القواد وقبل خد صالح وهنأه وانصرف »(١) .

كما كان بعض الوزراء يتقلدون الوساطة أو الوزارة بدون أى احتفال ، فقد أمر الحاكم ، أبا العباس الفضل بن الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات« يوم السبت ثانى ذى القعدة من سنة ٤٠٥ هـ = ١٠١٤ م بالجلوس للوساطة من غير خلع ولا حملان »(٢).

ويصف ابن القلانسى حفل تولية اليازورى الوزارة للمستنصر بقوله: « ووردت الأخبار من مصر بأن المستنصر بالله خلع على وزيره قاضى القضاة أبى محمد اليازورى فى الرابع من ذى القعدة سنة ٤٤٣ هـ ، ١٠٥١ م خلعاً فاخرة كانت غلالة قصباً وطاقاً وقميصاً دبيقياً وطيلساناً وعمامة قصباً وحمله على فرس رائع بمركب من ذهب وزنه ألف مثقال ، وقاد بين يديه خمسة وعشرين فرساً وبغلا بمراكب ذهب وفضة وحمل معه خمسون سفطاً ثياباً أصنافاً وزاد نعوته وألقابه وخلع على أولاده خلعاً تليق بهم . وكتب له سجل التقليد بإنشاء ولى الدولة أبى على بن حيزان وبالغ فى إحسان وصفه وتقريظه وإطرائه وإحماد رأيه

---

(١) المقريزى – الخطط جـ ٢ ص ١٥ .

(٢) ابن الصيرفى – الإشارة ص ٣٠ .

وما اقتضاه الرأى من اصطفائه للوزارة واجتبائه وقرئ بحضرة المستنصر بالله بين قواده وخدمه ووجوه أجناده »[١].

ولقد دخلت الدولة بعد اعتقال اليازورى فى حال من الاضطراب والفوضى وخرج الأمر من يد الخليفة وأصبحت البلاد مسرحاً للقتال بين الأتراك والسودان، وتولى الوزارة وزراء ضعاف كان الكثيرون منهم لا يبقى إلا أياماً ثم يعزل . ولا شك أنه فى هذه الفترة لم يعد للوزراة – شأنها شأن الخلافة – رونق ولا نفوذ ولا أبهة ، وعلى ذلك فإنه لم يكن يقام للوزراء أى احتفال ولا يخلع عليهم ، فالخليفة أصبح فى حالة من العوز والحاجة ، وظل الأمر كذلك حتى وزر بدر الجمالى وأعاد للدولة هيبتها وللحكم سلطانه .

ومنذ وزارة بدر الجمالى أصبح الأمر كله بيد الوزراء أصحاب السيوف واستبدوا بالدولة ، لذلك كان الاحتفال بتوليتهم الوزارة بالغاً حد الروعة والفخامة ، وكان يقام فى أول الأمر فى الإيوان ويحضره الخليفة وأبناء الوزير وكبار القواد ورجال الدولة والقضاة والدعاة ، بل كان يسمح لكافة الناس بالحضور . وبعد انتهاء الحفل يعود الوزير إلى داره وعليه خلع الوزارة والقواد والأمراء وكبار رجال الدولة مشاة فى ركابه .

فقد جاء فى السجلات المستنصرية عن حفل تولية بدر الجمالى ما يلى : « وبرز أمير المؤمنين من حجرات قصره إلى إيوانه فأفاض عليه حلة شرف كانت على جثمانه ، ونزع منكبه سيف الاقتدار وقلده تقليد جده لأبيه بذى الفقار ، وفوض إليه أمور الملك الذى استخلفه الله تعالى على سلطانه ، خلافة عنه فى دينه ودنياه ، ورفقاً به إلى محل لا يستحقه سواه ، بمشهد من عبيد دولته وأعيان مملكته من أصحاب السيوف والأعلام ، وكافة دعاة المؤمنين وسائر قضاة المسلمين ، وعين الله ترعاه وتأييده يكتنفه و يغشاه وقرئ سجله وأمير المؤمنين حاضر يرى ويسمع ، ويده مبسوطة إلى الله تعالى يدعو ويضرع ، فى إبقائه

---

(١) ذيل تاريخ دمشق – ص ٨٤/٨٥ .

لدولته وصرف المعاذير عن كريم مهجته » .

ثم أراد الخليفة أن يزيد فى إكرام بدر ، ويظهر عظيم مكانته ، فأمر بإنشاء سجل آخر يعدد مناقبه ويزيد فى ألقابه ، وبعد أن خلع الخليفة عليه وعلى ولديه أبى الحسين على وأبى القاسم شاهنشاه « قرئ السجل المذكور فى الإيوان عقب ذلك بحيث يسمعه أمير المؤمنين ومن شرفه الحضور من خواص دولته الميامين وكافة عبيده المؤمنين وسائر الناس أجمعين ، وانكفأ بعد ذلك إلى داره وهما صحبة محفوفاً بأنواع التشريف مكتوفاً ببساط العز المنيف » .

ولما مرض بدر الجمالى رؤى أن يقلد ابنه أبو القاسم شاهنشاه فى حياة أبيه ، وصار إليه النظر فى كل ما كان فى يد والده وأمر الخليفة « بإنشاء سجل قرئ فى الإيوان بمرأى ومسمع من أمير المؤمنين ومن سائر جلة الدولة وأشرافها وأمرائها وأوليائها ، وجنودها وعساكرها وغربائها وخاصها وعامها ، وأظهره على أعين الناس مجلبباً من التقليد والتفخيم والتعظيم مفاخر هى المفاخر والمعالى ، وعقد له من ذلك ما خفض به سكب المعادى وأبهج قلب الموالى » .

وقد حدث بعض التغيير فى الاحتفال بوزارة المأمون البطائحى إذ خلع عليه أولا ثم خلع عليه مرة ثانية وقرئ سجله بعد ذلك بيومين كما أن حفل قراءة السجل نقل من الإيوان إلى باب المجلس (قاعة العرش) ، فيقول المقريزى نقلا عن ابن المأمون : « خلع عليه الآمر (أى على المأمون) — فى مستهل ذى القعدة بمجلس الكعبة من القصر وهو المجلس [1] الذى يجلس فيه الخليفة ولم يخلع قبله على أحد فيه ، وحل المنطقة من وسطه وخلع على ولده وخلع منطقته وخلع على إخوته واستمر تنفيذ الأمور إليه إلى أن استهل ذو الحجة ، ففى يوم الجمعة ثانيه

---

(١) لعل المقصود بالمجلس هنا قاعة الذهب بالقصر ، إذ يقول القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٨/٤٩٩ : « وأعلم أن جلوس الخليفة أولا كان بالإيوان الكبير الذى كان بالقصر على سرير الملك الذى كان يصدره إلى آخر أيام المستعلى ، فلما ولى ابنه الآمر الخلافة بعده ، نقل الجلوس من الإيوان الكبير إلى القاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر أيضاً ، وصار يجلس من مجالسها على سرير الملك به » .

يعنى ثانى ذى الحجة - سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١ م - خلع على القائد ابن فاتك البطائحى من الملابس الخاصة الشريفة فى فردكم[١] مجلس الكعبة وطوق بطوق ذهب مرصع وسيف ذهب كذلك وسلم على الخليفة الآمر بأحكام الله وأمر الخليفة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه وأن يركب من المكان الذى كان الأفضل بن أمير الجيوش يركب منه ومشى فى ركابه القواد على عادة من تقدم ، وخرج بتشريف الوزارة يعنى من باب الذهب ودخل من باب الصيد راكباً ، وجرى الحكم فيه على ما تقدم للأفضل ، ووصل إلى داره فضاعف الرسوم وأطلق الهبات . ولما كان يوم الاثنين خامس ذى الحجة اجتمع أمراء الدولة لتقبيل الأرض بين يدى الخليفة الآمر على العادة التى قررها مستجدة ، واستدعى الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة فحضر بالسجل فى لفافة خاص مذهبة فسلمه الخليفة إلى الأجل المأمون من يده فقبله وسلمه القصر ، وأمر الخليفة الوزير المأمون بالجلوس على يمينه وقرئ السجل على باب المجلس وهو أول سجل قرئ فى هذا المكان ، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان وقدمت له الدواة فعلم فى مجلس الخليفة » .

ويصف المقريزى أيضاً حفل تولية الصالح طلائع بقوله : « وجلس الفائز فى بقية النهار - أى نهار الأربعاء تاسع عشر من ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م - وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد الجوهر وخلع على ولديه ونعت بالأجل الناصر عضد الإمام زعيم الأنام مجد الإسلام خدن أمير المؤمنين وأجرى فى الخلع مجرى الأفضل بالطيلسان المقور » .

وفى يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر أنشئ له سجل عظيم نعت فيه بالملك الصالح وكتب فى سجله على طرته بخط الفائز : « لوزيرنا السيد الأجل

---

(١) المقصود بفرد الكم أن الخليفة عند جلوسه مجلساً عاماً يجلس على سرير الملك ، ويكون باب المجلس الذى فيه الخليفة مغلقاً وعليه ستر معلق ، فيقف زمام القصر عن يمين باب المجلس وزمام بيت المال عن يساره ، والوزير واقف أمام باب المجلس وحوله الأمراء ، ثم يخرج صاحب المجلس كما من أكمامه وهو الذى يعرف بفرد الكم ويشير إلى زمام القصر وزمام بيت المال فيرفعان جانبى الستر فيظهر الخليفة جالساً على سرير الملك .

الملك الصالح ناصر الأئمة كاشف الغمة أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، غياث الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبو القارات طلائع ابن رزيك . . . إلخ » . ونزل الملك الصالح بالخلع والأمراء وغيرهم من أهل الدولة مشاة فى ركابه إلى دار الوزارة .

ونلاحظ مما ذكره أبو شامة أن منشور وزارتى أسد الدين شيركوه وصلاح الدين لم يقرآ فى القصر ، فمنشور أسد الدين قرئ فى الغالب فى معسكر شيركوه نفسه .

كما أن العاضد أرسل مع خلعة صلاح الدين ، منشور الوزارة ملفوفاً فى ثوب أطلس أبيض ، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ ،وقرئ المنشور بين يدى صلاح الدين يوم جلوسه فى دار الوزارة وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية .

وكان المتبع فى حفل تولية الوزير أن يقرأ سجل بتعيينه ، وكان هذا السجل يكتب فى ديوان الإنشاء بمعرفة رئيس الديوان نفسه . وفى هذا السجل تعدد مزايا الوزير والأسباب التى دعت إلى اختياره ويحدد اختصاصه .

ولهذه السجلات أهمية كبيرة من الوجهة التاريخية . إذ بالمقارنة بين سجلات الوزراء ، يظهر الفرق الكبير بين اختصاصات الوزير فى النصف الأول من العصر الفاطمى واختصاصات وزير السيف فى النصف الثانى .

ولم يصلنا من سجلات تعيين الوزراء إلا خمسة (١) ، أحدها سجل تعيين أبى القاسم على بن أحمد الجرجرائى وزيراً للخليفة الظاهر ، وهو من وزراء الأقلام فى القرن الأول من العصر الفاطمى . أما الأربعة الآخرون فخاصة بتعيين أربعة من وزراء السيف هم طلائع بن رزيك وشاور وشيركوه وصلاح الدين ، وهناك سجل سادس خاص بتعيين كامل بن شاور لمساعدة أبيه ، وهو أمر له

---

(١) لمن يرغب التوسع فى هذا الموضوع الرجوع إلى مجموعة الوثائق الفاطمية — المجلد الأول — الخاص بوثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة — نشر الأستاذ الدكتور الشيال .

سابقة فى تعيين أبى القاسم شاهنشاه فى حياة أبيه بدر .

والمقارنة بين سجل تعيين الجرجرائى والسجلات الأخرى ، تظهر الفرق الواضح بين نفوذ وزير القلم ووزير السيف . فالسجل الأول الخاص بتقليد الجرجرائى يذكر أن الخليفة اختار الجرجرائى لأمانته وكفايته وعلمه وتفوقه على أقرانه من الكتاب ، وأن هذه الصفات التى تحلى بها دفعت الخليفة إلى اختياره ليكون وسيطاً بينه وبين سائر الموظفين والرعية .

أما سجلات وزراء السيف فتبين أن الوزير أصبح فى يده زمام الحكم يتصرف كيف يشاء ، وأنه أصبح المدبر لشئون الدولة ، والمسيطر على أمورها الدينية والدنيوية ، فقد جاء فى سجل تقليد الصالح طلائع بن رزيك وزارة الفائز « فقلدك –أى الخليفة– من وزارته ، وفوض إليك تدبير ممالكه وكفالته ، وجعل لك إمارة جيوشه الميامين ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين وتدبير ما هو مردود إليهم من الصلاة والخطابة وإرشاد الأولياء المستجيبين ، والنظر فى كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، وكافة رعاياه بالحضرة ، وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها ، وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها .

بل إن الخليفة – زيادة فى تكريم وزيره – أصبح منذ عهد الفائز على الأقل يكتب بخطه على سجل التقليد كلمات فيها معنى المديح والتأييد لوزيره ، وهو ما يعرف بالتوقيع ويكون عادة فى طرة السجل وينتهى بتوقيع الخليفة أى بإمضائه .

وكانت نسخ هذه السجلات ترسل إلى الولايات وملوك الأطراف ودواوين الدولة ، وتقرأ فى الجوامع أيام الجمع حتى يعلم بها الجميع .

ومن تقاليد العباسيين والفاطميين أن يخلع الخليفة على وزيره عند التعيين أو فى المناسبات المختلفة . وخلعة الوزير هى لباسه الرسمى الذى يميزه عن سائر الأمراء والموظفين . وزى الوزير الفاطمى يشبه زى الوزير العباسى إلى حد

كبير ، فيما عدا اللون ، فقد كان اللون الرسمى للعباسيين السواد ، وكان شعار الفاطميين اللون الأبيض ولو أنهم على ما يبدو لم يتقيدوا كثيراً بمسألة اللون فى خلع الوزراء . فنرى الحاكم بأمر الله يخلع على وزيره الحسين بن جوهر ثوباً أحمر ومنديلا (عمامة) أزرق ، ومن قبل خلع المعز على جوهر الصقلى خلعة مذهبة وعمامة حمراء ، كما أن الخليفة فى أوقات أخرى لم يكن يخلع على وزيره .

وكان زى الوزراء فى الفترة السابقة لوزارة بدر الجمالى ، يتكون من ثوب قصير يعرف بالدراعة مفتوح من الأمام من النحر إلى أسفل الصدر بعرى وأزرار قد تكون من ذهب أو لؤلؤ ، ويضع على رأسه عمامة ذات طبقات عديدة وينزل طرفها ليدور حول الحنك . كما كان يتقلد سيفاً محلى بالذهب علامة على أن أمره نافذ على أرباب الأقلام والسيوف ويضع حول رقبته طوقاً من ذهب .

ولما تولى اليازورى الوزارة جمع القضاء والوزارة وبذلك احتفظ بالطيلسان – زى قاضى القضاة – مع زى الوزارة . ويغلب أن يكون الوزراء الذين جاءوا بعد اليازورى – وجمعوا بين القضاة والوزارة مثل ابن أبى كدنيه والفارقى وغيرهما – قد احتفظوا هم أيضاً بالطيلسان .

وكان الخليفة فى بعض الأحيان يخلع على الوزير وأولاده من ملابسه الخاصة ، وكان ذلك يعد من أعظم مظاهر التكريم والرضا .

ولما تولى بدر الجمالى الوزارة وأصبح كبير أصحاب السيوف والأقلام ، كما أصبح القضاة والدعاة نواباً عنه ، أدخل تغييراً فى زى الوزراء ، فبدلا من الطوق خلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر ، « وزيد له الذؤابة المرقاة والطيلسان المقور زى قاضى القضاة » .

ويذكر المقريزى أنه بعد الأفضل لم يعد يخلع على أحد من الوزراء بالطيلسان إلى أن وزر الصالح طلائع بن رزيك فجعل فى خلعته الطيلسان المقور والسيف. كما يقول عن المأمون بن البطائحى نقلا عن ابن الطوير « ولما دفن

الأفضل استعمل الآمر هذا الرجل – وكان يخاطب بالقائد حين خدمته الأفضل – فى الوساطة دون الوزارة ونعته بجلال الإسلام واستمر على ذلك ، ثم كمل له الوزارة ، وخلع عليه خلعة الوزارة إلا الطيلسان المقور » .

ومهما يكن الأمر فإن عدم لبس الطيلسان لم يغير من الأمر شيئاً ، فإن الوزراء ظلوا كما هم المسيطرين على أمور القضاء والدعوة واحتفظوا بلقب « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » .

وكانت خلعة الوزير خصوصاً وزير السيف – غالية القيمة ، وقد وصف أبو شامة الخلعة التى خلعها الخليفة العاضد على صلاح الدين عند توليه الوزارة فقال : « وكانت خلعته عمامة بيضاء تنيس بطرز ذهب ، وثوب دبيقى بطرازى ذهب وجبة تحتها سقلاطون[1] بطرازى ذهب ، وطيلسان دبيقى[2] بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار » .

وإلى جانب الخلعة الرسمية كان الخليفة يهدى وزيره ملابس أخرى وغلماناً وخيولا . فالعزيز قد أهدى وزيره ابن كلس خمسمائة غلام من الناشئة وألفاً من المغاربة ملكه رقابهم ، كما حمله على الخيل بالسروج واللجم الثقال . وابن عمار أهداه الحاكم مع خلع الوزارة خمسين ثوباً من البز الرفيع وفرساً بسرج ذهب . كما حمل حسين بن جوهر على فرس بسرج ولجام ذهب وقيد بين يديه ثلاثة أفراس بمراكبها وحمل بين يديه خمسون ثوباً صحاحاً من كل نوع .

وأهدى المستنصر وزيره اليازورى خمسين سفطاً من الثياب المختلفة وحمله على فرس رائع بمركب من ذهب وزنه ألف مثقال ومعهما خمسة وعشرون فرساً وبغلا بمراكب ذهب وفضة .

---

(١) السقلاطون : كلمة يونانية تطلق على ثياب كتان موشية .

(٢) نسبة إلى دبيق مدينة بمصر من أهم مراكز صناعة الطراز . وكان موقعها بين الفرما وتنيس ينسب إليها أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقى .

أما صلاح الدين فقد أهداه العاضد « فرساً صفراء لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، قيمتها ثمانية آلاف دينار وطوق وتخت وسرفسار ذهب مجوهر ، وفى رقبتها مشدة بيضاء وفى رأسها مائتا حبة جوهر وفى قوائمها أربعة عقود جوهر وقصبة ذهب فى رأسها طالعة مجوهرة وفى رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب ، ومع الخلعة عدة بقج وعدة من الخيل » .

وعلى عادة الفاطميين فى المواسم والأعياد ، كان يخلع على الوزير فى عيد النحر وغرة رمضان وفى أول جمعتين منه وفى موسم فتح الخليج وعيد الغدير .

ويصف المقريزى نقلا عن ابن المأمون ، بدلة المأمون البطائحى فى عيد النحر فيقول : « حمل برسم السيد الأجل المأمون (يعنى الوزير) بدلة خاصة مذهبة كبيرة موكبية عدتها إحدى عشرة . وما هو برسم جهاته وبرسم أولاده الأجل تاج الرياسة وتاج الخلافة وسعد الملك محمود وشرف الخلافة جمال الملك موسى وهو صاحب التاريخ نظير ما كان باسم أولاد الأفضل بن أمير الجيوش » .

وفى ثالث أيام عيد الأضحى عندما ينتهى الخليفة من نحر الأضاحى ويعود إلى قصره « يخلع على الوزير ثيابه الحمر التى كانت عليه يوم العيد ، ومنديلا بغير اليتيمية والعقد المنظوم بالجوهر ، وكان الوزير يركب بهذه الخلعة من القصر ويشق القاهرة بالشارع سالكاً إلى الخليج فيسير عليه حتى يدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة » .

أما خلعة الوزير فى غرة رمضان فهى بدلة مذهبة مكملة موكبية . وبرسم الجمعتين بدلتان حريرى . أما الكسوة الخاصة بفتح الخليج فكانت بدلة موكبية مذهبة فى تخت وبرسم أولاده (أى أولاد المأمون) الثلاثة ثلاث بدلات مذهبة وبرسم جهته حلة مذهبة فى تخت .

ويقول المقريزى عن بدلة المأمون لموسم فتح الخليج سنة ٥١٦هـ: « وأما ما يختص الوزير فبدلة مذهبة شرحها منديل سلفه سبعون ديناراً ، وخمسمائة وسبعون قصبة عراقى جملة سلفه وذهبه مائة وأربعة عشر ديناراً ، شقة دبيقى وكم السلفة ستة عشر ديناراً ، وثمانية وعشرون مثقالا ذهباً عالياً تكون جملة ذلك

خمسين ديناراً ، نصف شقة دبيقى وسطانى اثنا عشر ديناراً ونصف ، منديل كم سبعة دنانير واثنا عشر مثقالا ذهباً تكون قيمته تسعة عشر ديناراً ، حجرة ثلاثة دنانير ، عرض أربعة دنانير وأحد عشر مثقالا تكون سلفه وذهبه سبعة عشر ديناراً .

وفى بعض المناسبات الخاصة كان يخلع على الوزير إظهاراً لرضاء الخليفة ، فبعد هزيمة بنى قرة فى شوال سنة ٤٤٣ هـ خلع على الوزير اليازورى وزيد فى ألقابه .

الفصل الثانى

ألقاب الوزراء

فاق الفاطميون نظراءهم العباسيين فى اتخاذ الألقاب وإغداقها على رجال الدولة وخاصة الوزراء . وكان الخلفاء الفاطميون فى أول الأمر مقلين فى منح الألقاب حتى إن جوهراً الصقلى وهو أحد العمد القوية التى قامت الدولة على أكتافها ، لم يتلقب إلا بالقائد والكاتب ، هذا وإن كناه المعز بعد ذلك أبا الحسين .

على أن الأمر أخذ يختلف منذ أن تولى العزيز بالله الخلافة ، فكان أول من منح الألقاب ثم تلاه ابنه الحاكم فأكثر منها وتبعه خلفاؤه فى ذلك ، حتى انتهى الأمر بأن أصبحت الألقاب ، لا تدل على مدى نفوذ أصحابها بقدر ما دلت على ضعف الدولة وانهيارها ، كما حدث فى عهد المستنصر ، إذ أخذ الوزراء يحملون الألقاب الطنانة المختلفة ولا نفوذ فى يدهم ولا يد الخليفة نفسه .

فلما جاء بدر الجمالى وسيطر على الأمور وابتدأ عصر الوزراء العظام أخذت الألقاب تتوالى عليهم كلما زاد الخلفاء فى الضعف والوزراء فى السيطرة والحكم .

ولقد كان التقليد المتبع أن هذه الألقاب تصبح جزءاً لا يتجزأ من اسم الوزير نفسه ، فكانت الكتب الصادرة منه أو الواردة إليه ، سواء من الخليفة أو غيره ، تتضمن اسم الوزير مسبوقة بكل ألقابه ، كما كان الوزير لا يخاطب إلا ويذكر ألقابه . وأصبحت هذه الألقاب تنقش على الطرز والمبانى بل على النقود أحياناً .

ويمكننا تقسيم ألقاب الوزراء الفاطميين إلى مجموعتين ، المجموعة الأولى

خاصة بالوزراء قبل بدر الجمالى ؛ والمجموعة الثانية خاصة بوزراء الفترة التى تبدأ ببدر الجمالى حتى نهاية الدولة . وسندرس كل مجموعة على حدة .

ونلاحظ أن المجموعة الأولى تشمل ألقاباً مختلفة الدلالة فبعضها ألقاب تفخيم وإجلال مثل الوزير الأجل وتاج المعالى وتاج الرياسة وتاج الأصفياء ، وبعضها يدل على صفات مثل الأمين والناصح والخطير والمكين والأوحد والشافى والكافى ، وبعضها ينضاف إلى الدولة ، مثل أمين الدولة وقطب الدولة ويد الدولة أو ينضاف إلى الدين مثل الناصر للدين ، أو ينضاف إلى الملك مثل شمس الملك ، ومنها ما يقرن بالخلافة مثل عميد الخلافة ، أو أمير المؤمنين مثل خليل أمير المؤمنين ومصطفى أمير المؤمنين . وبعض الوزراء كان يضاف له التأمير مع الوزارة ، كما أن بعضهم لقبوا بالأذواء مثل ذى الجدين وذى الرياستين .

وأول من تلقب من الوزراء الفاطميين ، يعقوب بن كلس – وهو أيضاً أول وزراء الدولة–وقد لقبه العزيز بالله « الوزير الأجل » فى رمضان سنة٣٦٨هـ ، وأمر أن لا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا به . ولم يحمل ابن كلس غير هذا اللقب الذى اختفى فترة بعد موته إذ أن الذين جاءوا بعده لم يتسموا بالوزراء بل كانوا وسطاء . فلما عاد منصب الوزارة إلى الظهور . عندما وزر الجرجرائى للخليفة الظاهر سنة ٤١٨هـ=١٠٢٧م منح لقب « الوزير الأجل » مضافاً إلى ألقاب أخرى ، وظل هذا اللقب يضاف إلى ألقاب الوزراء الذين تولوا بعده حتى اختفى مرة أخرى منذ وزارة بدر الجمالى .

وجاء بعد ابن كلس سلسلة طويلة من الوسطاء وجدير بالذكر أنه بعد وفاة ابن كلس لم يتلقب أحد ممن تولوا الوساطة فى عهد العزيز .

فلما تولى الحاكم وأجبرته المغاربة على اختيار الحسن بن عمار للوساطة سنة ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م مسلمة زمام الأمور ولقبه أمين الدولة ؛ وهو لقب يدل على مدى سلطة ابن عمار .

وبرغم سلطان برجوان ونفوذه على الحاكم إلاأنه على مايظهر قنع بلقب الأستاذ

الذى كان يحمله من قبل ، فى حين أن كاتبه فهد بن إبراهيم قد لقب بالرئيس . وظل يحمل هذا اللقب حتى بعد أن ولى الوساطة مع حسين بن جوهر الذى لقب هو الآخر فى سجله الذى قرئ على المنابر فى السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٠ ه بقائد القواد . وصار هذا اللقب وقفاً عليه معروفاً به .

ومن الألقاب الأخرى التى صارت نعتاً خاصًّا لأصحابها ألقاب « ثقة ثقات السيف والقلم » الذى اختص به صالح بن على الروزبارى . والكافى لقب منصور بن عبدون . والشافى الذى عرف به زرعة بن نسطورس ، وأمين الأمناء الحسين بن طاهر الوزان .

ونلاحظ أنه فى الفترة التى اشتد فيها استبداد الحاكم وقتله كبار رجال الدولة ، أخذ يغدق الألقاب الرنانة على الوسطاء الذين لا يلبث أن يقتلهم بعد قليل . فنى رجب سنة ٤٠٨ ه كتب سجلا بألقاب أبى الحسن على بن جعفر ابن فلاح الذى ولى الوساطة فى سنة ٤٠٥ ه . وقد نعت فى هذا السجل « وزير الوزراء ذو الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة أبو الحسن » . ويستوقفنا فى هذه الألقاب عدة أشياء ، أولها ظهور لقب الوزير مرة أخرى . وقد يدل ذلك على أن ابن فلاح هذا كان وزيراً وليس وسيطاً ، خصوصاً وأن هذا اللقب اختفى مرة أخرى ولم يظهر إلا فى عهد الوزير الجرجرائى . ثانياً ظهور ألقاب الأذواء لأول مرة فى الدولة الفاطمية . فأصبح يلقب « ذو » الرياستين والمقصود بها رياسة السيف والقلم وهو لقب الوزير العباسى الفضل بن سهل وزير المأمون . كما أن هذا الوزير الفاطمى حمل — مثل الفضل بن سهل — لقب الإمارة فكان أول وزير فاطمى يحمل لقب الوزارة والإمارة .

وعندما أسندت الوساطة إلى صاعد بن عيسى بن نسطورس ، لقب « الأمير الظهير شرف الملك تاج المعالى ذو الجدين » . وقد ظهر فى ألقاب صاعد لقبان جديدان هما « شرف » الملك و « قسيم الخلافة » .

ولم تخرج ألقاب الوسطاء الذين تولوا بعد صاعد عن هذا المحيط . حتى إذا تولى أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى الوزارة سنة ٤١٨ هـ ، عاد لقب « الوزير الأجل » إلى الظهور مضافاً إليه ألقاب أخرى. فصارت ألقابه «الوزير الأجل الأوحد صفى أمير المؤمنين وخالصه » . وهنا تظهر لأول مرة الألقاب المنسوبة لأمير المؤمنين والتى أصبحت شائعة بعد ذلك .

وقبل أن يتولى اليازورى الوزارة للمستنصر ، كان قاضياً للقضاة ، وداعياً للدعاة ، وظل محتفظاً بهذه المناصب بعد إسناد الوزارة إليه ، لذلك كان لقبه : « الوزير الأجل الأوحد المكين سيد الوزراء تاج الأصفياء قاضى القضاة وداعى الدعاة علم المجد خالصة أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى » . ثم زيد فى نعوته « الناصر للدين غياث المسلمين » ، وجعل ذلك أول النعوت . ثم عدل لقب « خالصة أمير المؤمنين » بلقب « خليل أمير المؤمنين »

ونلاحظ فى ألقاب اليازورى أنه إلى جانب اللقبين الجديدين « قاضى القضاة وداعى الدعاة » ، ألقاباً أخرى جديدة ظهرت لأول مرة هى الألقاب المنسوبة للدين والمسلمين .

على أن من أهم الإضافات إلى ألقاب هذه الفترة لقبى « السيد الأجل » الذى كان من ألقاب الحسين بن سديد الدولة ، و « السيد الأفضل » من ألقاب أبى سعد منصور المعروف بابن زنبور . وأهمية هذين اللقبين ترجع إلى أنهما كانا من أبرز ألقاب وزراء السيف ، فإن صح ما ذكره ابن الصيرفى ، وهو مرجعنا فى ذلك ، لم تكن هذه الألقاب – كما يعتقد المؤرخون – من الألقاب التى استحدثت فى عهد بدر الجمالى وابنه الأفضل . كذلك نلاحظ أن أبا الفرج محمد بن جعفر المغربى وزير المستنصر سنة ٤٥٠ هـ كان يلقب بـ « الكامل » ، وعبد الله ابن يحيى المدبر وأبا المكارم المشرف بن أسعد كان يلقب كلاهما بالعادل ، ولقب أبو العلا عبد الغنى بن نصر ابن سعيد الصنيف « المأمون » . وقد أصبحت هذه الألقاب من الألقاب الخاصة لبعض وزراء السيوف هم المأمون بن البطائحى

وزير الآمر والعادل رزيك بن الصالح وزير الفائز ، وكامل بن شاور الذى وزر مع أبيه للعاضد .

ولقد لقب بدر الجمالى بألقاب كثيرة هى : « السيد الأجل أمير الجيوش ، سيف الإسلام . ناصر الإمام . كافل قضاة المسلمين . وهادى دعاة المؤمنين » . ولكن هذه الألقاب لم تمنح له مرة واحدة . فلقب « السيد الأجل ، أمير الجيوش » . عرف به منذ كان والياً على دمشق .

أما « سيف الإسلام ناصر الإمام » فنرجح أنه نعت بهما بعد حضوره إلى مصر وقضائه على أسباب الفتنة والفساد وعودة الاستقرار للبلاد . وأن سيف الإسلام يرمز إلى أنه حامى حمى الإسلام بقضائه على أعداء الخلافة التى تمثل فى نظرهم الإسلام . ويعنى بناصر الإمام أنه نصر الإمام الفاطمى أى المستنصر .

ولم يكتف بدر بهذه الألقاب التى تدل على سيطرته على شئون الدولة . إذ أنه تطلع إلى السيطرة على السلطة الدينية أيضاً . ففى سنة ٤٧٠ هـ فوض لأمير الجيوش قضاء القضاة وزيد فى نعوته « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » . ولقد صدر عن الخليفة المستنصر سجل بذلك أرسلت نسخته إلى أحمد بن على الصليحى ملك اليمن فى سلخ ذى القعدة سنة ٤٧٠ هـ . وجاء فى هذا السجل « ولما وجده أمير المؤمنين بسمات الدين الشرعى جديراً خليقاً . وألفاه فى عقدة الإيمان المهدئ مخلصاً عريقاً . ورآه بصفات الملك السياسى قميناً حقيقاً . قد نشر الله تعالى به دعوة المؤمنين بعد أن أصبحت رميماً . ونضر به خلافة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت هشيماً . لم يكن لأمير المؤمنين بد من أن يرقيه فى الرفع والإعلان فوق الفراقد ويحله منه محل الوالد . ويخجل له مقام الملك . وينزله فى عقد خلافة الإمامة مكان السلك . فنص عليه فى كفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين نص حق . ونقلها منه إلى محق مستحق . إذ أنه كان مبرزاً فى ميدانها . ناطقاً بلسانها . عالماً بأحكامها » . فهذا السجل يسرد صفات بدر وأنه المبرز فى الأمور الشرعية العالم بأحكام الدعوة الفاطمية

لذلك نقل إليه الخليفة سلطاته الشرعية إذ جعل له حق تعيين قاضى القضاة وداعى الدعاة بعد أن كان ذلك من سلطة الخليفة وحده. بعد أن تنازل له عن سلطاته الزمنية من قبل ، ولذلك تجد فى السجلات التى جاءت بعد سنة ٤٧٠ ﻫ جميعها ، أنه كان يلى اسم بدر وألقابه جملة « عضد الله به الدين » ، ولم تكن ترد فى السجلات قبل ذلك التاريخ أى قبل حصوله على هذا اللقب الدينى الجديد .

أما أبو القاسم شاهنشاه بن بدر الجمالى فقد كان يلقب قبل توليه الوزارة . « المؤيد مجد الملك عز الدولة غياث المسلمين ، صفوة أمير المؤمنين . ذو الفضائل أبو القاسم شاهنشاه أدام الله تمكينه وعلوه وكبت حسدته وعدوه » .

ولما اشترك مع أبيه فى الحكم أصبح لقبه « الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ، ناصر الدين . خليل أمير المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه » . ولكن ما إن انفرد بالحكم بعد موت أبيه ، حتى اتخذ نفس ألقاب أبيه مع زيادة كلمة « الأفضل » التى صارت نعتاً خاصًّا له برغم أن من خلفوه من وزراء اتخذوه ضمن ألقابهم . وبذلك صار لقبه « السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه عضد الله به الدين » .

فلما قتل الأفضل ووزر ابن البطائحى للخليفة الآمر سنة ٥١٥ ﻫ نعت فى سجل تعيينه : « الأجل المأمون تاج الخلافة وجيه الملك فخر الصنائع ذخر أمير المؤمنين » ثم تجدد له فى نعوته بعد ذلك « السيد الأجل المأمون تاج الخلافة عز الإسلام فخر الأنام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين » . إلا أنه تلقب بعد ذلك بالألقاب التى تلقب بها الأفضل وأبوه من قبل ، فصار لقبه « السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو عبد الله محمد الآمرى » .

ولم يستوزر الخليفة الآمر بعد قتل المأمون أحداً ، وإنما استعان بالراهب أبى نجاح بن قنا فى إدارة الدواوين وحسابات الدولة ، ولقب

« الأب القديس الروحانى النفيس . أب الآباء . سيد الرؤساء . مقدم النصرانية وسيد البطركية ثالث عشر الحواريين » .

أما أبو على أحمد بن الأفضل ، الذى فرضه الجند وزيراً للحافظ فإنه سرعان ما قبض على الحافظ وسجنه وانفرد بالأمر ، واختار لنفسه ألقاباً كثيرة ، وأمر بأن يدعى بها على المنابر ، وهى « السيد الأجل الأفضل مالك أصحاب الدول والمحامى عن حوزة الدين . وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره ، والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره . أمين الله على عباده ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده . ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده ، مولى النعم ورافع الجور عن الأمم مالك فضيلتى السيف والقلم ، أبو على أحمد ابن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه ، أمير الجيوش » .

وهذه الألقاب تدل على أن أبا على أصبح المسيطر الوحيد على أمور الدولة لا ينازعه أحد . كما تدل على أنه أراد القضاء على المذهب الإسماعيلى ، ونقل الدعوة إلى المذهب الإمامى ، وقد احتفظ الوزير المذكور بألقاب من سبقه من وزراء السيف ، فهو السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش ، إلا أنه اتخذ نعتاً خاصاً به هو « الأكمل كتيفات » .

فلما استعاد الحافظ نفوذه بعد قتل كتيفات . ووزر له يانس اتخذ نفس ألقاب بدر الجمالى وخلفائه . ولكن لما وزر بهرام الأرمنى لم يتلقب بلقبى « كافل قضاة المسلمين » و « هادى دعاة المؤمنين » . لأنه كنصرانى لا يجوز أن يكون القضاة والدعاة نواباً عنه .

ولما طرد رضوان بن الولخشى بهرام وحل محله فى وزارة الحافظ ، تقررت نعوته فى السجل الصادر من الخليفة « السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين أبو الفتح رضوان الحافظى » .

ونقف هنا وقفة قصيرة عند لقب من ألقاب وزراء السيف ، هو « الملك » .

لنحاول أن نبين من كان أول من حمله هؤلاء الوزراء . فالمقريزى والقلقشندى يذكران أن رضوان الولخشى أول من لقب بالملك من الوزراء[١] . ولكن المقريزى يعود فيذكر[٢] عند الكلام عن طلائع بن رزيك «وأنشئ له سجل عظيم نعت فيه بالملك الصالح . ولم يلقب أحد من الوزراء قبله بالملك» .

ومع ذلك فيمكننا أن نقرر استناداً إلى النصوص التاريخية أن لقب الملك هذا كان من ألقاب الوزراء الفاطميين منذ بدر الجمالى أو ابنه الأفضل على الأقل . فإن قال قائل إن هذا اللقب لم يرد ضمن الألقاب التى عرف بها هؤلاء الوزراء . نقول إنه برغم ما ذكره المقريزى والقلقشندى من أن رضوان بن الولخشى هو أول من حمل لقب الملك . فإن السجل الرسمى الخاص بإقرار الخليفة الحافظ لنعوت وزيره رضوان ، لم يرد فيه أية إشارة إلى هذا اللقب . كما أن أسامة بن منقذ عند ذكره لابن السلار وزير الظافر يلقبه بالملك العادل . كذلك لقب طلائع بن رزيك الملك الصالح . فى حين أنه عندما تكلم عن رضوان بن الولخشى لم يلقبه بالملك . فذكر هذا اللقب أو عدم ذكره لا ينفى أن رضوان بن الولخشى كان يتلقب بالملك . كذلك يمكن القول أن عدم ذكر لقب الملك ضمن ألقاب غيرهم من الوزراء ليس دليلا على أنهم لم يتلقبوا به .

أما الشواهد التاريخية التى نستند إليها فكثيرة ، فالقلقشندى يذكر أن وزراء الفاطميين لم يتخذوا الألقاب الملوكية إلا منذ بدر الجمالى . وأن لفظ السيد الذى حملوه منذ ذلك التاريخ يعنى فى اللغة الملك والزعيم . كما أن بدر الجمالى كان يذكر على أنه ملك مصر . يؤيد ذلك ما ذكره ياقوت فى ترجمته لأسعد ابن مهذب بن المليح أحد كتاب بدر . فيقول إن ابن مليح هذا اشترى سمكة من عنبر ثمنها ألف دينار وأحرقها . وكان بدر الجمالى قد امتنع عن شرائها استكثاراً لثمنها . فقال له بدر : «ويحك أنا المستعظم سمكة عنبر بألف دينار وأنا ملك مصر . فأتركها استكثاراً لثمنها . تشتريها أنت» ؛ فيرد عليه ابن مليح

(١) خطط ج ١ ص ٤٤٠ — م . اتعاظ الحنفا ص ١٣٧ ب — صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٨٧ ؛

(٢) م . اتعاظ الحنفا ص ٢٤٦ ب .

بأنه ما اشتراها إلا « غيرة على الملك » فإنه اليوم سلطان نصف الدنيا . فألقاب الملك والسلطان كانت كما رأينا تقرن باسم الوزير

كما أن لقب الملك ورد ضمن ألقاب بعض أمراء دمشق فى زمن المستنصر ، وقبل حضور بدر إلى مصر . ولما كان بدر والياً على دمشق وعكا وأكبر أمراء الشام . فلا يستبعد إذاً أن لقب ملك كان يحمله حتى قبل حضوره إلى مصر .

وأهم من ذلك كله السجلات الرسمية التى كانت تصدر عن المستنصر ، فهى خير شاهد على ما نقول . فقد أرسل المستنصر إلى أحمد بن على الصليحى فى سلخ ذى القعدة سنة ٤٧٠ هـ سجلاً جاء فيه عن بدر « ولما وجده أمير المؤمنين بسمات الدين الشرعى جديراً خايقاً . وألفاه فى عقدة الإيمان المهدى مخلصاً عريقاً . ورآه بصفات الملك السياسى قديماً حقيقاً . . . إلخ لم يكن لأمير المؤمنين بد من أن يرقيه فى الرفع والإعلان فرق الفراقد . ويحله منه محل الوالد . ويجعل له مقام الملك . . . إلخ » .

فالسجل كما نرى صريح فى أن بدراً قد تقلد الملك وبالتالى أصبح ملكاً . كما أن لفظ الملك اقترن باسم الأفضل فى كثير من المراجع خصوصاً المعاصرة له . ففى سجل صادر عن الخليفة الآمر بتجديد ولاية وال من ولاة الأقاليم جاء ما يلى عن الأفضل : « السيد الأجل الأفضل الذى ارتضاه الله للذب عن الإسلام . وانتضاه لنصرة إمام بعد إمام . وشهر مناقبه فى كل موقف ومقام . وخصه بفضائل لم تر مجتمعة لملك من ملوك الإسلام » . فمقارنة الأفضل بالملوك وتفضيله عليهم دليل على أن مكانته تفوق مكانتهم . ولقب الملك إذاً ليس غريباً عليه . والطرطوشى مؤلف « سراج الملوك » . وهو كاتب معاصر للأفضل يقول فى مؤلفه : « دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش وهو ملك مصر . . فقلت : أيها الملك إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلا عالياً شامخاً وأنزلك منزلا شريفاً باذخاً . وملكك طائفة من ملكه وأشركك فى حكمه » . . كما أن الشعراء كانوا يمدحون الأفضل ويلقبونه بالملك ، فأمية بن الصامت يمدح الأفضل بقصيدة منها :

الله زان بك الأيام من ملك   لك الحجول من الأيام والغرر

ومنها :

ملك تبوأ فوق النجم مقعده   فكيف تطمع فى غاياته البشر

ومنها :

يا أيها الملك السامى الذى ابتهجت   به الليالى وقر البدو والحضر

وهذا أبو طاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة كتب يستعطف الأفضل قائلا :

مثلى بمصر وأنت ملك   يقال ذا شاعر فقير

وعندما استبد أبو على أحمد بن الأفضل بأمور الدولة وسجن الخليفة الحافظ مدحه أبو المنصور ظافر الحداد الجذامى الإسكندرى بقصيدة جاء فيها :

حوى الملك ملك أغاث النفوسا   فأى نفيس تولى نفيسا

كما جاء ضمن نعوته التى قررها لنفسه « السيد الأجل الأفضل مالك أصحاب الدول » . فلفظة الملك هنا صريحة لا لبس فيها .

كما أن ابن تغرى بردى[1] يذكر عنه ، نقلا عن الحافظ ، أبو عبد الله الذهبى « صاحب مصر وسلطانها الملك الأكمل أبو على وابن صاحبها ووزيرها » ، ويستطرد « وإنما كان يطلق عليهم بالوزراء إلا لكون العادة كانت قد جرت بأن الملك للخليفة » .

يتضح مما سبق أن نعت الوزراء بالملك كان من الألقاب التى عرف بها الوزراء منذ بدر الجمالى حتى ولو لم ينص عليها فى ألقابهم الرسمية .

أما لماذا لم يظهر هذا اللقب إلا فى عهد رضوان بن الولخشى ، فربما كان سبب ذلك ، من أن لقب الملك يحتمل أن يكون نعتاً خاصاً لرضوان ، كما أن

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٤٨ .

لقب « الأفضل » كان نعتاً لشاهنشاه . و « المأمون » نعت ابن البطائحى . ثم أصبح لقب الملك لقباً عامًّا لمن جاء بعده ، إلى جانب الألقاب الأخرى ، كما أن هذا اللفظ كان يشفع دائماً بصفة . فابن السلار وزير الظافر تلقب بالملك العادل . وتلقب طلائع بن رزيك بالملك الصالح ، وصارت ألقابه المدونة فى سجل تعيينه « السيد الأجل الملك الصالح ناصر الأئمة وكاشف الغمة أمير الجيوش ، سيف الإسلام . غياث الأنام . كافل قضاء المسلمين . وهادى دعاة المؤمنين أبو الغارات طلائع بن رزيك الفائزى عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته » .

ولقب الخليفة العاضد وزيره شاور « السيد الأجل سلطان الجيوش ناصر الإسلام سيف الإمام شرف الأنام عمدة الدين . . . » . وهنا يظهر لأول مرة لقب سلسان الجيوش بدلا من أمير الجيوش .

أما لقب أسد الدين شيركوه كما جاء فى سجله « السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأمة فخر الدولة أسد الدين كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » .

ولم تخرج ألقاب صلاح الدين عن ألقاب عمه سوى نعته بالملك الناصر صلاح الدين .

الفصل الثالث

تقاليد الوزارة

كان للوزارة تقاليد خاصة تقتضيها أهمية المنصب وهي ما نقصد بها رسوم الوزارة . وقد رأينا أن الوزير كان يلبس ملابس خاصة تميزه عن سائر رجال الدولة ، وأنه عند تنصيب الوزير يقام له حفل خاص يقرأ فيه سجل توليته ويخلع عليه ثم يمشى الأمراء وكبار القواد والموظفين فى ركابه إلى داره .

إلى جانب ذلك كان الوزير عند تعيينه . يقدم له فى حفل توليه دواة من ذهب ليعلم بها فى حضرة الخليفة، وكان ذلك بمثابة الإشارة باستلام مهام العمل .

وكان القواد والأمراء يذهبون إلى دار الوزير للسلام عليه أو الانضمام إلى موكبه عند ذهابه إلى القصر أو العودة منه ، ويلزم كل الناس بالترجل له . ويتقدم موكب الوزير الطبول والأبواق والأعلام . ويسير حوله الحجاب ورجال حاشيته . وكان له حرس خاص . فابن كلس كان عدد حرسه أربعة آلاف . وابن السلار كان يحرس داره فى النوبة الواحدة ألف رجل .

وكان يبدأ باسمه فى الكتب الصادرة عنه والواردة إليه فيما عدا الكتب الموجهة إلى الخليفة . فكان اسمه يأتى بعد اسم الخليفة ، فيقال : « من فلان الوزير إلى فلان » . كما أن أسماء الكثير من الوزراء كانت تكتب على الطرز . ومنهم من كتب اسمه على النقود مثل اليازورى وأبى على أحمد بن الأفضل . ومنهم من كتب اسمه على المبانى والعمائر . فمن أمثلة ذلك ابن كلس الذى نال حظوة كبيرة عند العزيز وصار يثبت اسمه على الطراز وعلى المبانى . فقد ورد اسمه على قطع من النسيج من حوالى سنة ٣٧٠ هـ جاء فى إحداها « مما أمر الوزير الجليل أبو الفرج يعقوب بن يوسف عبد أمير المؤمنين بعمله » وفى الثانية « أمر

الوزير الجليل أبو الفرج يعقوب بن . . . . » وفى الثالثة « الوزير الأجل أبى الفرج يعقوب أطال الله بقاءه » . كما وردت الصيغة نفسها فى كتابة أثرية فى مقام الخضير فى دير البلح . كما وصلت قطع نسيج تشتمل على اسم الوزير الجرجرائى منها قطعة تاريخها سنة ٤٢٥ هـ خاصة بالظاهر والوزير الأجل صفى أمير المؤمنين وخالصه أبى القاسم على بن أحمد وقطعة ثانية بتاريخ سنة ٤٢٧ هـ . وفى قبة الصخرة كتابة أثرية تذكارية مؤرخة فى ذى القعدة سنة ٤٢٦ هـ باسم الظاهر والوزير الجرجرائى . كما توجد كتابة أثرية على بعض القطع بأسماء وزراء للمستنصر بعد الجرجرائى إحداها باسم اليازورى . كما كتب اليازورى اسمه على سكة نقشها :

ضربت فى دولة آل الهدى   من آل طه وآل ياسين
مستنصر بالله جل اسمه   وعبده الناصر للدين

وطبعت على الدنانير نحو شهر وأمر المستنصر ألا تسطر فى السير .

وفى قطعة نسيج فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة كتابة باسم الخليفة المستنصر ووزيره بدر الجمالى كما ورد اسمه على كثير من المبانى المختلفة .

وفى كنيسة سانت آن بمدينة آبت جنوبى فرنسا ملاءة تعرف باسم ملاءة سانت آن تاريخها سنة ٤٨٩ أو سنة ٤٩٠ هـ عليها اسم الخليفة المستعلى ووزيره الأفضل شاهنشاه .

ومما كانت تستلزمه تقاليد المنصب ، ذهاب الوزير إلى القصر فى أيام معينة للسلام على الخليفة ، كما كان عليه التوجه إلى القصر فى مناسبات خاصة ، مثل جلوس الخليفة فى أوقات معينة ، والسير بنظام معين فى مواكب الخليفة الرسمية . وقد ذكر القلقشندى هذه المناسبات ، وما كان على الوزير عمله فيها ، وهى ما يطلق عليها اليوم « البروتوكول » .

فكان الخليفة يجلس أحياناً فى أيام الاثنين أو الخميس فى قاعة العرش جلوساً عامّاً ، وقد كانت قاعة العرش هذه فى أول الأمر بالإيوان الكبير من

القصر حتى نقلها الآمر إلى قاعة الذهب . فإذا أراد الخليفة الجلوس وهيئ المجلس استدعى الوزير من داره بواسطة أحد كبار القصر يطلق عليه اسم صاحب الرسالة . يركب حصاناً رهواناً سريعاً ، فيخرج الوزير فى موكبه ليحف به حاشيته وبين يديه الأمراء ، فإذا وصل إلى القصر ترجل الأمراء وهو راكب إلى أول باب من الدهاليز الطوال عند دهليز يعرف بدهليز العمود فيترجل ويمشى وبين يديه أكابر الأمراء إلى مقطع الوزارة بقاعة الذهب . فإذا تهيأ جلوس الخليفة استدعى الوزير من مقطع الوزارة إلى باب المجلس الذى فيه الخليفة وهو مغلق وعلى بابه ستر معلق . فيقف زمام القصر عن يمين باب المجلس وزمام بيت المال عن يساره والوزير واقف أمام باب المجلس وحواليه الأمراء المطوقون وأرباب الخدم الجليلة ، ويضع صاحب المجلس الدواة مكانها من المرتبة أمام الخليفة ثم يشير إلى زمام القصر وزمام بيت المال فيرفعان جانبى الستر فيظهر الخليفة جالساً على سرير الملك ، وبعد أن يستفتح القراء بالقرآن ، يدخل الوزير المجلس فيسلم على الخليفة ويقبل يديه ورجليه ، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع ويقف ساعة زمانية ، ثم تخرج له مخدة عن الجانب الأيمن من الخليفة ويؤمر بالجلوس عليها بينما يقف الأمراء فى أماكنهم المقررة لهم فصاحب الباب واسفهسلار من جانبى الباب يميناً ويساراً ، ويليهم من خارجه ملاصقاً للعتبة زمام الآمرية والحافظية وباقى الأمراء على مراتبهم إلى آخر الرواق . وإذا دعت الحاجة الوزير إلى مخاطبة الخليفة فى أمر ما ، قام من مكانه وقرب منه منحنياً على سيفه ويخاطبه مرة أو مرتين أو ثلاثا . فإذا انفض المجلس أمر الحاضرون بالانصراف ويكون آخر من يخرج الوزير بعد أن يقبل يد الخليفة ورجليه ، فإذا خرج إلى الدهليز الذى ترجل فيه ، ركب منه إلى داره فى موكبه الذى حضر معه إلى القصر .

أما فى ليالى الوقود الأربع وهى ليلة أول رجب ونصفه وليلة أول شعبان ونصفه ، فيركب القاضى من داره بعد صلاة المغرب وبين يديه الشمع المحمول إليه من خزانة الخليفة موقوداً ، على كل جانب ثلاثون شمعة ، وبين الصفين

مؤذنو الجوامع يعلنون بذكر الله تعالى ويدعون للخليفة والوزير بدعاء مقرر وفى ركابه القراء يقرءون القرآن ، والشهود وراءه . فيتوجهون أولا إلى القصر حيث يخطب خطباء جوامع الأنور والأزهر والحاكم . فإذا انتهت الخطابة يؤذن لهم بالانصراف ، ثم يتوجه القاضى بموكبه إلى دار الوزير فيجلس لهم ليسلموا عليه ؛ ويخطب الخطباء الثلاثة عنده بأخف من مقام الخليفة ويدعون له ثم ينصرفون .

أما عن مواكب الخليفة فكان من أهمها ركوبه أول العام[١] ، وكانوا يهتمون به اهتماماً زائداً . فيخرج عن خزائن السلاح ما يحمله الركابية وغيرهم حول الخليفة ، ومن خزانة التجمل برسم الوزير والأمراء وأرباب الخدم ، الألوية والقضب والعماريات وغير ذلك ، كما كان يخرج للوزير من الإصطبلات عشرة أفراس لركوبه وركوب أخصائه وعليها السروج بالذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، وفى أعناقها أطواق الذهب وقلائد العنبر . وفى أرجل أكثرها خلاخل الذهب والفضة . قيمة كل فرس وما عليها من العدة ألف دينار . فإذا كان يوم التاسع والعشرين من ذى الحجة استدعى الخليفة الوزير من داره بوساطة صاحب الرسالة على النحو السابق ذكره . فإذا عاد صاحب الرسالة بعد استدعاء الوزير ، يذهب الخليفة إلى دهليز باب الملك الذى فيه الشباك وعليه ستر من ظاهره ؛ فيقف من جانبه الأيمن زمام القصر ومن جانبه الأيسر صاحب بيت المال ، ويركب الوزير من داره وبين يديه الأمراء ، فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء ويظل هو راكباً فيدخل من باب العيد حتى إذا وصل إلى أول باب من الدهاليز الطوال يترجل ويمشى فيها وحواليه حاشيته وأولاده وأقاربه ، فإذا وصل إلى الشباك وجد تحته كرسياً كبيراً من حديد فيجلس عليه ورجلاه تطآن الأرض ، فإذا جلس رفع الستر فيرى الخليفة جالساً فيقف ويسلم ويخدم بيده فى الأرض ثلاث مرات ، ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه فيجلس . وبعد أن يقرأ القراء شيئاً من القرآن لمدة نصف ساعة يسلم الأمراء ، ويشرع فى عرض الخيول التى ستكون فى الموكب فإذا انتهى عرضها وختم القراء أرخى الستر ، وقام الوزير فدخل على الخليفة فقبل يديه ورجليه ثم ينصرف ويركب من مكان نزوله

---

(١) يقول ابن تغرى بردى « النجوم » ج ٤ ص ٧٩ — إن المعز هو الذى استحسن ذلك .

ويخرج الأمراء معه إلى داره ركباناً ومشاة على حسب مراتبهم .

فإذا كان أول يوم من العام بكر الأمراء إلى دار الوزير ليركبوا معه ، فيخرج من داره ويركب إلى القصر من غير استدعاء وأمامه ما شرفه به الخليفة من الألوية والأعلام. والأمراء بين يديه ركباناً ومشاة وأولاده وإخوته قدامه وكل منهم مرخي الذؤابة بلا حنك . وهو فى هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل والحنك متقلداً بالسيف الذهب . فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء ودخل هو راكباً إلى محل نزوله بدهليز العمود فيترجل هناك ويمشي إلى مقطع الوزارة بقاعة الذهب هو وأولاده وإخوته وخواص حاشيته . فإذا تهيأ الخليفة للخروج يخرج الوزير فيركب ويقف قبالة باب القصر . حتى يخرج الخليفة ويسير وحوله وخلفه حرسه من الأمراء والأجناد . ثم يأتى خلفه الوزير فى هيئة عظيمة وفى ركابه نحو خمسمائة رجل ممن يختارهم لنفسه من أصحابه . وقوم يقال لهم صبيان الزرد من أقوياء الجند من جانبيه . وبعد أن يسير الموكب فى طريقه المعتاد إلى ما بين القصرين فيترجل الأمراء . فإذا انتهى الخليفة إلى الجامع الأقمر . وقف هناك فى جماعة وينفرج الموكب للوزير فيتحرك مسرعاً ليصير أمام الخليفة فإذا مر بالخليفة سكع (١) له سكعة ظاهرة فيشير الخليفة بالسلام عليه بإشارة خفيفة . وهذه أعظم كرامة تصدر من الخليفة ولا تكون إلا للوزير صاحب السيف . فإذا دخل الخليفة القصر مشى الوزير أمام وجه فرسه إلى الكرسى الذى ركب من عليه فيخدمه الوزير والأمراء وينصرفون . فإذا خرج الوزير إلى مكان ترجله والأمراء بين يديه . وأقاربه حواليه إلى خارج باب القصر فيركب منهم من يستحق الركوب ويمشى من يستحق المشى ويسيرون فى خدمته إلى داره . فيدخل راكباً وينزل على كرسى ليخدمه الجماعة وينصرفوا .

ويتفرق الناس إلى أماكنهم فيجدون الخليفة وقد أرسل إليهم الغرة ، وهى دنانير رباعية ودارهم خفاف مدورة . ويكون الخليفة قد أمر بضربها فى العشر الأخير من ذى الحجة برسم التفرقة فى هذا اليوم . لكل واحد من الوزراء والأمراء وأرباب المراتب من حملة السيوف والأقلام قدر مخصوص من ذلك ، فيقبلونها

(١) سكع : مشى مشياً متعسفاً لا يدرى أين يأخذ طريقه .

على سبيل التبرك من الخليفة . ويكتب إلى البلاد والأعمال مخلقات بالبشائر بركوب أول العام .

ولا تختلف مواكب الركوب الأخرى كركوب أول رمضان وصلاة العيدين ولتخليق المقياس. عن ركوب أول العام من حيث الترتيب المقرر .

وفى صلاة جمع رمضان الثلاث الأولى فى الأنور والثانية فى الجامع الأزهر والثالثة فى الجامع العتيق بمصر وعيدى الفطر والأضحى . يصعد للخليفة إلى المنبر ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس . ثم يزر عليه تلك القبة وينزل مستقبلا الخليفة ويقف ضابطاً للمنبر . فإن لم يكن الوزير صاحب سيف كان الذى يزر عليه قاضى القضاة . وبعد أن يخطب الخليفة ويدعو . يدعو للوزير إن كان ثم وزير وللجيوش بالنصر والتآلف . وعندما يقف الخليفة فى المحراب إماماً يقف الوزير وقاضى القضاة صفاً . ومن ورائهما الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام . فإذا فرغ خرج الناس وركبوا أولا فأولا وعاد إلى القصر والوزير وراءه حتى يأتى إلى القصر والطبول والبوقات تضرب ذهاباً وإياباً .

وقد استناب الآمر وزيره المأمون لخطبة جمع رمضان فصار الوزير يخطب بجامع القاهرة وجامع ابن طولون وجامع مصر . ولكن الآمر احتفظ لنفسه بالخطبة فى الأعياد .

وفى شهر رمضان كان يقام بقاعة الذهب بالقصر . ابتداء من ليلة الرابع إلى ليلة السادس والعشرين . سماط يدعى إليه الأمراء بالنوبة . ولم يكن الخليفة يحضر هذا السماط . بل يحضره الوزير فيجلس على رأس السماط . فإن غاب قام ولده أو أخوه مكانه فإن لم يحضر أحد منهم كان صاحب الباب عوضه . وإذا حضر الوزير بعث الخليفة إليه من طعامه الذى يأكل منه تشريفاً له . وربما خصه بشىء من سحوره . ولما كان فى عهد الآمر نقل الأفضل الأسمطة إلى دار الملك سنة ٥٠١ هـ وظلت تقام بها إلى أن قتل فأعادها الآمر إلى القصر .

وفى الأيام المخصصة للتهنئة بالأعياد كان الرسم المقرر لذلك ، أن يجلس الوزير فى داره عند أذان الصبح . ويحضر الناس لخدمته والتهنئة على طبقاتهم من أرباب السيوف والأقلام ، ثم الأمراء المحنكون من الأستاذين والشعراء . وبعد أن ينتهى من ذلك يركب إلى القصر فى موكبه ، فيدخل من باب الذهب حتى يأتى إلى مكان مخصص عند باب يعرف بباب السرداب . وهناك يجد مرتبة الوزارة قد هيئت . فيجلس عليها هو وأبناؤه وأشقاؤه . ويقف بين يديه المطوقون فقط . إذ لا يصل إلى هذا المكان سواهم . وسرعان ما يفتح الباب ويخرج عدة من الأستاذين المطوقين وعلى رأسهم حامل الرسالة ، بسلام الخليفة . فيقف أولاد الوزير وأشقاؤه ، وعندما ينهى حامل الرسالة سلام الخليفة ، يقوم الوزير فيقبل الأرض ويعود إلى مجلسه ، فيتأخر الأمير حامل الرسالة إلى أن ينزل من المصطبة فيقبل الأرض ويد الوزير ثم يدخل من الباب ويغلقه : « وكان الأفضل يقول ما أزال أعد نفسى سلطاناً حتى أجلس على تلك المرتبة . والباب يغلق فى وجهى والدخان فى أنفى . فإن الحمام من خلف الباب فى السرداب » . ثم يفتح الباب مرة أخرى ويدخل حامل الرسالة ويشير إلى الوزير بالدخول إلى القصر فيدخل إلى المكان المعد له فى مجلس الوزارة . ويبقى الأمراء بالدهاليز حتى يجلس الخليفة ويستفتح القراء . ويستدعى الوزير فيدخل هو وأولاده للسلام على الخليفة ويتبعهم الأمراء على طبقاتهم للسلام بصيغة مقررة ، ويعود الوزير بموكبه الذى حضر به إلى داره .

وهذه المواكب والاحتفالات كما يقول ابن تغرى بردى[1] إن المعز هو الذى استنها . ونتساءل هل ظلت هذه المواكب والاحتفالات على نفس الترتيب منذ بدأها المعز . إن المراجع التى وصفت هذه الاحتفالات مثل المقريزى والقلقشندى وابن تغرى بردى لم تتعرض لذلك ، ولكن من بعض الشواهد التاريخية يمكن أن نحدد أن ما ذكرته هذه المراجع عن هذه الاحتفالات كانت صورة لما كان يحدث منذ عهد الآمر . من ذلك :

---

(١) النجوم – ج ٤ ص ٧٩ .

أولا : فى ذكر ركوب أول العام يأتى ذكر الجامع الأقمر ، وهذا الجامع بناه المأمون البطائحى فى خلافة الآمر .

ثانياً : فى احتفالات قطع السد وتخليق المقياس تذكر أن الخليفة والوزير ينزلان فى جامع المقياس . وهذا الجامع بنى حوالى سنة ٤٨٠ هـ .

ثالثاً : يذكر ابن تغرى بردى فى ترجمة للمعز وهو يتكلم عن مواكب الفاطميين . فى ركوب الخليفة أيام السبت والثلاثاء . أن الخليفة كان يسير إلى دار الملك وينزلها مع الوزير . ودار الملك هذه بناها الأفضل سنة ٥٠١ هـ وقد صادرها الآمر بعد وفاة الأفضل وصارت من ضمن مناظر الخلفاء .

ولكن هذا لا يمنع أن تكون المواكب والاحتفالات كانت قبل الآمر على المستوى نفسه من الروعة وعلى نفس الترتيب أو قريبة منه .

إلى جانب ذلك كان للوزراء مجالس خاصة ، فيعقوب بن كلس كان له مجلس حكم كل يوم . وكان يعقد كل يوم ثلاثاء مجلساً يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل للمناظرة بين يديه ، وكان له مجلس آخر يوم الجمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس بنفسه ، يحضره القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود ، كما كان يحضره من يريد من الخاص والعام .

وكان للأفضل مجلس بدار الملك يقال له مجلس العطايا . يجتمع فيه مع القواد والأمراء والشعراء ، وكان بهذا المجلس ظروف من الديباج مملوءة بالدنانير مخصصة للعطاء .

أما المأمون البطائحى فكان يخصص يومى الأحد والأربعاء للجلوس بداره للراحة والنفقة فى العسكر ، وله مجلس آخر يوم الجمعة ويطلق فيه للمقرئين والفقراء والمعوزين ما هو مرتب لهم .

الفصل الرابع

راتب الوزير وثروته

كان راتب الوزير أكبر راتب بين موظفى الدولة . ويشمل إلى جانب ما يصرف له نقداً . مقررات أخرى عينية . وهو ما يصرف برسم مطابخه من لحوم وحبوب وفاكهة . وما يقرر له ولأولاده وجهاته من كسوات فى الأعياد والمواسم ، كما كان الخليفة يمنحه الإقطاعات . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان لإخوته وأولاده وحاشيته رواتب مقررة .

وراتب الوزير فى الشهر خمسة آلاف دينار خارجاً عن الإقطاعات ، ونلاحظ أن مرتب الوزير الفاطمى مثل راتب زميله العباسى . ويظهر أن هذا المرتب كان ينقص فى بعض الفترات ، فإن المأمون البطائحى كان يتقاضى مرتباً من بيت المال ثلاثة آلاف دينار « تفصيلها ما هو على حكم النيابة فى العلامة ألف دينار ، وما هو على حكم الراتب ألف وخمسمائة دينار ، وما هو عن مائة غلام برسم مجلسه وخدمته لكل غلام خمسة دنانير فى الشهر »[1] .

وكان لكل من إخوة الوزير وأولاده مرتبات مقررة تتراوح بين مائتى وثلثمائة دينار ، وقد زيدت إلى خمسمائة دينار لكامل بن شاور . وهذه المرتبات لم تكن نظير عمل يقومون به بل بحكم صلتهم بالوزير ، فإذا ما أسند لأحدهم أى عمل تقاضوا عنه أجراً علاوة على ما هو مقرر لهم .

كما كان لأتباع الوزير وخدمه رواتب تتراوح فى مجموعها ما بين ثلثمائة وخمسمائة دينار فى الشهر .

---

(١) ونلاحظ الفرق الكبير بين راتب الوزير وغيره من الموظفين إذا علمنا أن راتب قاضى القضاة وداعى الدعاة – على علو مكانتهما – مائة دينار فى الشهر .

أما الجرايات التى كانت تصرف لمطابخ الوزير فكانت تختلف من وقت لآخر ، وسنأخذ مثالا لما كان يصرف لوزير من وزراء النصف الأول من حكم الفاطميين ، وآخر من وزراء النصف الثانى . فكان يصرف لابن عمار فى عهد الحاكم فى كل شهر خمسمائة دينار للحم والحيوان والتوابل والفاكهة ، علاوة على سلة من الفاكهة فى كل يوم بدينار ، وعشرة أرطال شمع كل يوم ، وحمل ثلج كل يومين .

أما المأمون البطائحى ، فكان يصرف له فى السنة « عشرون ألف إردب قمح وشعير ، ومن الغنم برسم مطابخه مساقة من المراحات ثمانية آلاف رأس ، وأما الحيوان والأحطاب وجميع التوابل العالى منها والدون ، فهما استدعاه متولى المطابخ يطلق من دار أفتكين »[1] وشون الأحطاب وغير ذلك . كما كان يصرف له من البخور ما بيانه فى الشهر ، قد مثلث خمسة عشر مثقالا ، وعود صيفى ستون درهماً ، وعنبر خام ستة مثاقيل ، وكافور ثمانية دراهم ، وزعفران شعر عشرة دراهم ، وماء ورد خمسة عشر رطلا .

وكان الخليفة يقطع وزيره الإقطاعات المختلفة ، فالخليفة العزيز أقطع وزيره يعقوب بن كلس الإقطاعات بالشام ومصر . وكانت مساحة هذه الإقطاعات التى يهبها الخليفة للوزير تختلف من وقت لآخر وتتوقف على مدى نفوذ الوزير ومنزلته لدى الخليفة . فإقطاعات وزير مثل ابن كلس أو اليازورى — وهما اللذان كان لهما اليد الطولى فى تسيير الأمور — لا يمكن أن تقاس بإقطاعات غيرهما من الوزراء أصحاب الأقلام . وهذه الإقطاعات كانت على نوعين ، إما إقطاع تمليك فتصبح ملكاً خالصاً للوزراء يتصرفون فيها ، وإما إقطاع استغلال حيث يقطع الوزير جهة أو جهات مختلفة نظير دفع مبلغ من المال يقل عما يجبيه المقطع من أهل الجهة ويستولى على الفرق بين ما دفعه وما جباه . وقد يشمل الإقطاع ارتفاع بعض النواحى خالصة للمقطع فى حياته وقد تقطع لذريته من بعده أيضاً .

---

(١) دار أفتكين التى كان يسكنها القائد أفتكين الذى هرب مع نزار بن المستنصر فى عهد المستعلى إلى الإسكندرية وقد حولت إلى خزائن .

أما إقطاعات وزراء السيف منذ عهد بدر الجمالى فكانت واسعة إذ أصبح الأمر بأيديهم ولهم مطلق التصرف فى الأمور . ويغلب أن يكون إقطاعات هؤلاء الوزراء إقطاعات تمليك ، لهم الحق فى توريثها لذراريهم[١] .

فإذا انتقلنا للكلام عن ثروة الوزراء الفاطميين . نجد أن المراجع التاريخية قد أعطتنا صورة واضحة عن مقدار ثراء الوزراء وما كانوا ينعمون فيه من غنى وجاه . وفى الحق أن الإنسان ليقف ذاهلاً أمام هذه الثروة الطائلة وحياة البذخ والأبهة التى كانوا يعيشونها والتى تدل على ما بلغته البلاد من ثراء ، وإن دلت أيضاً على أن هؤلاء الوزراء لم يقنعوا برواتبهم وإقطاعاتهم ، بل امتدت أيديهم إلى أموال الدولة . يستوى فى ذلك وزراء القسم الأول ووزراء القسم الثانى . فكان الوزراء يستغلون إشرافهم على الشئون المالية فيقتنون الأموال والأملاك . وكان نظام الضمان والالتزام باباً من الأبواب التى استغلها الوزراء فى الثراء على حساب الشعب خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من الوزراء الذين جاءوا بعد ابن كلس كانوا يضمنون أموال الدولة فيرهقون الشعب بالضرائب ليستولوا على الفرق بين قيمة الضمان وما يجمعوه .

باب آخر من أبواب الثراء غير المشروع الذى اتبعه الوزراء ، هو مصادرة أموال الأمراء وأفراد الشعب ، وكانت مصادرة أموال الغير شيئاً مألوفا ، حتى إن منصور بن عبدون وزير الحاكم أنشأ ديواناً يعرف باسم المفرد توضع فيه الأموال المصادرة من رجال الدولة الذين يغضب عليهم الحاكم . وقد توسع وزراء السيوف فى مصادرة الأموال ، فعند دخول بدر الجمالى البلاد صادر أموال أمراء الأتراك الذين قتلهم ، كما أن الصالح بن رزيك صادر أموال الناس وشرع فى الميل على المستخدمين وأخذ أموالهم وتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان فسلبهم نعمهم ، كما كان يبيع الولايات . هذا وإن تعفف البعض الآخر من الوزراء عن مصادرة أموال الناس مثل الأفضل ورزيك بن الصالح .

باب ثالث كان يتبعه الوزراء هو الاحتكار والاتجار ، فكانوا يحتكرون

---

(١) خطط — ج ٢ ص ١٢٩ .

بعض الأصناف للاتجار بها . والاحتكار كان شيئاً مألوفاً حتى لدى الخلفاء أنفسهم . وكان اشتغال الوزراء بالتجارة من أسباب ثروتهم ، فكان ضمان ألبان مواشى الأفضل وحدها ثلاثين ألف دينار فى السنة . كما أن الصالح رزيك قد احتكر الغلات حتى غلت الأسعار واستفاد هو بهذه الزيادة . وفى وزراة المأمون ابن البطائحى أمر ببناء دار واسعة فى مكان الاحتفال بكسر الخليج ليتفرج الناس فيها عند كسر الخليج بالكراء .

ودراسة لثروة الوزراء تعطينا فكرة عن ضخامة هذه الثروة .

فهذا يعقوب بن كلس قد جعل من داره قصراً ينافس قصر الخليفة ، بما يزخر به من رياش ، وما يضم بين جوانبه من حاشية . وقد جعل فى داره خزائن للكسوة وخزائن للأموال وأخرى للأشربة ، وكان على كل منها ناظر خاص يديرها ، كما اتخذ حرساً خاصاً بلغ عدده أربعة آلاف من العبيد والمماليك وهم الطائفة المعروفة بالوزيرية . ورتب فى داره الحجاب نوباً وأجلسهم على مراتب وألبسهم الديباج . وقلدهم السيوف وجعل لهم المناطق . وإذا علمنا أن عدد المحظيات فى قصره بلغ ثمانى مائة حظية ، فما بالك بجوارى الخدمة . وكان هناك أطباء مخصصون للكشف على هذا الحشد الهائل وصرف الدواء اللازم . وإلى جانب هذا العدد الكبير من العبيد والجوارى كان هناك عدد آخر من رجال الحاشية والكتاب والعلماء والأدباء والشعراء والفقهاء المتكلمين وأرباب الصنائع لكل طائفة مكان منفرد وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق .

وقد أقام ابن كلس بداره عدة مطابخ لتقديم الطعام لهؤلاء جميعاً علاوة على المطابخ الخاصة التى كانت تقوم بخدمته وخدمة جلسائه وخواصه وضيوفه . كما كان يقيم فى شهر رمضان الموائد للفقهاء ووجوه الناس وأهل الستر والتعفف ولجماعة كثيرة من الفقراء . وكان إذا فرغ الفقهاء والوجوه من الأكل معه يطاف عليهم بالطيب .

وخلف ابن كلس جواهر تقدر قيمتها بأربعمائة ألف دينار . وبز من كل صنف بخمسمائة ألف دينار .

كما ترك أملاكاً وضياعاً ورباعاً وعيناً وورقاً وأوانى من الذهب وفضة وجوهراً وعنبراً وطيباً وثياباً وفرشاً ومصاحف وكتباً وجوارى وعبيداً وخيلا وبغالا ونوقاً وحمراً وإبلا وغلالا وخزائن ما بين أشربة وأطعمة قومت بأربعة ملايين دينار سوى ما جهز به ابنته وبلغت قيمته مائتا ألف دينار .

وقد بلغ من ثراء ابن كلس أن اتهمه أعداؤه بأنه حاز من كل شىء أعلاه وترك للخليفة ما دون ذلك .

ولم يكن الوزراء الذين جاءوا بعد ابن كلس أقل حباً لجمع المال ، فالكل اتخذ من الوزارة وسيلة للثراء ، حتى إن عيسى بن نسطورس عندما قبض عليه العزيز استشفع بست الملك ابنة الخليفة ، وقدم لخزانة العزيز ثلثمائة ألف دينار .

وإن وزيراً مثل ابن عمار الذى انتهز فرصة موت العزيز وصغر سن الحاكم ، وسيطر على الدولة والقصر وبسط يده فى الإطلاق والعطاء والصلات بالأموال والثياب . وكان يهب جوارى القصر وعبيده لمن أحب ويعتق من يشاء ، لا شك أن ابن عمار هذا قد جمع لنفسه الثروة الطائلة التى انتهبتها العامة عندما قامت الفتنة بين المغاربة والمشارقة .

وكان برجوان وزير الحاكم ميالاً للهو محبًّا للغناء ، يجمع المغنين والمغنيات حوله ويكون كواحد منهم . ولا يخرج إلى القصر إلا وقد ارتفعت الشمس . وقد انغمس برجوان فى الترف وشغف بجمع التحف . ولا شك أنه استغل منصبه فى ذلك . وقد وجد فى تركة برجوان بعد قتله مائة عمامة كلها شروب ملونة معممة على مائة شاشية ، وألف من السراويل الدبيقية بألف تكة حرير أرمنى . ومن الثياب المخيطة والصحاح والحلى والمصافح والطيب والفرش والكتب والصياغات الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة ، ومن العين ثلاثة وثلاثون ألف دينار . ومن الخيل الركابية مائة وخمسون فرساً وخمسون بغلة ومن بغال النقل ودواب الغلمان نحو ثلثمائة رأس ومائة وخمسون سرجاً منها عشرون ذهباً ومن الكتب شىء كثير .

ويذكر أن أبا عبد الله الحسين بن طاهر الوزان وزير الحاكم « قد ظهر بمال

يكون عشرات ألوف وصياغات وأمتعة وطرائف وفرش وغير ذلك فى عدة آدر بمصر وجميعه مما خلفه قائد القواد حسين بن جوهر . فباع المتاع وأضاف ثمنه إلى العين فحصل منه مال كثير » .

واستطاع أحد وزراء الظاهر ، وهو أبو الفتوح موسى بن الحسين الذى لم يبق فى الوزارة إلا أشهراً قليلة — أن يجمع ثروة طائلة ، ووجد عنده بعد القبض عليه فى شوال سنة ٤١٣هـ من العين سمائة وعشرون ألف دينار ، وهو مبلغ كبير إذا قيس بالمدة القليلة التى قضاها فى الوزارة من ربيع الأول سنة ٤١٢هـ إلى المحرم سنة ٤١٣ هـ .

وعندما توفى الخليفة الظاهر لم يكن فى بيت المال ما يفى بأرزاق الجند ، ولذلك اضطر الوزير أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى إلى إحضار مال من داره لإسكاتهم ، وفى هذا دليل على مدى ثرائه . وعندما توفى الجرجرائى وجد له سبعمائة صينية من ذهب وفضة ، ومائة ألف مثقال من العنبر وغير ذلك .

وقد استطاع اليازورى أن يجمع كل مظاهر القوة والسلطان فكان ناظر خاصة أم الخليفة المستنصر وموضع ثقتها ثم أصبح قاضياً للقضاة . وأخيراً جمع إلى ذلك الوزارة فتمكن من الدولة ومن أم المستنصر والمستنصر تمكناً شديداً وصار الأمر كله فى يده . وكان اليازورى محباً لحياة الرفاهية ميالا للترف وقد شغف بالفنون فجمع حوله أعظم رسامى عصره يدفعهم إلى التنافس والإبداع بما يغدق عليهم من مال .

وبلغ من ثراء اليازورى أنه أمر بصنع خيمة ضخمة بلغت النفقة عليها ثلاثين ألف دينار ، واشترك فى عملها مائة وخمسون صانعاً ظلوا يعملون بها تسع سنوات ، وقد صور بها كل حيوانات الأرض . وفى أثناء الشدة العظمى أخرج من القصر . وكان اليازورى قد أمر بعمله وبلغ ما فيه من الذهب ثلاثين ألف مثقال كما كان مرصعاً بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر الألوان .

وكانت مائدة اليازورى يحضرها كل يوم القضاة والفقهاء والأدباء ، ويقول

المقريزى : « كان راتب مائدته فى كل يوم كموائد الملوك فى الأعياد والولائم ، وكان لا يبتاع، لمطبخه من الطير ما هو معرق ولا مصدر . وكان سعر المعرق ستة بدينار . والمصدر أربعة بدينار ، ونقصت ثلاثة بدينار . والفائق اثنان بدينار ، فكان يعمل لداره ومن فيها المسمن ، وأما مائدته فلا يقوم عليها إلا الفائق . فلما كان فى سنة ٤٤٧ ﻫ وقصر النيل ، نزع السعر وعلا حتى بلغ التليس ثمانية دنانير وصار الخبز طرفة ، وكان المستنصر يحضر دار اليازورى كل يوم ثلاثاء على عادته ، فتقدم إليه المائدة فإذا هى على ما يعهد . لم يخل منها بشىء حتى الدجاج الفائق ، فقال (أى الخليفة) لصاحب مطبخه : ويلك أيكون راتب مائدة الوزير الدجاج الفائق ومائدتى دون ذلك ؟ فقال : يا مولانا ما ذنبى إذا قصر بك أصحاب دواوينك . ولم يطلقوا لمائدتك ما ألتمسه منهم ، وأما الوزير فلا يتجاسر وكلاؤه أن يقصروا فى شىء مما جرت العادة به فى راتب مائدته وغيرها مع تقدم إليهم فى كل يوم بالزيادة فيها وفى راتب داره » .

وبلغ من تأنقه فى ثيابه وحيازته الفاخر الثمين منها . أنه مثل بين يدى الخليفة فى يوم وعليه ثوب بديع ، فشغل الخليفة بتأمل الثوب ولم يزل يزحف من مجلس العرش حتى مد يده إلى الثوب يتلمسه .

وكان أولاد اليازورى مثل أبيهم فى حبهم للحياة الباذخة ، فعند ما خرج ابنه خطير الملك سنة ٤٨٨ ﻫ إلى الشام ، أخذ معه أحواضاً فيها الطين المزروع فيه البقول برسم مائدته ، وقد بلغت النفقة على سماطه فقط فى هذه السفرة ستة عشر ألف دينار .

ويظهر أن هذا البذخ قد استرعى الانتباه وأثار الشكوك حول استغلال اليازورى لموارد البلاد ، فلما كثرت عليه الأقاويل أراد المستنصر أن يتحقق ذلك بنفسه . فطلب من صفى الملك أبى عبد الله بن اليازورى أن يعمل له دعوة ، فلما حضر المستنصر رأى ما أذهله من الفرش والآلات فحقد على اليازورى . ويذكر المقريزى أن اليازورى قال لأحد أصحابه بعد هذه الوليمة إنه منذ دخل الخليفة إلى الدار إلى أن خرج ، لم يطرف طرفه عن تأمل الفرش ، فإذا نظر الوزير إليه « أطرق وتشاغل » .

وربما أحس اليازورى بما فى نفس الخليفة ، حتى إنه فكر فى الهرب ، فجعل أمواله فى سبائك هربها مع ابنه إلى الشام ، وقد اعترف اليازورى بعد القبض عليه ، بأنه أخذ ثلاثة ملايين دينار من أموال الدولة .

وقد ضعف شأن الوزارة كثيراً بعد مقتل اليازورى . ودخلت البلاد فى مرحلة من الفوضى والاضطراب . وأصبح هم الوزراء اتقاء ما يحاك حولهم من الدسائس . والتأهب لما يحدث فأهملوا شئون الدولة واهتموا بجمع المال لأنفسهم من أية طريق .

فلما قضى بدر الجمالى على الفتنة نعمت البلاد بالهدوء والاستقرار . وأصبح الوزراء منذ ذلك الوقت ، المسيطرين على شئون البلاد وثروتها . وقد بلغ وزراء هذا العهد حداً كبيراً من الثراء .

وقد جمع بدر الجمالى ثروة طائلة برغم أن البلاد لم تكن قد برئت تماماً مما أصابها من محن . واضطراره إلى إعفاء الفلاحين من خراج الأرض ثلاث سنوات وقيامه بكثير من الإنشاءات أهمها بناء سور القاهرة .

ونستطيع أن نخمن ثروة بدر الجمالى إذا علمنا أن أحد كتابه اشترى سمكة من عنبر بألف دينار حرقها فى النار فى جلسة واحدة . كما أن الشاعر علقمة بن عبد الرازق العليمى مدح بدراً . فخلع عليه من كانوا عنده من أصحاب بدر ما بلغ مقداره سبعين حملا ، وأجازه بدر من ماله بعشرة آلاف .

ويقال إن احتياج بدر من السكر كان مائة قنطار بالرطل الشامى . وقد شغف بدر باقتناء الجواهر الثمينة ، وخلف من المال بعد عمارة سور القاهرة ستة آلاف ألف دينار وأربعمائة آلاف ألف درهم فى دار الوزارة ، ومن الجواهر والياقوت أربعة صناديق . ومن القصب والفضة والذهب والمراكب يعنى السروج المحلاة ما يعجز عن وصفه . وخلف ألف قصبة زمرد لأنه كان له به غرام عظيم ، جمعت من جميع الأقطار .

وأطنبت المراجع التاريخية فى ذكر الثروة التى خلفها الأفضل بن بدر

الجمالى حتى إن الخليفة الآمر ظل أربعين يوماً فى دور الأفضل . وبين يديه الكتاب يكتبون ما ينقل إلى القصر منها . ومن الغريب أن يستطيع الأفضل جمع هذه الثروة الضخمة فى وقت كانت فيه البلاد تعانى ويلات الحروب الصليبية وضياع معظم ممتلكاتها فى الشام وغيرها .

وقد وجد له ستة ملايين ومائتان وخمسون ألف دينار وخمسون إردباً دراهم ورق. ووجد فى حجرة نومه قمطران عليهما حلية الذهب ومملوءان جواهر ما بين عقود مفصلة بياقوت وزمرد وسبح ، وقمطر فيه إحدى عشرة شرابة . طول كل شرابة شبران بجواهر ما يقع عليها قيمة . وصناديق فضة مملوءة مصاغات ما بين عصائب وتيجان ذهب مرصعة بجواهر نفيسة . وثلاثون راحلة أحقاق من الذهب العراقى ودواة ذهب قوم ما فيها من جوهر باثنى عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار منها مائة دينار فى عشرة مجالس . فى كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مذهب لون من الألوان أيما أحب منها لبس . وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من دبق تنيسى . وصندوقان كبيران فيهما إبر ذهب مصاغة برسم الجوارى والنساء . وخلف من الرقيق والخيل والبغال والمراكب الطيب والتجمل والحلى الشيء الكثير . وخلف من البقر والجواميس والغنم ما بلغ ألبانها فى سنة وفاته ثلاثين ألف دينار .

وترك تسعمائة ثوب من الديباج الملون . وتسعين ألف ثوب عتابى [1] . وثلاث خزائن كبيرة ممتلئة بالثياب الدبيقية من صنع تنيس ودمياط . كما ترك أربع حجرات ملأى بالمقاطع والستور والفرش والوسائد والمساند والديباج . وخزائن أخرى مملوءة بالثياب المصنوعة من الديباج والمحلاة بالذهب إلى غير ذلك من الستور والطنافس والأبسطة التى وجد منها أربعة آلاف كما خلف خمسمائة قطعة بلور وألف عدل من متاع اليمن والإسكندرية والغرب وسبعة آلاف مركب (سرج) .

(١) نوع من الثياب الحريرية تنسب إلى ص فى بغداد .

أما ما وجد له من الذهب والأحجار الكريمة فشيء لا يوصف . وقد ذكر ابن ميسر أنه ترك سبعمائة طبق ما بين فضة وذهب . وما لا يحصى من الصحاف وأكواب الشراب والأباريق والقدور وأوانى اللبن وغيرها . وكلها من الذهب والفضة . كما كان هناك كثير من البرانى [١] الصينى مملوءة بالجوهر الذى كان بعضه على هيئة عقود والبعض الآخر منثوراً . وكان الأفضل حين يجلس للشراب يجعل فى مجلسه صوانى الذهب عليها الأوانى المملوءة بالجوهر . فعند الشراب تفرغ الأوانى فى الصينية فتملأها ويجعل بدله الشراب .

وكان الأفضل مغرماً بأنواع الطيوب من المسك والعنبر وكانت له خزانة للطيب مملوءة بأسفاط العود وغيره . مكتوب على كل منها وزنه ونوعه . ووجد من أوانى المسك والكافور والعنبر ما لا يمكن عده . وكان من ذخائره دكة عاج وأبنوس محلاة بالفضة عليها قطعة من العنبر مثمنة الشكل تزن ألف رطل فى أعلاها تمثال طائر من الذهب أرجله من المرجان ومنقاره من الزمرد وعيناه ياقوتتان . كان ينصبها فى بيته فيضوع عرفها فيعم القصر . وصارت إلى صلاح الدين . وكان يضع ملابسه على تمثال من العنبر حتى تكتسب رائحة .

وفى مجلس شرابه وضعت ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات . أربع منهن بيض من كافور وأربع سود من عنبر عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلى وبأيديهن أحسن الجواهر . وكان الأفضل إذا دخل المجلس ووطئ العتبة نكسن رءوسهن إجلالا له . فإذا أخذ مكانه استوين قائمات .

وكان فى بيت الأفضل ثمانمائة جارية . منهن خمسون حظية . لكل واحدة منهن حجرة تخصها وخزائن مملوءة بالكسوة وآلات الديباج والذهب .

كما كان بدار الملك مجلس يعرف بمجلس العطاء يجلس فيه الأفضل لتصريف الأمور والاستماع للشعراء . وكان به ستة ظروف من الديباج الأطلس من كل لون اثنان فى كل منهما خمسة آلاف دينار . ووضع فى قاعة اللؤلؤة فى

---

(١) نوع من الأوانى .

دار الحرم ظرفان آخران فى أحدهما خمسة آلاف دينار وفى الثانى دراهم . وكان الأفضل ينفق منها على الشعراء وفى التصدق .

وعندما قبض على الوزير المأمون سنة ٥١٩ هـ : « وجد له سبعون سرجاً من ذهب مرصع . ومائتا صندق مملوءة كسوة بدنه . ووجد لأخيه المؤتمن أربعون سرجا محلى ذهب وثلثمائة صندوق فيها كسوة بدنه ومائتا سلة ما بين بلور محكم وصينى لا يقدر على مثلها . ومائة برنية مملوءة كافوراً ومائة سفط مملؤة عوداً ، ومن ملابس النساء مالا يحد . حمل جميعه إلى القصر » .

أما أبو نجاح الراهب الذى تمكن من السيطرة على شئون الأمر فكان « يعمل له بتنيس ودمياط ملابس مخصوصة به من الصوف الأبيض بالذهب فيلبسها ومن فوقها غفارة ديباج ويتطيب بعدة مثاقيل مسك كل يوم ، فكان يشتم ريحه من مسافة بعيدة ويركب الحمير بسروج محلاة بالذهب والفضة . ووجد له بعد قتله فى مقطع ثلثمائة طراحة سامان محشوة جدد لم تستعمل قد رصت إلى قرب السقف ، هذا من نوع واحد فكيف ما عداه ؟ » .

ومما يدل على أن الوزراء — خصوصاً فى الجزء الثانى من العصر الفاطمى — كانوا يستحوذون على أموال الدولة . ما ذكره المقريزى وهو يتكلم عن هروب رضوان وزير الحافظ إلى الشام فى ١٣ من شوال سنة ٥٣٣ هـ « واشتغل الناس بنهب دار الوزارة وكان قد جمع فيها رضوان أكثر أموال ديار مصر . وشحنها بالذخائر وأنواع السلاح والعدد والآلات والغلال . . . » .

وكان لعباس وزير الظافر مائتا حصان ومائتا بغل رحل وأربعمائة جمل تحمل أثقاله . كما كان له خمسة آلاف مملوك .

إن المصريين نهبوا منه هو . أثناء الفتنة التى أعقبت قتل الظافر وتوجه الصالح رزيك إلى القاهرة . أربعين غرارة جمالية مخاطة ، فيها من الفضة والذهب والكسوات شىء كثير . وأخذوا من إصطبله ستة وثلاثين حصاناً وبغلة بسروجها وعدتها كاملة وخمسة وعشرين جملا وأخذوا من إقطاعه فى كوم أشفين مائتى

رأس بقر وألف شاة وأهراء غلة . فإذا كان بعض ثروة أسامة . وهو لاجئ وضيف على الوزير يعيش فى إنعامه . فما بالك بثروة الوزير نفسه ؟

وكان الصالح بن رزيك محبًا لجمع المال كثيراً لمصادرة أموال الأمراء . وكان يبيع الولايات لمن يزايد عليها . وقد جمع بذلك ثروة طائلة .

وقد كان له عدد كبير من الغلمان اختط لهم الحارة المعروفة بالصالحية التى يصفها المقريزى بأنها من الحارات العظيمة .

ويذكر عمارة اليمنى أن رزيك بن طلائع عندما زف أخته للخليفة العاضد حمل إلى الخليفة بيوت مال أقلها قناطير الذهب .

ووضع صلاح الدين يده — لا على ثروة البلاد فحسب — بل صادر ما وجده فى قصور الخلفاء من تحف وجواهر وسلاح . فكان كما يقول المقريزى : « ما لا يفى به ملك الأكاسرة ولا يتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة » .

الفصل الخامس

دار الوزارة

عند ما قلد المعز يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسين الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين وجميع ما ينضاف إلى ذلك وما ينطوى فى مصر وسائر الأعمال ، وذلك فى المحرم سنة ٣٦٣ هـ . اتخذا من دار الإمارة[1] بجوار جامع أحمد بن طولون مكاناً يديران منه هذه الشئون . وظل الأمر كذلك حتى ولى العزيز الخلافة ، فجعل يعقوب بن كلس وزيراً له وفوض إليه النظر فى سائر أموره . واستطاع ابن كلس أن يوطد نفوذه ويبسط سلطانه ، وأصبح له الأمر والنهى ، وعندئذ نقل دواوين الدولة كلها إلى داره ، وجعل منها مركز الحكم ومصدر السلطات ، فجعل فيها ديواناً للعزيز الذى يغلب أنه كان يختص بشئون الخليفة الخاصة ، وديواناً للجيش ، وديواناً للأموال . وديواناً للخراج ، وديواناً للسجلات والإنشاء وديواناً للمستغلات . وجعل على هذه الدواوين رؤساء وتحت أيديهم الكتبة ، كما جعل

---

(١) لم يكن لأمراء مصر فى العهد الأول دار خاصة للإمارة ، فلما أنشأ صالح بن على مدينة العسكر بنى فيها داراً خاصة سماها دار الإمارة ، وظل ولاة مصر من قبل العباسيين ينزلونها حتى نزلها أحمد بن طولون . فلما بنى مدينة القطائع أنشأ فيها دار إمارة جديدة فى الجهة القبلية من مسجده الجامع وكان لها باب يصلها بالمسجد عند المقصورة بجوار المحراب والمنبر ، وظلت هذه الدار يقطنها بنو طولون إلى أن أتى محمد بن سليمان إلى مصر سنة ٢٩٢ هـ وقضى على دولة الطولونيين فنزل فى الفسطاط فى دار كانت تسمى الدار العظمى وظلت هذه الدار سكناً لولاة مصر من بعده إلى أن ولى محمد بن طغج الإخشيد فنزلها ثم ضاقت عليه فزاد فيها وعظمها وعمل لها ميداناً وجعل لها باباً من حديد وذلك سنة ٣٣١ هـ ، ولبثت مقراً لولاة مصر طول عهد الإخشيديين حتى أتى الفاطميون فسكنوا فى القصر الكبير فى القاهرة .

وعلى ذلك تكون دار الإمارة بجانب جامع بن طولون ظلت قائمة حتى استعملها الفاطميون أو أنهم جددوا بناءها .

فى داره الخزائن المختلفة للكسوة والمال والدفاتر والأشربة . وجعل على كل خزانة ناظراً . ورتب لداره الحجاب لكل فريق نوبة . وجعل لهم زيًّا خاصًّا من الديباج وقلدهم بالسيوف . كما اتخذ حرساً خاصًّا من مماليكه وهم الذين عرفوا باسم الطائفة الوزيرية .

وكانت دار الوزارة تموج بالكتاب والأطباء والعلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأرباب الصنائع . لكل طائفة مكان منفرد ، وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق .

وكان لابن كلس مجلس خاص . وهو مجلس الحكم يصرف منه شئون الدولة وينظر فى رقاع المرافعين والمتظلمين . ويوقع بيده فى الرقاع ويخاطب الخصوم بنفسه .

وكانت دار ابن كلس هذه التى اتخذها مقرًّا للوزارة فى حارة الوزيرية إلى الجنوب الغربى من القصر الصغير وقرب باب الفرج على الخليج . ولا شك أنها كانت داراً عظيمة الاتساع بل أشبه بالمدينة القائمة بذاتها بما تحوى من أماكن لسكناه وسكنى خاصته ، وأماكن إقامة حرسه البالغ عددهم أربعة آلاف شخص غير الحجاب والكتاب والحاشية . إلى جانب الدواوين المختلفة .

فلما مات ابن كلس نقل العزيز الدواوين إلى القصر . وصار الوزراء والوسطاء بعده يديرون الأمور فى قصر الخلافة . حتى إذا تقلد الحسن بن عمار الوساطة للحاكم واستبد بالأمور وتحكم فى القصر والدولة . كانت داره بطبيعة الحال هى مركز الحكم . وكانت هذه الدار كما يذكر ابن القلانسى فى القاهرة مما يلى الجبل ومن المرجح أن تكون فى حارة كتامة إلى الجنوب الشرقى من الجامع الأزهر .

ولكن بعد إقالة ابن عمار وتولية برجوان عاد تدبير الأمور فى القصر مرة ثانية . يقول المقريزى : « وكان برجوان يجلس فى دهليز القصر ويجلس الرئيس فهد بالدهليز الأول ويوقع وينظر ويطالع برجوان ما يحتاج إليه مما يطالع به الحاكم ، فيخرج الأمر بما يكون العمل به .

وكذلك كان الحال مع حسين بن جوهر . ولكن ابن الصيرفي يذكر أن أبا الفتح المسغود بن طاهر الوزان عندما وزر للحاكم سنة ٤٠٩هـ « نقل جميع الدواوين إلى داره ، وجعل يوماً يركب فيه إلى القصر للمطالعة لما يحتاج إليه واستمر على ذلك إلى أن صرف » .

فالثابت إذاً أنه منذ نقلت الدواوين من دار ابن كلس إلى القصر ظل الوزراء يقومون بعملهم في القصر إلاقلة منهم نقلت الدواوين إلى دورها . فلما وزر اليازوري للمستنصر سنة ٤٤٢هـ سكن دار ابن كلس (١) إلا أن الدواوين على ما يبدو ظلت في القصر : إذ يقول ابن الصيرفي عند الكلام عن أبي الفرج عبد الله بن البابلي الذي خلف اليازوري : « ولما أفضت الوزارة إلى اليازوري قدمه ورفع منه وأسنى صلاته وجمع له جمهور دواوين الأموال وحمل عنه حضور القصر والجلوس فيه وميزه بذلك عن أصحاب الدواوين ! فكان ديوانه أحد دوره » .

وعلى أية حال فقد أصبحت دار ابن كلس سكناً للوزراء بعد ذلك إلى أن قدم بدر الجمالي واستأثر بالحكم ، فانتقل إلى دار أخرى وتحولت هذه الدار إلى دار طراز ينسج فيها الحرير وأصبحت تعرف بدار الديباج (٢) .

وعندما وزر بدر الجمالي للمستنصر واستولى على الأمور في مصر ، بنى داراً بحارة برجوان عرفت فيما بعد بدار المظفر . ويذكر بعض المؤرخين أنها هي التي عرفت بدار الوزارة ، ولكن المرجح أن الدار التي صارت فيما بعد مقرًّا للوزراء . هي التي بناها الأفضل شمالي القصر الكبير الشرقي ويفصل بينهما رحبة باب العيد

---

(١) يحتمل أن يكون علي بن أحمد الجرجرائي الذي وزر للظاهر والمستنصر ، قد سكن دار ابن كلس قبل اليازوري إذ يذكر ابن القلانسي – المرجع السابق – ص ٨٤ . ووردت الأخبار من ناحية مصر في سنة ٤٣٦ بوفاة الوزير الجرجرائي وزير المستنصر بالله في داره آخر نهار الأربعاء السادس من شهر رمضان بعلة الاستسقاء وصلى عليه المستنصر في القصر ودفن في دار الوزارة .

(٢) وقد احتل مكان هذه الدار مدرسة الصاحب صفي الدين بن شكر وزير العادل أبي بكر ابن أيوب المعروفة بالصاحبية – انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٧ .

وقد عرفت هذه الدار بدار المظفر نسبة إلى المظفر أبو محمد جعفر بن بدر الجمالي الذي سكنها بعد وفاة أبيه .

والتى عرفت بدار القباب وفى الغالب فإن الأفضل اتخذها دار سكن فقط ، ولم يحول إليها الدواوين من القصر إلى أن بنى دار الملك على ساحل مصر فنقل إليها الدواوين من القصر ، يؤيد ذلك ما ذكره المقريزى عند الكلام عن دار الملك إذ يقول : « وهى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش ابتدأ فى بنائها وإنشائها فى سنة ٥٠١ هـ ». فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر فصارت بها وجعل فيها الأسمطة واتخذ بها مجلساً سماه مجلس العطايا كان يجلس فيه » . أما دار القباب فقد أصبحت سكناً لأولاد الأفضل ، إذ يذكر المقريزى فى حوادث سنة ٥٠١ هـ « وفيها بانت كراهة الأفضل لأولاده واحتجب عنهم أكثر الأوقات ، فانقطعوا عنه ، واستقروا بالقاهرة فى دار القباب التى كانت سكن أبيهم الأفضل ، وهى الدار التى عرفت بدار الوزارة » .

إذاً فالأفضل اتخذ من دار الملك مقرًّا للحكم وترك دار القباب لسكنى أولاده ، وظل الحال على ذلك حتى قتل الأفضل فنقلت الدواوين مرة أخرى من دار الملك إلى القصر ، وصادر الآمر بيوت الأفضل .

وعند ما وزر المأمون البطائحى ، ظلت الدواوين بالقصر ، وسكن هو فى دار خاصة عرفت بالدار المأمونية [١] .

أما متى صارت دار القباب داراً للوزارة ، فنرجح أن ذلك حدث فى وزارة أبى على أحمد بن الأفضل المعروف بكتيفات ، فإنه عندما وزر للحافظ سنة ٥٢٥ هـ ثم استبد بالحكم وسجن الخليفة ، استعاد أملاك أبيه التى صادرها الآمر ومن بينها دار القباب ، ومن المرجح أنه انتقل للسكنى بها ونقل إليها الدواوين ، ومن ثم ظلت دار القباب مركزاً للحكم ومقرًّا للوزراء [٢] . ثم سكنها صلاح الدين

---

(١) كانت توجد فى مكان قريب من جامع الأشرف وشارع الغورية ، وقد حولها صلاح الدين إلى مدرسة للحنفية .

(٢) هذا وإن اتخذ بعض الوزراء دوراً أخرى غير دار الوزارة لمسكنهم الخاص فقد اتخذ عباس داراً فى حارة الأمراء قرب باب الزهومة من أبواب القصر الكبير . كذلك كان لشاور دار غير دار الوزارة وهى التى نهبها العامة بعد مقتله .

وملوك الأيوبيين إلى أن انتقل منها الملك الكامل محمد واستقر بالقلعة ، فتحولت إلى دار ضيافة لمن يرد من الملوك ورسل الخليفة .

وكانت تقابل دار الوزارة دار تعرف بدار سعيد السعداء[1] ، سكنها طلائع ابن رزيك وابنه العادل رزيك بن صالح الذى فتح بينها وبين دار الوزارة سرداباً تحت الأرض ليمر فيه . وقد سكن هذه الدار بعد الصالح الوزير شاور ثم ابنه الكامل ، وقد حولها صلاح الدين بعد موت العاضد إلى خانكاه لفقراء الصوفية .

ويصف المقريزى دار الوزارة ، بأنها كانت محاطة بسور مبنى بالحجارة وقد بقى جزء منه إلى أيامه ، وكانت الدار تشتمل على عدة قاعات ومساكن وبستان ، وكان فيها مائة وعشرون مقسماً للماء الذى يجرى فى بركها ومطابخها . كما كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين أحدهما دار الحرم والقسم الآخر دار السلام الذى كان مخصصاً على ما يبدو لشئون الحكم . وكان فى إحدى قاعات هذه الدار الشباك الكبير الذى كان فى قصر الخلافة ببغداد ويجلس فيه خلفاء بنى العباس ، وكان البساسيرى قد أرسله إلى القاهرة ، فلما بنى الأفضل هذه الدار جعله فيها ليجلس فيه ويتكئ عليه ، وظل الشباك بالدار حتى عمر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية ، وأخذ من دار الوزارة أنقاضاً منها هذا الشباك حيث جعله فى القبة التى دفن تحتها .

وكان يحرس دار الوزارة حرس خاص يتخذه الوزير ممن يثق فيهم من رجاله ومماليكه إلى جانب رجال الحاشية والمستخدمين الذين يبلغ عددهم الآلاف . وكان يصرف لدار الوزارة وضيوفها وحاشيتها كل يوم الزهور والطيب من دار التعبئة .

وقد تعرضت دار الوزارة فى أواخر الدولة إلى النهب والسلب ، فكان أول

---

(١) هو الأستاذ قنبر ويقال عنبر واسمه بيان ولقبه سعيد السعداء أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر عتيق الخليفة المستنصر .

نهب وقع فيها يوم الأربعاء حادى عشر جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ إذ نهبها الوزير بهرام قبل هربه إلى الصعيد أمام رضوان بن الولخشي . ونهبت مرة أخرى بعد ذلك بسنتين فى ١٣ شوال سنة ٥٣٣ بعد فرار رضوان إلى الشام ، فيقول المقريزى : « فما هو إلا أن صار (أى رضوان) بظاهر القاهرة ، اقتحم الناس دار الوزارة ونهبوها حتى لم يتركوا فيها شيئًا . واشتغل الناس بنهب دار الوزارة ، وكان قد جمع فيها رضوان أكثر أموال ديار مصر وشحنها بالذخائر وأنواع السلاح والعدد والآلات والغلال ، فانتهب جميع ذلك وأحرقت أخشاب تعب الملوك فى تحصيلها وكان نهب دار الوزارة أول تضرر دخل على الدولة » .

وإلى جانب دار الوزارة التى كانت مركز الحكم ، كان بالقصر مكان مخصص للوزراء ، اسمه مجلس الوزارة أو مقطع الوزارة ، يجلس فيه الوزير إذا كان بالقصر للسلام على الخليفة ، أو عند استدعائه لحضور مجالس الخليفة العامة ، وكان هذا المجلس على ما يذكر القلقشندى بقاعة الذهب .

* * *

الباب الثالث

الوزراء والحياة الفكرية والعمرانية فى مصر

الفصل الأول : الوزراء والحياة العلمية والأدبية

الفصل الثانى : الوزراء والنهضة الفنية والعمرانية

الفصل الأول

الوزراء والحياة العلمية والأدبية

نعلم أن الخلافة الفاطمية قامت لتنافس الخلافة العباسية وتحاول أن تقضى عليها وكان بين الخلافتين صراع عنيف استعمل فيه كل سلاح ممكن . ومن الأسلحة التى استعان بها الفاطميون وبرعوا فيها ، سلاح العلم والأدب والثقافة ، إذ أن مذهبهم الشيعى الذى يخالف مذهب جمهور السنة كان فى حاجة إلى الدعوة وكسب المؤيدين فى أنحاء العالم الإسلامى من جهة ، والوقوف فى وجه علماء السنة فى مصر والعراق وغيرهما الذين قاموا بمحاولة مضادة لتثنية آراء الفاطميين من جهة أخرى . فكانت معركة سلاحها الحجة والإقناع ، وغزارة العلم ، وكان على الفاطميين إلى جانب الغزو السياسى والحربى ، القيام بغزو فكرى ومحاولة جذب العلماء والأدباء والمفكرين . ولقد نجحوا فى ذلك إلى حد كبير ، إذ ساعدهم حبهم للعلم والأدب وإغداقهم الأموال على تنفيذ مآربهم ، فأصبحت القاهرة فى عهدهم كعبة العلوم والفنون ومركز إشعاع جذب إليه الكثيرين من العلماء والشعراء وأهل الفنون المختلفة .

ولم يقتصر الأمر فى تشجيع الحياة العقلية والأدبية على الخلفاء فحسب ، بل كان لكبار رجال الدولة وعلى رأسهم الوزراء أثر كبير فى ازدهارها . وإننا إذا استعرضنا تاريخ الوزراء الفاطميين لظهر لنا بجلاء الدور الكبير الذى لعبوه فى تنشيط الحركة الفكرية وازدهار النهضة الثقافية حتى أصبحت مصر مسرحاً لنشاط عقلى وأدبى عظيم . ولم يقتصر كثير من الوزراء على حبهم للعلم والأدب وتشجيعهم لأهله بل كان منهم من قام بالتأليف فى مختلف أنواع العلم وقرض الشعر .

فيعقوب ابن كلس أول وزراء الدولة له كثير من المؤلفات ، فألف كتاباً فى القراءات وكتاباً فى علم الأبدان وخلاصها فى ألف ورقة ، وكتاباً فى الفقه

الإسماعيلى وكتاباً فى الأديان وكتاباً فى آداب رسول الله . ولعل أشهر كتبه ، كتابه فى مختصر الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية ضمنه ما سمعه من المعز وولده العزيز ، وقد بلغ من قيمة هذا الكتاب أن الخليفة الظاهر طلب من الناس أن يحفظوه ورتب مالاً لكل من يحفظه ، كما كان الناس يفتون بما فيه . ويصف المقريزى هذا الكتاب بقوله : « وهو مبوب على أبواب الفقه يكون قدره مثل نصف صحيح البخارى ، ملكة ووقفت عليه وهو يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية ».

وكان ابن كلس إلى جانب تبحره فى علوم الفقه أديباً بارعاً وشاعرا ، كما أن وزراء القرن الأول كانوا من أصحاب الأقلام وكانوا على رأس دواوين الدولة ؛ لذلك كان أكثرهم أدباء بارعين . فالجرجرائى يصفه المقريزى بأنه « كان عالما فطناً غريراً وقع مرة بين يدى الظاهر لإعزاز دين الله على مائة كتاب فلم تتشابه فيها لفظة بلفظة » ، كما أن الوزير الفلاحى أملى سجل تقليده الوزارة سنة ٤٣٦ ﻫ بنفسه . ويصف ابن الصيرفى والمقريزى ، الوزير ابن سديد الدولة الماشلى وزير المستنصر سنة ٤٥٤ ﻫ بأنه كان من أماثل الكتاب وصدورهم وله كتب مستحسنة ورسائل مدونة .

وألف الوزير أبو شجاع محمد بن الأشرف بن محمد على بن خلف الذى تولى الوزارة فى سنة ٤٥٧ ﻫ كتاب « مواد البيان » فى ترتيب الكتاب للدولة الفاطمية وحاول فيه أن يقنن لفن الكتابة قوانين ويقعد لها القواعد ، ونقل عنه القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى خاصة عند الحديث عن نظم ديوان الرسائل فى العصر الفاطمى .

وكان الأفضل بن بدر الجمالى شاعراً له بعض الشعر الجيد ، فمن شعره فى غلامه تاج المعالى :

أقضيب يميس أم هو قد   أو شقيق يلوح أم هو خد
أنا مثل الهلال سقماً عليه   وهو كالبدر حين وافاه سعد

وكان شديد الغيرة على نسائه ، وقد أمر بقتل جارية تطلعت إلى الطريق ،

فلما جيء برأسها بين يديه قال :

نظرت إليها وهى تنظر ظلها فنزهت نفسى عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها حذاراً ومن مسك لها فى الذوائب
ولى غيرة لو كان للبدر مثلها لما كان يرضى باجتماع الكواكب

ولعل أكثر الوزراء اهتماماً بقرض الشعر ، الصالح بن رزيك الذى كان شاعراً عظيماً جمع شعره فى مجلدين ، وبلغ من جودة شعره أن اتهم بأنه كان يستعين بشعراء كبار كالمهذب بن الزبير فى تنقيح شعره ، بل قيل إن شعره من نظم ابن الزبير نفسه .

وقد اتخذ الصالح من الشعر وسيلة لمحاولة نشر المذهب الشيعى والحط من شأن المذاهب الأخرى ، وله فى ذلك قصيدة سماها « الجوهرة فى الرد على القدرية » ، كما كان الصالح فقيهاً متعمقاً فى علوم الشيعة إذا كان من علماء المذهب الجعفرى . وقد ألف كتاباً فى فقه الشيعة أسماه « الاعتماد فى الرد على أهل العناد » ، يقول المقريزى إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن إمامة على بن أبى طالب والكلام على الأحاديث الواردة فى ذلك .

أمر آخر له كبير أهمية ، هو اهتمام الوزراء بمحاولة نشر العلم على أوسع نطاق وبين مختلف طبقات الشعب ، وذلك بتشجيع نسخ الكتب وجمع النادر منها وإنشاء المكتبات وإلقاء الدروس فى المساجد وإنشاء المدارس . وبذلك يمكن اعتبار أن أول مدارس إسلامية أنشئت فى مصر أنشأها وزراء فاطميون كما سنرى .

ولما كانت المساجد فى العالم الإسلامى هى مراكز العلم ، فإن الفاطميين اتخذوا منها مجالات لنشر العلوم وخاصة علوم الشريعة . ولما كان الأزهر أول مسجد لهم ، نراهم يهتمون به ويتخذون منه جامعة علمية . ويرجع الفضل الأكبر فى ذلك إلى يعقوب بن كلس ، إذ عمل على قيام دراسات منظمة للفقه الإسماعيلى فى الأزهر ، فرتب جماعة من الفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون نفراً كانوا يتحلقون فى المسجد بعد الصلاة من يوم الجمعة حيث يتدارسون فى الفقه

الإسماعيلى وعلى رأسهم أبو يعقوب قاضى الخندق ، ويظلون حتى صلاة العصر ، وقد ابتنى ابن كلس لهم داراً إلى جانب الأزهر وأجرى عليهم الأرزاق من ماله الخاص إلى جانب ما كان يغدقه عليهم الخليفة . وبذلك يكون هذا الوزير أول من فكر فى اتخاذ الجامع الأزهر معهداً للدراسات المنظمة المستقرة ، وهى الخطوة الأولى التى جعلت من الأزهر فيما بعد تلك الجامعة الشامخة .

كما كان ابن كلس يجلس بنفسه كل يوم جمعة ليقرأ مؤلفاته على الناس خصوصًا الرسالة الوزيرية ، وكان هذا المجلس مباحاً للحضور من خاصة الناس وعامتهم ويحضره القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود . وإلى جانب هذا المجلس العام ، الذى كان يعقد على ما يرجح فى الجامع الأزهر ، كان هناك مجلس خاص يعقد فى داره كل ثلاثاء يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل يتناظرون بين يديه .

وجعل فى داره العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأرباب الصنائع لكل طائفة مكان منفرد وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق . وكان فى داره عدة كتاب ينسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدب وغيرها من العلوم ، فإذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت .

ولا شك أنه نتيجة لولع ابن كلس بالتأليف وجمع الكتب ، قد صار لديه مكتبة عظيمة ، ويغلب أن هذه المكتبة قد ضمت إلى مكتبة القصر الفاطمى بعد وفاته ، فاستفادت هذه المكتبة التى كان لها شهرة عظيمة ، أعظم استفادة .

وكان الأفضل محبًّا لجمع الكتب ، حتى وجد لديه بعد قتله مكتبة بها خمسمائة ألف كتاب . ولقد سمع أن أحد وراقى العراق أراد شراء كتب افراتيم ابن الزفان الطبيب الإسرائيلى[١] ، والذى يقال إنه كان يملك أكثر من عشرين ألف مجلد ، فأمر الأفضل بشرائها وأضافها لخزائنه .

وكانت هذه الكتب التى جمعها الأفضل وغيره من الوزراء سبباً فى استعادة

---

(١) كان من تلامذة أبو الحسن على بن رضوان .

مكتبة القصر السابق روائها حتى أصبحت فى عهد العاضد من أعظم المكتبات .

وعنى المأمون البطائحى عناية خاصة بعلوم الطب ، فعندما وصل الطبيب أبو جعفر يوسف بن حسداى الأندلسى نزل ضيفاً على الدولة وأطلقت له الهبات والرسوم وخصصت له دار بالقاهرة ، وأكثر من هذا كتب له منشور يمجد صناعة الطب ويذكر مآثر ابن حسداى على علم الطب وعنايته بشرح كتب أبقراط ، ثم يقرر السجل تعيينه أستاذاً لهذا العلم يجيز من يراه أهلا لهذه الصناعة وليقصده كل من يريد الاستزادة ، وجعل له يومين فى الجمعة يشتغل فيهما ويتوافر فى بقية الأسبوع على التصنيف ، وحمل ذلك إلى الخزائن . ومن كتب ابن حسداى التى قدمها للمأمون « الشرح المأمونى » وهو شرح لكتاب الإيمان لأبقراط . وبذلك ساعد المأمون على ظهور جيل من الأطباء تخرجوا على يدى ابن حسداى .

كما أنه أعاد فتح دار الحكمة ، وهى الدار التى أنشأها الحاكم وأصبحت من أهم المراكز العلمية فى العالم الإسلامى ، وكانت تلقى فيها المحاضرات وتقام المناظرات ، ويجد بها طالب العلم ما يريد من الكتب . وقد اضطر الأفضل إلى إغلاقها ، ثم أعيد افتتاحها سنة ٥١٧ هـ على نمط جديد يخفف من طبيعة صبغتها المذهبية ، وعنى فيها بتدريس القرآن وعلومه وخصص لها الأوقاف للإنفاق عليها .

وإن أول مدرسة أنشئت فى مصر لدراسة الفقه وعلوم الدين ، هى المدرسة العوفية التى أنشأها الوزير رضوان بن الولخشى سنة ٥٣٢ هـ وجعل على رأسها الفقيه المالكى بن الطاهر بن عوف[1] ، وكان يقيم بها طلاب العلم ويجرى عليهم

---

(١) هو إسماعيل بن مكى بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزهرى ، وينتهى نسبه إلى عبد الرحمن ابن عوف الصحابى الجليل ، ولد سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢م) فى بيت مصرى سكندرى أصيل . وصفه السيوطى بأنه صدر الإسلام ، وقال إنه تفقه على أبى بكر الطرطوشى وسمع منه ولازمه إذ أن الطرطوشى كان زوجاً لخالته .

وصار ابن عوف شيخ المالكية فى مدينة الإسكندرية طوال القرن السادس الهجرى (١٢ م) دون منازع . وشهد ابن عوف نهاية الدولة الفاطمية وقيام دولة صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ . وكان صلاح الدين يعظم ابن عوف ويراسله ويستفتيه وكان يحرص فى زياراته للإسكندرية على حضور دروسه وسمع عليه هو ورجال دولته « موطأ مالك » برواية أستاذه الطرطوشى . =

الأرزاق من ديوان الوزير ، وصدر سجل عن الخليفة بإنشائها وجعل اسمها المدرسة الحافظية نسبة للخليفة الحافظ ، وإن غلب عليها اسم « المدرسة العوفية » نسبة للفقيه الكبير ، وكان موقع المدرسة كما يقول السجل فى شارع المحجة [١] . وقد جاء فى السجل ، أن أمير المؤمنين لما رأى أن ثغر الإسكندرية « يشتمل على القراء والفقهاء ، والمرابطين والصلحاء ، وأن طالبى العلم من أهله ومن الواردين إليه والطارئين عليه ، متشتتو الشمل متفرقو الجمع . . . خرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة منًّا عليهم وإنعامًا ، ومستقرًّا لهم ومقامًا ، ومثوى لجميعهم ووطناً ، ومحلا لكافتهم وسكنا ، فجدد السيد الأجل الأفضل أدام الله قدرته ، الرغبة إلى أمير المؤمنين فى أن يكون ما ينصرف إلى مؤنة كل منهم والقيام بأوده وإعانته على ما هو بسبيله وبصدده : من عين وغلة مطلقاً من ديوانه . . . واستقرت التقدمة فى هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر » .

أما المدرسة الأخرى فهى فى الإسكندرية أيضًا ، كما أنها سنية كذلك وإن كانت على المذهب الشافعى ، وقد أنشأها أبو الحسن على بن السلار وزير الظافر سنة ٥٤٤ هـ ، وجعل رياستها للحافظ السلفى [٢] وسميت بالمدرسة السلفية فكانت

= كما أن الوزير رضوان كان يستشير الفقيه الكبير فى كثير من الأمور حتى السياسة ، فإنه استفتاه فى خلع الخليفة الحافظ .

وتوفى ابن عوف سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) عن ست وتسعين سنة .

(١) يرجح أنه الشارع الكبير الذى كان ممتداً من باب رشيد إلى باب البحر ، وموضعه الحالى طريق الحرية .

انظر الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ص ٤٤ .

(٢) هو الحافظ صدر الدين أبو الطاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهانى ، علم من أعلام الفكر الإسلامى ، وكان العلماء يشدون الرحال إليه من كل حدب وصوب يأخذون عنه ويستمعون إليه ويتتلمذون عليه .

ولد فى أصفهان سنة ٤٧٥ هـ وتلقى علومه بها ورحل إلى بغداد ومكة والبصرة والكوفة ، ثم وفد إلى الإسكندرية سنة ٥١١ هـ وأدرك أبا بكر الطرطوشى فى أواخر أيامه ثم عاصر بعد وفاته عدداً من تلاميذه وبخاصة أبا الطاهر بن عوف وسند بن عنان فكانوا جميعاً قادة الفكر والحركة العلمية فى =

ثانى مدرسة أنشئت فى مصر بعد مدرسة ابن عوف . كما كانت المدرسة الوحيدة للشافعية فى الإسكندرية . « وكان منهاج الدراسة فى المدرسة منهاجاً دينيًّا ، وكانت الدروس التى يلقيها السلفى تدور كلها حول الفقه والتفسير والحديث ، وظلت هذه المدرسة قروناً طويلة وهى كعبة لطلاب العلم » .

ويبدو أن الغرض من إنشاء هاتين المدرستين سياسى ودينى وهو الوقوف فى وجه المذهب الشيعى والدعوة للمذهب السنى . ومن ثم القضاء على الدولة الفاطمية . ولعل ذلك كان تأثراً بحركة إنشاء المدارس التى قام بها السلاجقة وتبعهم فيها الأتابكة ثم الأيوبيون فيما بعد والتى كان من أهم أغراضها محاربة المذهب الشيعى ونشر المذهب السنى .

وكان للعناية الكبيرة التى أولاها الوزراء للعلم والعلماء والأدب والأدباء وإغداقهم الإنعامات عليهم أكبر الأثر فى ازدهار الحركة العلمية والأدبية بمصر ، ووفود العلماء والأدباء من كل مكان وأن يقبلوا على التأليف فى كل فرع . كما كان من عوامل ازدهار الكتابة الفنية فى العصر الفاطمى أن معظم وزراء القرن الأول كانوا من الكتاب حتى أسماهم المؤرخون الوزراء أصحاب الأقلام . وبذلك كانت الكتابة عملا مرموقاً ينظر إليه نظرة تجلة واحترام ، ويسعى إليها كل من يتطلع إلى منصب الوزارة .

= الإسكندرية فى الأرباع الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجرى. واشتغل السلفى بالتدريس خصوصاً علم الحديث ، وكان يعقد حلقاته أول الأمر فى مساجد المدينة ولم يلبث أن أقبل عليه الطلاب من جميع أنحاء مصر وخارجها ، حتى أنشأ له ابن السيلار مدرسة . وصنف السلفى كتباً كثيرة منها كتاب « السداسيات فى الحديث» ، و « أجزاء السلفيات » وهى مجموعة الأحاديث التى رواها من غيره من الحفاظ ، وله « كتاب الأربعين البلدانية » وهى مجموعة تضم أربعين حديثاً . كما ألف ثلاثة معاجم لشيوخه الذين أخذ عنهم الأول لشيوخه فى أصفهان والثانى لشيوخه فى بغداد والثالث ترجم فيه لعلماء الإسكندرية وللعلماء الذين قابلهم وأخذ عنهم أثناء رحلاته .

وكان صلاح الدين الأيوبى وأخوه الملك العادل أبو بكر ممن سمعوا الحديث على السلفى . وتوفى السلفى فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ وقد جاوز المائة . انظر الشيال ، أعلام الإسكندرية ، ص ١٣٠ وما بعدها .

وإن نظرة للعلماء والأدباء الذين وجدوا فى كنف الوزراء الفاطميين الرعاية والتشجيع لخير دليل على ما لهؤلاء الوزراء من أثر فى النهضة العلمية والأدبية التى شهدتها مصر طوال العصر الفاطمى . فكان من جلساء ابن كلس ، الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلى مصنف كتاب الأسجاع وأبو عبد الله محمد بن أحمد ابن سعيد التميمى [١] المقدس الطبيب الذى صنف للوزير كتاباً فى الطب فى عدة مجلدات اسمه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء » ، كما ألف عدة مؤلفات منها « كتاب تخليص النفوس » وكتاب « الفحص والأخبار » ومقالة فى « ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه » .

ومن أشهر العلماء الذين وفدوا على مصر وعاصروا ابن كلس وخدموا العزيز ، أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز القيروانى [٢] النحوى ، وقد ألف كتاباً فى النحو على حروف المعجم جمع فيه سائر الحروف التى أشار إليها

---

(١) يقول القفطى عنه : ونسبه بين الأطباء أشهر من اسمه ، وجده سعيد كان طبيباً . وكان من بيت المقدس وقرأ علم الطب به و بغيره من المدن التى ارتحل إليها ، واستفاد من هذا الشأن جزءاً متوفراً ، وأحكم ما علمه منه غاية الإحكام . وكان له غرام وعناية تامة فى تركيب الأدوية وعنده غوص على أمور هذا النوع واستغراق فى طلب غوامضه وهو الذى أكمل التر ياق الفاروق بما زاده فيه من المفردات وذلك بإجماع الأطباء ، وله فى التر ياق عدة تصانيف ما بين كبير ومتوسط وصغير . وقد كان مختصاً بالحسن بن عبيد الله بن طفج المستولى على مدينة الرملة وما انضاف إليها من البلاد الساحلية ، وكان مغرماً به و بما يعالجه من المفردات والمركبات و عمل له عدة معاجين ولخالخ طيبة دافعة للأوباء . ثم أدرك الدولة العلوية عند دخولها إلى الديار المصرية وصحب الوزير ابن كلس وصنف له كتاباً كبيراً (وهو السابق ذكره) . ولقى الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم واختلط بأطباء الخاص القادمين من أرض المغرب فى صحبة المعز عند قدومه والمقيمين بمصر من أهلها ، وكان منصفاً فى مذكراته غير راض على أحد إلا بطريق الحقيقة . وكان التميمى هذا موجوداً بمصر فى حدود سنة ٣٧٠ هـ (عن القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء) .

(٢) قال الصفدى وغيره ، شيخ اللغة فى المغرب ، كان إماماً علامة قيماً لعلوم العربية ، مهيباً عند الملوك والعلماء ، محبوباً عند العامة ، يملك لسانه ملكاً شديداً . صنف « الجامع فى اللغة » و « ضرائر الشعر » و « إعراب الدريدية » و « الضاء والظاء » و « العشرات فى اللغة » و « ما أخذ على المتنبى » و « التعريض والتصريح » و « أدب السلطان » وغير ذلك . مات سنة ٤١٢ هـ بالقيروان عن تسعين عاماً . انظر بغية الوعاة للسيوطى ص ٢٩ .

النحويون فى قولهم « الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى » ؛ وقد وصف أحد العلماء عمل القزاز بقوله : « إن القزاز فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين » .

بل لقد وجد كثير من فقهاء مذاهب أهل السنة الأمن والاستقرار فى مصر أيام ابن كلس ، أمثال محمد بن سليمان المعروف بأبى بكر النعال المتوفى سنة ٣٨٠ ﻫ والذى كانت إليه رياسة المالكية فى عصره وإليه كانت الرحلة بمصر ، وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة الطلاب الذين قصدوه للأخذ عنه . وأبو القاسم الجوهرى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى المصرى المالكى صاحب مسند الموطأ والمتوفى سنة ٣٨٠ ﻫ أيضاً .

أما الشعراء والأدباء الذين حفل بهم قصر ابن كلس فكثيرون ، وكان الوزير إذا ما انتهى من مجالس العلم والفقه التى كان يعقدها ، قام الشعراء يتبارون فى مدحه ، وكان بدوره يغدق عليهم المنح والهبات ، فكثر حوله الشعراء حتى لقد بلغ عدد الشعراء الذين رثوه بعد موته مائة شاعر .

ولقد حكى أبو حيان التوحيدى أنه سأل التميمى الشاعر المصرى عن الصاحب ابن عباد وعن أبى الفرج بن كلس ، فقال فى ابن كلس ، ذاك رجل له دار ضيافة وله زوار كالقطر يعطى على القصد والتأميل والطمع والطلب ، وليس عنده امتحان فالراحل شاكر ، وما ترتفع صلات ابن عباد عن مائة درهم إلى ألف درهم ، وأنبل من ورد عليه البديهى وهو شيخه فى العروض ، وعنه أخذ القوافى وبفتحه وهدايته قال الشاعر ، لم يزده فى طول مقامه إلى رحيله عن خمسة آلاف درهم تفاريق ، وإن أقل ضيف بمصر يصير إليه مثل هذا فى أول يوم » . فهذه الرواية تدل على مدى التشجيع الذى كان يلقاه رجال الأدب بمصر على يدى الوزير العالم الأديب .

ومن الشعراء الذين خصهم ابن كلس برعايته ، أبو عبد الله محمد بن أبى الجرع ، وأبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى المعروف بأبى الرقعمق الذى وصفه الثعالبى بقوله : « نادرة الزمان وجملة الإحسان وممن تصرف بالشعر الجزل فى أنواع الجد والهزل ، وأحرز قصب الفضل ، وهو أحد المداح المجيدين

والفضلاء المحسنين » وله فى ابن كلس مدائح كثيرة[١] . بل إن الأمير تميم بن المعز وأخو الخليفة من الذين مدحوا ابن كلس .

ومن شعر أبى الجرع فى ابن كلس وقد بلغه أن الوزير يشكو ألماً فى يده :

يد الوزير هى الدنيا فإن ألمت ... رأيت فى كل شىء ذلك الألما
تأمل الملك وانظر فرط علته ... من أجله واسأل القرطاس والقلما

ومنها :

لولا العزيز وآراء الوزير معاً ... تحيفتنا خطرب تشعب الأمما

ومن شعر الأنطاكى فى ابن كلس :

لم يدع للعزيز فى سائر الأر ... ض عدوًّا إلا وأخمد ناره
كل يوم له على نوب الده ... ر وكر الخطوب بالبذل غاره

ومما يؤسف له أن غالبية أشعار هؤلاء الشعراء الذين يعدون بالمئات قد فقدت فيما فقد من تراث الفاطميين .

وكان إلى جانب الشعراء المادحين ، شعراء آخرون هجوا ابن كلس ، مثل الحسن بن بشر الدمشقى[٢] وأبو محمد القاسم الرسى[٣] . وكما كان ابن كلس

---

(١) وأبو حامد الأنطاكى لم يكن مصرياً بل من أنطاكية قرب حلب ، وفد على مصر لمدح الخلفاء والوزراء ونيل جوائزهم وعطاياهم ، وكان شعره إلى الهزل أقرب من الجد وذكر المسبحى أن وفاته كانت سنة ٣٩٩ هـ .

وكان أبو الجرع ممن شاركوا أبا حامد فى لهوه ومجونه .

(٢) ومن هجاء ابن بشر لابن كلس :

تنصر فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يــدل
وقــل بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا العزيـ ... ـز ابن وروح القدس فضل

(٣) هجا الرسى ابن كلس بقوله :

توق معز الدين شؤم بن كلس ... ولا تقبلن منه مقال مدلس
فإنــا أردناه لكافور شربة ... فزاد على تقريرنا ألف مجلس

كريماً فى عطائه ، كان قاسياً فى عقابه ، إذ أمر بقتل ابن بشر بعد أن أغرى العزيز بالقبض عليه وسجنه .

ولا شك أن أثر ابن كلس على الحركة الفكرية كان قويًّا حتى ظلت مزدهرة فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وقد ساعد على استمرار تقدمها وجود وزراء أقوياء يحبون العلم والأدب وأهلهما ، مثل الجرجرائى واليازورى وغيرهما . حتى لقد حاول الفلاحى وزير المستنصر (سنة ٤٣٦ هـ) أن يغرى أبا العلاء المعرى الشاعر والفيلسوف بالحضور إلى مصر ، فكتب إلى والى حلب سجلا بدعوته إلى مصر حيث تبنى له دار علم يكون متقدماً فيها ، كما أمر له بخراج معرة النعمان فى حياته وبعده ، ولكن أبا العلاء آثر البقاء فى بلده واستعفى الوزير فأعفاه .

ولعل أبرز شخصية علمية فى تلك الفترة ، القضاعى [1] ، الفقيه الشافعى والمؤرخ المصرى الذى لقى الرعاية والتشجيع برغم مخالفته لمذهب الدولة وتولى القضاء ، وعمل فى ديوان الإنشاء ، واتخذه الجرجرائى ثم اليازورى كاتباً لإنشائه وعلامته ، وقد ألف القضاعى كثيراً من الكتب لعل من أهمها كتابه فى « خطط مصر » الذى اعتمد عليه المقريزى فى كتابه « الخطط » .

ويذكر ابن ظافر فى كتابه « أخبار الدول المنقطعة » أن اليازورى كان يحب أهل العلم ويرفع منهم ، حتى إن أبا يوسف القزوينى القاضى الفقيه لقبه

= والرس من بيت كله شعراء فأبوه أبو القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل بن طباطبا الحسنى الرسى وأخوه أبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد وابن أخيه أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم كلهم شعراء . وهؤلاء جميعاً من الأشراف العلويين الذين وفدوا على مصر قبل العصر الفاطمى واستقروا بها ، وكان لبيت الرسى نقابة الطالبين فى مصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين .

وكان أبو إسماعيل إبراهيم وأبو عبد الله الحسين بن إبراهيم من أشد صلة بتميم بن المعز الذين كان يقصف ويلهو معهم .

(١) أبو عبد الله بن سلامة بن جعفر القضاعى المتوفى سنة ٤٥٧ هـ ، من المؤرخين النابهين ، وكان إماماً فى الفقه والحديث وتولى القضاء وغيره فى عهد المستنصر ، وقد أوفد إلى القسطنطينية سفيراً إلى الإمبراطورة تيودورا سنة ٤٤٧ هـ لإصلاح الأمور بين الدولتين ، ولكنه لم ينجح فى سفارته لأن الروم فضلوا التحالف مع طغرلبك .

يوماً وهو متوجه إلى ديوانه فوقف له وأكرمه وسأله عن جميع حوائجه فقضاها ، وكان يقول فى أثناء كلامه السمع والطاعة .

وبرغم أنه لم يصلنا معلومات كافية عن الشعراء فى عهد اليازورى ، إلا أن الشواهد تدل على أن هذا الوزير كان محبًّا للفنون والآداب ، وأن مائدته كانت تحفل كل يوم بالأدباء .

ولقد امتدت المنافسة التى كانت قائمة بين اليازورى وبين المؤيد فى الدين داعى الدعاة إلى الناحية الأدبية ، فحاول كل منهما أن يجذب إليه الشعراء ، فيذكر العماد الأصفهانى أن ابن حيوس شاعر الشام لما وصل إلى مصر قصد اليازورى الذى هيأ له فرصة الإنشاد أمام الخليفة فى حفل أقيم فى القصر ، فغضب المؤيد فى الدين على الشاعر إذ قصد الوزير دونه ، فأرسل إلى شاعر آخر هو خطى الدولة أبو المناقب عبد الباقى وطلب منه حضور هذا الحفل ، فلما حضر اعتقد الموجودون أنه ابن حيوس فأنشد وأطال ، فلما دخل ابن حيوس وأنشد أظهروا له الملالة ، وأطلق له ألف دينار أخذها خطى الدولة ، فاجتهد الوزير حتى قسمها بينه وبين ابن حيوس .

ولقد أخذت الحركة الفكرية — شأنها شأن كل شىء آخر فى الدولة — فى الضعف فى أواخر القرن الخامس نتيجة لضعف الخليفة والوزراء ، وكانت الأحداث والفتن التى تعرضت لها البلاد فى الداخل والخارج عاملا فى إهمال الحركة العلمية حتى إن مكتبة القصر التى كانت أعظم مكتبة فى ذلك الوقت قد أصابها من المحن والتخريب الشىء الكثير ، ونهبت كتبها وعمل الجنود من جلود الكتب أحذية ونعالا ، وألقيت أوراقها خارج القاهرة حتى صارت تلالا عرفت بتلال الكتب . ويروى أن الوزير أبا الفرج محمد بن جعفر المغربى قد أخذ من مكتبة القصر من الكتب حمولة خمسة وعشرين جملا موقرة وفاء لما يستحقه. وسواء استولى المغربى على هذه الكتب استخلاصاً لحقه أو حبًّا فى العلم — وهو العالم الأديب — فإنه قد استطاع بعمله هذا استنقاذ هذه الكتب من المصير الذى لحق بمثيلاتها على يد الجنود .

ولما أعاد بدر الجمالى الاستقرار للبلاد ، عاد للحياة العلمية والفكرية ازدهارها وقوتها ، وظلت كذلك حتى نهاية الدولة . وابتدأت مصر تجذب إليها من جديد العلماء والمفكرين والأدباء . وأخذ العلماء يتجهون بمؤلفاتهم والشعراء بأشعارهم إلى الوزراء الذين أصبحوا أصحاب السلطة الحقيقية والقوة المسيطرة . وبدأنا نسمع عن الأسماء اللامعة أمثال أبى عبد الله محمد بن بركات النحوى المصرى(١) تلميذ القضاعى ، وقد تناول موضوع الخطط من بعده فى كتابه « خطط مصر » ، كما ألف فى علوم اللغة كتاباً ألفه للأفضل هو « كتاب الإيجاز فى معرفة ما فى القرآن من ناسخ ومنسوخ » وله تصانيف فى النحو حتى قيل إنه بحر العلوم . وعلى بن جعفر(٢) بن على السعدى المعروف بابن القطاع

---

(١) هو محمد بن بركات بن هلال بن عبد الواحد بن عبد الله السعيدى الصوفى يكنى أبا عبد الله . أحد فضلاء المصريين وأعيانهم المبرزين أخذ النحو والأدب عن أبى الحسن بن بابشاد فأتقنه ، وله أيضاً معرفة حسنة بالأخبار والأشعار ، وكان يقول الشعر فيجيد . وله من الكتب : كتاب خطط مصر أجاد فيه ، وله عدة تصانيف فى النحو منها كتاب « الإيجاز فى معرفة ما فى القرآن من منسوخ وناسخ » ألفه للأفضل ابن أمير الجيوش .

ولد أبو عبد الله سنة ٤٢٠ هـ ومات فى ربيع الآخر سنة ٥٢٠ هـ .

نقلا عن ياقوت ، معجم الأدباء .

والسيوطى ، بغية الوعاة .

(٢) على بن جعفر بن على السعدى يعرف بابن القطاع الصقلى وكان إمام وقته ببلده وبمصر فى علم العربية وفنون الأدب ، قرأ على أبى بكر محمد بن البر الصقلى وصل إلى مصر عند ما أوشكت صقلية على الوقوع فى يد النورمانديين سنة ٥٠٠ هـ فأكرمه الأفضل ووكل إليه تأديب أولاده .

وكان مما روى عنه كتاب الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهرى ومن طريقه اشتهرت رواية هذا الكتاب فى جميع الآفاق . ولابن القطاع عدة تصانيف منها : كتاب الجوهرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة (يعنى جزيرة صقلية) اشتملت على مائة وسبعين شاعراً وعشرين ألف بيت شعر ، وكتاب الأسماء فى اللغة جمع فيه أبنية الأسماء كلها ، وكتاب الأفعال هذب فيه أفعال ابن القوطية وأفعال ابن طريف وغيرهما فى ثلاث مجلدات ، وله حواش على كتاب الصحاح نفيسة ، وعليها اعتمد أبو محمد بن برى النحوى المصرى فيما تكلم عليه من حواشى الصحاح ، وكتاب فرائد الشذور وقلائد النحور فى الأشعار ، وكتاب العروض والقوافى ، وكتاب ذكر تاريخ صقلية ، وكتاب أبنية الأسماء والأفعال ، ولابن القطاع أشعار ليست على قدر علمه . قال الصفدى وكان نقاد المصريين ينسبونه إلى التساهل فى الرواية . وقد ولد ابن القطاع فى صفر سنة ٤٣٣ هـ وتوفى سنة ٥١٤ هـ وقيل سنة ٥١٥ هـ ودفن قرب ضريح الإمام الشافعى . عن معجم الأدباء لياقوت – وبغية الوعاة للسيوطى . هذا وإن ذكر ابن تغرى بردى ، النجوم جـ ٥ ص ٢٠٩ ، أنه توفى سنة ٥٠٩ هـ .

الذى رحل عن صقلية سنة ٥٠٠ هـ لما أوشكت على الوقوع فى يد الفرنج ، وجاء مصر حيث وجد الرعاية من الأفضل وجعله مؤدباً لولده ، وألف كثيراً من الكتب .

وانتقل الشعراء من مدح الخلفاء إلى مدح الوزراء ، حتى إن من يتعرض منهم لمدح الخليفة كان لا بد له أن يقرن اسم الوزير باسم الخليفة ، وإلا حلت عليه نقمة الوزير وسخطه . والويل للشاعر الذى يتجه بمدائحه إلى غيرهم ، إذ أنه بذلك يتعرض للإهمال مهما بلغ شعره من الجودة ، فابن مكنسة [1] الذى يصفه أمية بن أبى الصلت ، بأنه « شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف مفتن فى وشى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم فى رفيعه وجزله ، هذا الشاعر برغم تفوقه ، لم ينل الحظوة لدى الأفضل ، وحكم عليه بالموت الأدبى ، لأنه كان منقطعاً قبل ذلك إلى مدح عامل من النصارى يعرف بأبى مليح ، فنفس عليه الأفضل ذلك وأعرض عنه حتى ساءت حاله .

ولقد كان هؤلاء الوزراء بدورهم ذواقين للشعر محبين للأدب ، بل كان منهم من يقرض الشعر ، فكانوا يكرمون رجال الأدب لا حبا فى التظاهر بل حباً فى الأدب نفسه . ولذلك وفد على مصر كثير من أعلام الأدب يجدون من وزرائها الرعاية والتقدير فكان لذلك أثره فى ازدهار الحركة الأدبية من جديد ، فامتازت هذه الفترة بروعة الشعر وبراعة النثر ، وحفلت دواوينهم بأئمة البيان الذين بلغوا الدرجة العالية من الثقافة وعرفوا بالمهارة فى فنون الأدب حتى أصبحت رسائلهم وكتبهم مثالا يحتذى أمثال أبى الفتح الدمياطى وابن الخلال وابن الصيرفى والقاضى الفاضل فظلت النهضة الأدبية فى ازدهارها وأصبح لمصر فى عهد هؤلاء الوزراء الزعامة الأدبية فى العالم العربى ، فالدولة الفاطمية وإن ضعف خلفاؤها ظلت متماسكة إلى حد كبير بفضل وزرائها الذين استطاعوا أن يحافظوا على البلاد وأن ينموا ثروتها التى جذبت العلماء والشعراء والكتاب والفنانين من البلاد الأخرى فى حين انتاب الضعف الخلافة العباسية وانقسمت دولتهم إلى دويلات صغيرة

---

(١) هو أبو الطاهر إسماعيل بن محمد ، توفى فى حدود الخمسمائة – فوات الوفيات .

فقيرة فأصبحت مصر قبلة كل من يسعى إلى الثروة وبحبوحة العيش لثرائها واستقرار الأمور فيها . بل لقد شجع جود الوزراء وعطاياهم كثيراً من الشعراء إلى إرسال مدائحهم وهم فى بلادهم ، وكانت هبات الوزراء بالتالى ترسل لهم فى أماكنهم دون تحمل مشقة الحضور إلى مصر ، وكأن الوزراء بذلك قد شجعوا الحركة الأدبية فى مختلف البلاد العربية لا فى مصر فحسب .

وكان بدر الجمالى برغم انشغاله بالقضاء على أسباب الفتنة وتوحيد أركان الدولة لا يرد الشعراء من على بابه ، كما كان جواداً يسمع المديح ويثيب عليه ؛ وقصة الشاعر الشامى علقمة بن عبد الرازق العليمى مع بدر معروفة ، إذ جاء إلى مصر ومدح الوزير فخرج من عنده بسبعين جملا تحمل إنعامه وأمر له بعشرة آلاف درهم ويقول علقمة : « فقلت لمن ببابه من الشعراء والقصاد ، يا متخلفين ألحقونى إلى منزلى فلحقونى فما فيهم إلا من خلعت عليه وأعطيته من جائزتى » . ولكن ذلك لم يمنع بدراً من قتل بعض الشعراء المجيدين مثل ابن أبى الشخباء وعلى بن إسماعيل الذى وصفه عماد الدين بقوله : « لم يكن له نظير فى الأدب سوى ابن أبى الشخباء » .

وكان الأفضل بن بدر الجمالى معروفاً بحبه للشعر والشعراء ، وكان له مجلس فى دار الملك يعرف بمجلس العطاء به ثمانية مظاريف من الديباج فى سبعة منها خمسة وثلاثون ألف دينار يهب منها من يقف بين يديه من الشعراء . وقد توالت عليه وفود الشعراء يطمعون فى بره وإحسانه وينعمون بما يغدقه عليهم من صلات ، ولا أدل على ذلك ما قاله ابن العلافى [1] الشاعر فى تشبيه هؤلاء الوفود من الشعراء بالحجيج فيقول :

فكة مصر والحجيج وفوده ... ويمناه ركن البيت والنيل زمزم

وشاكر ما تولى مقر بعجزه ... ولو أنه فى كل عضو له فم

ولقد ظهر منذ عهد الأفضل غرض جديد من أغراض الشعر علاوة على ما كان معروفاً من قبل كالمدح والرثاء والوصف ، وذلك هو الشعر الذى يتعلق

---

(١) أبو الحسن على بن إبراهيم الملقب بابن العلافى من أهل معرة النعمان وقد اجتذبه جود الأفضل . إبراهيم حسن ، الفاطميون فى مصر — ص ١٦٤ .

بالحروب الصليبية ، فقد أخذ الشعراء يذكرون جهاد الوزراء لهؤلاء الصليبيين وانتصارهم عليهم ومحاولة تبرير هزائمهم، فمن ذلك قول أمية ابن أبى الصلت فى قصيدة يذكر فيها خروج الأفضل لحرب الصليبيين :

جردت للدين والأسياف مغمدة سيفا تغل به الأحداث والغير
وقمت إذ قعد الأملاك كلهم تذب عنه وتحميه وتنتصر

ولقد جاء أمية من بلاد المغرب يجذبه إلى مصر جود الأفضل ، ويبدو أنه نال حظوة لديه أول الأمر ، ثم غضب عليه فسجنه واضطر أمية إلى الرحيل سنة ٥٠٦ ﻫ بعد أن يئس من استعادة مكانته لدى الوزير فألف الرسالة المصرية وهاجم فيها مصر والمصريين ووصف ما لقيه فيها وماشاهده إلا أنه ذكر كثيراً من أدباء مصر وشعرائها الذين عرفهم مثل أبى الحسن على بن جعفر بن البوين من معرة النعمان ، ويذكر أمية أن الأفضل لم يقبل على أحد من الشعراء كإقباله على أبى الحسن هذا « فإنه أفاض عليه سحائب إحسانه وأدر عليه حلوبة إنعامه، ولقبه بأمين الملك وأدناه واستخلصه »[١] .

وممن ذكرهم أمية أيضاً ، أبوالقاسم على بن جعفر بن الأغلب السعدى الذى وفد إلى مصر من جزيرة صقلية وقد كان من أئمة الأدب فى عصره ، صنف كتاب « الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة » (صقلية) وكتاب « لمح الملح » يتضمن الكثير من أشعار الأندلس .

ومن الشعراء الذين نعموا بجود الأفضل، أبوالفتيان مفضل ابن حسن بن خضر العسقلانى ، وأبو الحسن على بن إبراهيم الملقب بابن العلانى ، وأبو الفضل جعفر ابن الفضل الملقب بالمهذب ، وكانت معظم قصائده فى مدح الأفضل[٢] ،

---

(١) ومن شعر ابن البوين فى الأفضل :

يا من تنافس فيه السمع والبصر كما تغاير فيه الشمس والقمر
ومن تحكم فى الأرواح فاحتكمت ألا يحكم فيها بعده بشر

(٢) ومن شعر أبى الفتيان مفضل بن حسن بن خضر العسقلانى فى الأفضل :

أقول والنجم مرقوم بغرته سطراً نظرت وضوء الصبح مبتسم
أماء خديه أضحى فى زجاجته يدير أم ملؤها فى وجنتيه دم
صيغ الصباح ضياء من مباسمه فاستنبطت حلكا فى شعره العتم

وأبو على حسن بن الزيد[1] الأنصارى الذى كان من المقدمين فى ديوان الإنشاء والذى يقول القاضى الفاضل عنه : « إنه فى فنه لم يسمع الدهر بمثله » . ومسعود الدولة النحوى مقدم الشعراء أيام الأفضل ، والشريف أبو جعفر محمد بن هبة الله العلوى الحسينى الذى جاء من طرابلس وحظى من منن الأفضل بأجزلها . وغيرهم كثيرون أمثال أبى شرف الدجرجاوى والناجى المصرى وأبى الحسن على بن النضر المعروف بالأديب الذى يثنى عليه أمية بن أبى الصلت بقوله : « ذو الأدب الجم والعلم الواسع والفضل البارع وله من سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى والرتبة الأولى ».

على أن الشاعر المصرى الذى ازدان به عصر الأفضل هو ظافر الحداد الذى أكثر من مدح الأفضل والخليفة ويصفه العماد بقوله : « ظافر بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما أكمله لولا أنه مداح المصرى ، والله له غافر ، حداد لو أنصف يسمى جوهريًّا ، وكان أهدى يروى شعره الروى للقلوب الصاوية ريًّا » .

على أن هناك من الشعراء من نقم على الأفضل فهجاه ، ومن هؤلاء الناجى المصرى الذى هجا الأفضل بقوله : [2]

قل لابن بدر مقال من صدقه ... لا تفرض بالوزارة الخلقه
إن كنت قد نلتها مراغمه ... فهى على الكلب بعدكم صدقه

وقد اكتفى الأفضل بنفيه إلى الواحات فأقام بها عند علم الدولة المقرب بن

(١) ومن شعر ابن الزيد فى الأفضل :

خلع الزمان على حلة مفخر ... شرفاً بمدح الأفضل المفضال
يلقى المدائح بالمنائح واهباً ... ويصدق الأقوال بالأفعال

وفى قصيدة أخرى :

لولا وجودك فى الزمان وجودك الـ ... محيى المكارم بعد بعد وفاتها
لم يعرف المعروف فى الدنيا ولو ... طفنا عليه فى جميع جهاتها

(٢) كان الناجى المصرى فى بدء أمره من شعراء الأفضل . ويعد من شيوخ الأدب فى عهده ، ومن الشعراء الذين كان الأفضل يجزل لهم العطاء ويجلس إليهم ويستمع إلى أشعارهم وروايتهم للشعر ، ثم لسبب لا نعلمه هجا الأفضل بهذه الأبيات .

ماضى (١) . ولدى المأمون البطائحى وجد العلماء الإكرام والتشجيع ، فتقدم العلماء إليه بمؤلفاتهم ووجدوا لديه التشجيع والرعاية، فعندما وفد إليه الفقيه أبو بكر محمد الطرطوشى (٢) من الإسكندرية بمؤلفه « سراج الملوك » ، أكرمه أيما إكرام ، وأمر بإخلاء المجلس له واستقبله واقفاً وجلس بين يديه ، وعند انفضاض المجلس صحبه أخو المأمون بنفسه إلى المكان المعد لإقامته ، وأمر مشارف الجوالى أن يحصل إليه فى كل يوم خمسة دنانير ، وصار المأمون يستدعيه يومى راحته ويبالغ فى كرامته ويقضى شفاعته . وعندما قرر العودة إلى الإسكندرية وعلم المأمون برغبته فى بناء مسجد هناك ، أمر والى الإسكندرية أن يتولى ذلك على نفقة الديوان المأمونى .

كما رأينا كيف أكرم المأمون يوسف بن حسداى الطبيب الذى ألف له « الشرح المأمونى » .

ولا أدل على رعاية المأمون للعلوم من ظهور مؤرخ عظيم من أهل بيته ، هو ابنه جمال الملك موسى ، الذى ألف كتاباً فى التاريخ يعتبر من المراجع الرئيسية التى استعان بها المقريزى عند تعرضه لتاريخ الدولة الفاطمية خصوصاً فى الفترة من سنة ٥٠١ إلى سنة ٥١٩ هـ . وقد استعرض ابن المأمون فى تاريخه نظم الدولة

---

(١) محمد بن محمد بن الوليد المكنى بأبى بكر والمعروف بالفهرى الطرطوشى ولد سنة ٤٥٠ أو سنة ٤٥١ هـ فى مدينة طرطوشة بالأندلس ، وقد تعمق فى دراسة الفقه وبعد أن طوف فى بلاد المشرق وذهب إلى بغداد والبصرة ، وفد إلى الإسكندرية سنة ٤٩٥ هـ وقد بلغ الأربعين من العمر ، وتصادف وصوله عقب فتنة نزار وحصار الأفضل لها وتعرضها لكثير من التخريب وقتل كثير من أهلها وعلمائها حتى تعطلت الشعائر الدينية ولم تقم الجمعة بمساجدها . وقد التف حول الطرطوشى الكثير من طلبة العلم .

وعند ما حضر للقاهرة لتقديم كتاب « سراج الملوك » للمأمون أدار بينهما نقاش طويل حول طريقة الإرث وكان الطرطوشى يعارض رأى الشيعة ويرى مخالفته للشرع وانتهى الأمر إلى أن صدر الأمر بأن يتبع فى الميراث مذهب الميت . كما أمر الوزير بأن لا يصرف لأمناء الحكم الذين كانوا يشرفون على شئون الميراث من أموال الورثة وقرر لهم راتباً من خزانة الدولة .

وصدر سجل رسمى موقع عليه من الخليفة الآمر والوزير المأمون بهذه الأوضاع الجديدة وأرسل إلى القضاة فى كل أنحاء الدولة للعمل به .

الشيال – « أعلام الإسكندرية » .

الفاطمية ورسومها ، وساعده على ذلك استطاعته الوصول إلى كثير من أسرار الدولة ومستنداتها ، ويذكر أن هذا المؤلف كان فى أربعة أجزاء .

ومن أشهر المؤلفين الذين ظهروا فى الفترة الأخيرة لحياة الدولة الفاطمية ابن الصيرفى [١] صاحب ديوان الإنشاء والذى ألف كتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة » للمأمون البطائحى و « قانون ديوان الرسائل » الذى ألفه لأبى على أحمد ابن الأفضل وأبو عبد الله محمد بن سعد القرطى مؤلف « تاريخ مصر » الذى قدمه لشاور ، وقد نقل عنه ابن سعيد فى مؤلفه « المغرب فى حلى المغرب » كثيراً من أخبار الطولونيين والإخشيديين والفاطميين .

ولقد كان الصالح بن رزيك برغم تعصبه للمذهب الشيعى يجتمع بفقهاء السنة ويستمع إليهم ، وكان يعقد مجالس العلم والأدب ولم يكن يخيب أمل قصاده من أهل العلم الذين يفدون إليه من سائر البلاد [١] ، فكان ممن قصده الحسن ابن على بن عبد الله بن أبى جراره أبو على ثقة الملك الحلبى الحسنى ، الشاعر الأديب . كما كان الصالح كثير الاهتمام بالشعراء وقد عرف ابن رزيك ما للشعر من أمر فاستخدمه فى تمكين دولته وتمجيد حروبه مع الصليبيين ، كما كان شيعياً مغالياً اتخذ من الشعر وسيلة لمحاولة نشر المذهب الشيعى والحط

---

(١) أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب بن سليمان بن الصيرفى المصرى كاتب ومؤرخ فاطمى ظل فى رئاسة ديوان الإنشاء نصف قرن . قال عنه ياقوت : أحد فضلاء المصريين وبلغائهم ، مسلم ذلك له غير مبالغ فيه ، وكان أبوه صيرفياً واشتهى هو الكتابة فمهر فيها ، ويذكر ياقوت أن الأفضل بن بدر الجمالى هو الذى استخدم ابن منجب فى ديوان المكاتبات ورفع من قدره وشهره ، ثم أراد أن يعزل الشيخ ابن أبى أسامة عن ديوان الإنشاء ويفرد ابن الصيرفى به ، واستشار فى ذلك بعض خواصه فقال له : إن قدرت أن تفدى ابن أبى أسامة من الموت يوماً واحداً بنصف مملكتك فافعل ذلك ولا تخلى الدولة منه فإنه جمالها .

ولم يكن ابن الصيرفى كاتباً من كتاب الرسائل فحسب ، بل مؤرخاً ومصنفاً . ومن تصانيفه – كتاب عمدة المحادثة – وكتاب عقائل الفضائل – وكتاب استنزال الرحمة – وكتاب منائح القرائح – وكتاب رد المظالم – وكتاب لمح الملح – وكتاب فى السكر – وله اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبى العلاء المعرى وغيرهما . وهذه الكتب كلها مفقودة الآن ، وإنما وصل إلينا من كتبه كتاباه : قانون ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة .

من شأن المذاهب الأخرى ، كما حاول جاهداً أن يغرى شعراء عظام كعمارة اليمنى باعتناق هذا المذهب . واتخذ ابن رزيك من الشعراء أصدقاء وجلساء فيذكر عمارة اليمنى أسماء بعض الشعراء والأدباء الذين قابلهم فى حضرة هذا الوزير فيقول : « ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليسى أبا المعالى ابن الحباب ، والموفق بن الخلال[1] صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا الفتح محمد بن قادوس ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير وما من هذه الحلبة الحلبة أحد إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب ، ويرى شاكلة الأشكال فيصيب » . كما يقول عن الصالح : « ولم تكن مجالس أنسه تنقطع إلا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعية والأدبية . وكان شاعراً يحب الأدب وأهله ويكرم جليسه ويبسط أنيسه ، وكان كرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل ». لذلك قصده الشعراء من كل مكان فوجدوا فى رحابه ما أملوه ، كما كان يراسله على البعد غيرهم فأفاض على الدانى والقاصى بالعطاء ، أو كما يقول القاضى الجليسى « نشرت أيامه مطوى الهمم ، وأنشرت رفات الجود والكرم ، ونفقت بدولته سوق الآداب بعد ما كسدت ، وهبت ريح الفضل بعد ما ركدت ، إذ لها الملوك بالقيان والمعازف ، كان لهوه بالعلوم والمعارف » .

ولا أدل على حب الصالح للشعر ، ما ذكره عمارة من أنه عند وصوله إلى مصر أول مرة رسولا من أمير الحرمين هاشم بن فليتة ، لجأ إلى الحسين بن أبى الهيجاء صهر الصالح ليقدمه له ، يقول عمارة : « فلما استدعى أبو الهيجاء للغداء عند السلطان " أى الصالح " ، قال عندى رسول صاحب مكة وكنت أظنه عاقلا فإذا هو ناقص ، قال له الصالح وبأى شىء عرفت نقصه ، قال لكونه يحسن شيئاً من هذا السحت الذى تعمله أنت والجليس وابن الزبير قال الصالح لعله

---

(١) هو القاضى الموفق أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال . رئيس ديوان الإنشاء منذ أواخر عهد الحافظ محمد عبد الله إلى آخر أيام العاضد . وصفه العماد بقوله : هو ناظر مصر وإنسان ناظرها ، وجامع مفاخرها ، وكان إليه الإنشاء ، وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء ويعد الموفق الأستاذ المباشر للقاضى الفاضل . وتوفى ابن الخلال فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٦ هـ .

شاعر ، قال نعم ، قال الصالح هاته ، هات الرجل ثم أنشد الصالح :

إن الذى تكرهون منه ذاك الذى يشتهيه قلبى

ويكفى أن نذكر بعض فحول الشعراء الذين حفل بهم بلاط الوزراء وخاصة ابن رزيك لنعرف مدى ما وصل إليه الأدب من ازدهار وما بلغه الشعراء والأدباء من مراكز الصدارة فى دواوين الدولة ، ومن هؤلاء الأخوان أحمد والحسن ابنا على بن الزبير (١) ، وقد وصف عماد الدين الأخير بقوله « محكم الشعر كالبناء المشيد ، ولم يكن فى زمانه أشعر منه » ، والقاضى الجليس بن الحباب (٢) والشريف القاضى سناء الملك أسعد بن على الحسينى الذى جاء من الموصل واستقر بمصر ، والأمير أبو المهند حسام بن مبارك العقيلى ابن أخت الصالح وكان مقدم عسكره كما كان شاعراً مثل خاله والفقيه الشاعر نصر بن عبد الرحمن من أهل الإسكندرية وابن الصياد (٣) الذى قال عنه عماد الدين : « كان سريع الخاطر فى النظم لا يقف قلمه ولا يتضع فيه علمه ويغريه الصالح بجلسائه

(١) وابنا الزبير هما : الحسن بن على بن إبراهيم بن الزبير المعروف بالقاضى المهذب وأحمد بن على المعروف بالقاضى الرشيد . من أهل أسوان من أصل عربى ينتميان إلى قبيلة غسان وكان المهذب وأخوه الرشيد من أكبر شعراء ذلك العصر ، رحلا من أسوان إلى القاهرة وما زالا يرتقيان فى مناصب الدولة حتى بلغا مرتبة القضاء وجالسا الوزراء والأمراء .

وكان الرشيد أعلم من أخيه وأخوه أشعر منه ، فقد ضرب الرشيد بسهم وافر فى الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والنجوم ، كما كان يجيد النثر ، وله تصانيف منها كتاب « منية الألمعى وبلغة المدعى » وكتاب « المقامات » ولعل أشهر تصانيفه هو كتاب « جنان الجنان » ، وروضة الأذهان ، الذى تحدث فيه عن شعراء مصر ومن طرأ عليها ، وجعله ذيلا على يتيمة الدهر للثعالبى ، وهو الكتاب الذى أخذ عنه العماد الأصفهانى أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتاب الخريدة .

(٢) هو القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب الأغلبى السعدى التميمى جليس صاحب مصر ، كان أوحد عصره فى مصر نظماً ونثراً وترسلا وشعراً مات سنة ٥٦١ هـ وقد أناف على السبعين ومن أشعر قصائده قصيدته الدالية التى كتبها للصالح طلائع يستنجده بعد قتل الظافر . ودعى بالجليس لكثرة مجالسته للخلفاء ومدحه إياهم .

(٣) هو أبو القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد وكان مولعاً بهجاء القاضى الجليس كثير التهكم بأنفه الكبير حتى قيل إنه أنشد أكثر من ألف مقطوعة فى أنف الجليس .

يهجوهم وكانوا يتعرضون له »، وابن قادوس[1] الذى بلغ من تكريم الصالح له أن حضر إلى منزله عند وفاته ومشى فى جنازته حتى واروه التراب . وغيرهم كثيرون .

وإن عمارة اليمنى خير مثال لما كان يلقاه الشعراء من تشجيع الوزراء وما كان لهذا التكريم من أثر فى أدبهم ، فإن عمارة برغم كونه سنياً شافعياً لم يمنع ابن رزيك من العطف عليه وتقريبه له حتى صار من ألصق أصحابه به ، وانهالت عليه صلات الوزير ، مما جعل عمارة السنى ينطلق بكل قوته ومقدرته الشعرية فى الإشادة بذكر الفاطميين والانتصار لهم والدفاع عنهم حتى بعد القضاء على دولتهم مما أدى به إلى القتل بأمر صلاح الدين . ولقد بلغ من حب ابن رزيك لعمارة أن حاول جاهداً ضمه إلى المذهب الشيعى وبذل له المغريات ولكن عمارة رفض ذلك وإن لم يؤثر هذا فى العلاقة بينه وبين ابن رزيك ، بل ظلت الصداقة بينهما على قوتها . وظل عمارة وفياً لآل رزيك حتى بعد القضاء على دولتهم ومحاولة الوزير شاور إغداق النعم عليه وتقريبه له وضمه إلى حاشيته. ومن أروع ما قاله عمارة فى رثاء الصالح :

تنكد بعد الصالح الدهر فاغتدت　　مجالس أيامى وهن غيوب
أيجدب خدى من ربيع مدامعى　　وربعى من نعمى يديه خصيب

ولقد سار العادل رزيك على منوال أبيه فى رعاية الأدب والأدباء، ويقول عمارة عن العادل : « ومن محاسن أيامه وما يؤرخ عنها ، بل هى الحسنة التى لا توازى واليد البيضاء التى لا تجازى، خروج أمره إلى والى الإسكندرية بتسيير القاضى الأجل الفاضل أبى على عبد الرحيم البيسانى[2] إلى الباب واستخدامه

(١) هو القاضى المفضل كافى الكفاة أبو الفتح محمد بن القاضى الموفق إسماعيل بن أحمد الدمياطى المعروف بابن قادوس من أقدر كتاب مصر وشعرائها شاهد عصر الأفضل بن بدر الجمالى وامتدت به الحياة إلى عصر الصالح طلائع ، وهو مصرى المحتد والنشأة ورغم علو كعبه فى الشعر ، كان ضعيف الخلق يحسد زملاءه .

(٢) عبد الرحيم بن على البيسانى كان شافعى المذهب تقلد أبوه قضاء بيسان وهى بلدة من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين ، ومن هذا اللفظ اشتق اسمه (البيسانى) قدم القاهرة وخدم فى ديوان الإنشاء أيام الخليفة الحافظ وترقى حتى صار صاحب هذا الديوان . ولما قدم أسد الدين شيركوه مصر اتخذه كاتباً له ، فلما مات ووزر صلاح الدين استخلص البيسانى واستعان به فى إزالة الدولة الفاطمية ، ثم جعله وزيراً له ومشيراً ، وتوفى سنة ٥٩٦ هـ .

بحضرته وبين يديه فى ديوان الجيش، فإنه غرس منه للدولة بل للملة شجرة مباركة متزايدة النماء، أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها».

ولقد دخلت البلاد بعد القضاء على آل رزيك ووزارة شاور فى دور جديد من الفوضى وسفك الدماء وتدخل القوى الخارجية نتيجة للاضطرابات التى قامت بين شاور وضرغام، فأخذت دولة الأدب مثل أى شىء آخر فى الدولة فى الضعف برغم محاولات شاور فى تقريب بعض الشعراء مثل عمارة وغيره. ولقد وصف عمارة ما صاحب وزارة شاور من سفك للدماء، وما أدى ذلك إلى اضطراب النفوس وبلبلة الأفكار فقال:

ألا إن حد السيف لم يبق خاطراً ... من الناس إلا حائراً يتردد
ذعرت الورى حتى لقد خاف مصلح ... على نفسه أضعاف ما خاف مفسد

فكان لذلك أثره فى انفضاض فحول الشعراء ومحاولة كل منهم النجاة بنفسه حتى إن عمارة نفسه ألح على شاور فى إقالته من قول الشعر، فأقاله.

ويصف عماد الدين الأصفهانى حالة الأدب والأدباء بعد الصالح بقوله: «انكسفت شمس الفضائل الزاهرة، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل. واتسع جاه الجهل، وانحل نظام أهل النظم، وانتثر عقد ذوى النثر، واستشعر الفاقة الشعراء، وعدم البلغة البلغاء، وعد الفضل فضولا، والعقل عقولا، وطلب المهذب مذهباً فى الذهاب محبوباً، ومركباً فى النجاة مجنوباً، وأضل الرشيد طريق رشده فاحترق بشرار شر شاور من بعده، وعاد ابن الصياد إلى حرفة أبيه، وطفق فضلاء الحضرة يغيبون لحضور الناقصين فلم تزل مصر بعده منحوسة الحظ، منسوخة الجد منكوسة الراية معكوسة الآية».

الفصل الثانى

الوزراء والنهضة الفنية والعمرانية

كان للرخاء الذى عم البلاد فى معظم فترات الحكم الفاطمى أثره الكبير فى قيام نهضة فنية وعمرانية شارك فى ازدهارها الخلفاء والوزراء ، بل كان للوزراء دور كبير وفضل لا ينكر فى هذه النهضة بما أولوه للفنانين من تشجيع ورعاية ، كما كان للثراء العريض الذى نعم به معظم الوزراء والحياة المترفة التى عاشوها وعاشها معهم المصريون عامل كبير فى ذلك .

ولقد كان ابن كلس أول وزراء الدولة ميالاً للترف والإكثار من الملابس الثمينة . وكان فى داره خزانة خاصة للكسوة لها ناظر يديرها . ولقد دفع هذا الاهتمام الذى كان يبديه الوزير بهذه الصناعة إلى الأمام وخطت خطوات واسعة نحو الازدهار ، وكثرت دور الطراز وانتشرت مراكزها فى البلاد حتى لقد بلغ مجموع الضرائب التى جمعت فى عهد ابن كلس من مراكز هذه الصناعة فى تنيسى ودمياط والأشمونيين مائتى ألف دينار .

وظهر فى عهد العزيز ووزيره ابن كلس أنواع جديدة من الأقمشة مثل العتابى الذى اشتهرت به بغداد والسقلاطون الذى عرفه الروم ، وقد توصل النساجون المصريون إلى معرفة هذين النوعين نتيجة العلاقات الطيبة التى قامت بين مصر والبويهيين والصلح الذى عقد بين مصر والروم نتيجة سياسة ابن كلس.

إلى جانب ذلك اشتهر ابن كلس بحبه للبناء ، حتى لقد أنشأ عدة مساجد ومساكن بمصر والقاهرة ، وكان قصره فى ضخامته ينافس قصر الخليفة بما كان يحويه من أماكن لسكناه وسكنى خاصته ، وإلى جانب القصر كانت مساكن حاشيته وحرسه والتى عرفت بالحارة الوزيرية .

وفى وزارة الجرجرائى تم ترميم قبة الصخرة وتجديد فسيفسائها على يد أحد

الفنانين المصريين هو عبد الله بن الحسن ، إذ جاء فى الكتابة التذكارية ما يلى : « أمر بعمل هذه القبة وإذهابها سيدنا الوزير الأجل صفى أمير المؤمنين وخالصته أبو القاسم على بن أحمد أيده الله ونصره ، فكمل جميع ذلك فى سلخ ذى القعدة سنة ٤٢٦ صنعه عبد الله بن الحسين المصرى المزوق » .

وكان اليازورى من أكثر الوزراء تشجيعاً للفن والفنانين كما كان من هواة التصوير وقصته مع الرسامين قصير المصرى وابن عزيز العراقى مشهورة، فقد كان قصير من أنبغ الرسامين فى عصره ، ويظهر أن الوزير ضاق بمغالاته فى الأجر أو أنه أراد أن يكون هناك منافس له يخفف من غلوائه ويصل عن طريق المنافسة إلى أحسن ما يمكن ، لذلك دعا ابن عزيز من العراق . ولقد نجح اليازورى فى سياسته هذه إذ حصل بهذه الطريقة على أبدع ما وصل إليه فنهما ، فرسم له قصير صورة على حائط لإحدى الراقصات ، تبدو كأنها داخلة فى الحائط بأن رسمها بملابس بيض فوق أرضية سوداء ، فما كان من ابن العزيز إلا أن رسم على الحائط المقابل صورة راقصة تبدو كأنها خارجة من الحائط إذ رسم الراقصة بثياب حمراء فوق أرضية صفراء ، ولذلك خلع عليهما اليازورى الكثير من الذهب . كما أن هذا الوزير أمر بصنع خيمة ضخمة اشترك فى عملها مائة وخمسون صانعاً ظلوا يعملون بها تسع سنوات وبلغت النفقة عليها ثلاثين ألف دينار وقد صور بهذه الخيمة كل حيوانات الأرض .

وبلغ من تقدم الفنون فى عهد الأفضل وخاصة صناعة التماثيل ، أن وجد بين ذخائره دكة من العاج والأبنوس محلاة بالفضة عليها قطعة من العنبر مثمنة الشكل، فى أعلاها تمثال طائر من الذهب أرجله من المرجان ومنقاره من الزمرد وعيناه من الياقوت . كما كان له تمثال من العنبر على قدر جسمه ليضع عليه ملابسه ، أما فى مجلس شرابه فقد وضعت ثمانية تماثيل لثمان جوار ، أربع بيض من كافور وأربع سود من عنبر ، وكان الأفضل إذا دخل المجلس نكسن رءوسهن إجلالاً له حتى إذا أخذ مكانه استوين قائمات ، ولا شك أن الطريقة التى كانت تتحرك بها هذه التماثيل تدل على براعة ورسوخ قدم فى الفن . كذلك ما ذكره

المقريزى عن ابن المأمون فى وصف الاحتفال بفتح الخليج وما كان يقدم للخليفة والوزير من صوانى الذهب المرسوم عليها الصور الآدمية والحيوانية المعمولة من الذهب والعنبر واليواقيت ، ما يدل على البراعة والتقدم الفنى فى ذلك العصر الذى صار للوزراء فيه الكلمة العليا وأصبحت مقاليد الأمور فى أيديهم .

ومن أبدع الأشعار التى تعطينا فكرة عن تقدم فن التصوير والزخرفة فى ذلك العصر وأثر الوزراء فى ذلك ، قصيدة عمارة اليمنى يصف فيها دار الصالح طلائع ابن رزيك ومابها من رسوم جميلة تمثل حدائق مليئة بالفاكهة والأزهار ومايمرح فيها من مختلف أنواع الحيوان متوحشها ومستأنسها .

ومع حياة الاستقرار التى أعادها بدر للبلاد ، أعاد الحياة لكثير من الفنون وشجع العمران ، فمن ضمن إنشاءات بدر تجديد جامع العطارين بالإسكندرية وإنشاء جامع المقياس والجامع العتيق بإسنا ومسجد أمير الجيوش بأعلى جبل المقطم ، ومشهد الإمام الحسين بعسقلان كما عمر الجامع الطولونى والمسجد النفيس ومسجد العمرى بالمحلة الكبرى . ،

ومن أهم الآثار الفاطمية من عهد بدر ، الأبواب الثلاثة الكبرى لسور القاهرة ، وهى باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح التى تشهد بعظمة العمارة الفاطمية . وهذه الأبواب من عمل ثلاثة أخوة من مدينة الرها ، ويظهر فيها أصول الفن البيزيطى . ومسجد أمير الجيوش بالمقطم الذى اشتمل رغم صغره على مميزات معمارية نادرة ، فقد دعمت الوجهات بدعامات مربعة انتهت من أعلاها بقبات صغيرة اقتصر ظهورها على هذا المسجد ، أما قبة المحراب فقد امتازت كتابتها بأن حروفها مفرغة بدوائر ولعلها الوحيدة بين الكتابات الكوفية .

ومنذ عهد بدر الجمالى ابتدأ ظهور عناصر وتطورات معمارية هامة ، أهمها إحلال الحجر مكان الآجر ، واستعمال العقد المسمى (بالفارسى) والذى ظهر أولاً فى تربة بدر الجمالى حوالى سنة ٤٨٣ هـ ، كما استعمل المقرنص لأول مرة ، وانتشرت الزخرفة فى وجهات المساجد ، وتهذبت المنارة وارتفعت القبة ونقش داخلها وتطورت من بساطتها إلى تضليع ظاهرها .

وأكثر الوزراء بعد بدر من البناء والتشييد ، فقام الأفضل ببناء الكثير من المساجد والجوامع والقصور ، وعمر جزيرة الروضة . أما المأمون فيعتبر أنشط الوزراء وأكثرهم اهتماماً بالعمارة ، فأقام العديد من المساجد والمشاهد والمناظر . واختط طريقة عملية فى إعادة بناء ما تخرب من مصر والقاهرة خلال الشدة العظمى ، فأمر بالنداء فى القاهرة ومصر ثلاثة أيام بأن كل من له دار خربة أو أرض فضاء فعليه أن يعمرها أو يؤجرها لمن يعمرها ، ومن تأخر عن ذلك فلا حق له فيها ، وأباح للناس تعمير كل أرض فضاء سواء الأراضى التى عجز عنها أصحابها أو الأراضى الداخلة فى الديوان السلطانى . ويصف المقريزى أثر ذلك فيقول نقلا عن ابن عبد الظاهر : « وصار البلدان (مصر والقاهرة) لايتخللهما داثر ولا دارس ، وبنى فى الشارع يعنى خارج باب زويلة من الباب الجديد إلى الجبل عرضاً ، وكان الخراب استولى على تلك الأماكن فى زمن المستنصر ووزارة اليازورى حتى إنه كان يبنى حائطاً يستر الخراب عن نظر الخليفة إذا توجه من القاهرة إلى مصر . وبنى حائطا آخر عند جامع ابن طولون . وعمر ذلك حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمستخدمون يصلون العشاء الأخيرة بالقاهرة ويتوجهون إلى مساكنهم فى مصر لايزالون فى ضوء وسرج وسوق موقود إلى باب الصفا ، وذلك أنه يخرج من الباب الجديد الحاكمى على يمينه بركة الفيل إلى بستان سيف الإسلام وعدة بساتين وقبالة جميع ذلك حوانيت مسكونة عامرة بالمتعيشين إلى مصر والمعاش مستمر الليل والنهار » .

ومن أجمل المنشآت المعمارية التى بقيت من عهد المأمون الجامع الأقمر الذى بناه الآمر بإشراف وزيره . ويعد من مفاخر العمارة الفاطمية ويمتاز بأنه من المساجد المعلقة إذ بنى تحته حوانيت وألحق به حوضاً لشرب الدواب ، وواجهته الغربية أول واجهة من الحجر وتشتمل على مقرنصات وعقود مخوصة وتحفل بالنقوش والكتابة الكوفية ، والظاهرة الثانية فى هذا المسجد هى المحراب المقرنس .

أما جامع الصالح طلائع الذى بناه الملك الصالح طلائع بن رزيك ،

فيعتبر الخطوة الأخيرة فى تقدم فن البناء الفاطمى إذ اشتمل على مميزات معمارية لم تتوافر فى أى مسجد فاطمى آخر ، فواجهاته كلها من الحجر، وواجهته الغربية لانظير لها فى جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها . وتدل الزخارف والنقوش فى هذا المسجد على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقى فى ذلك العهد ، كما وأن بابه الرئيسى يعتبر أقدم باب نحاسى بمصر . وبنى الصالح لهذا المسجد صهريجا عظيماً يملؤ فى أيام النيل بواسطة ساقية مبنية على الخليج قرب باب الحزق .

وإلى جانب ذلك اهتم الصالح بعمارة دار عظيمة لسكناه ، حفلت بالنقوش والرسوم مما أطلق لسان عمارة اليمنى بالشعر فى وصفها ووصف نقوشها .

ومن المنشآت الهامة للوزراء الفاطميين ، البرج الذي بناه ضرغام وزير العاضد عند باب البحر فى الإسكندرية ، عرف ببرج ضرغام . وقد كان لهذا البرج دور هام فى الدفاع عن الإسكندرية ضد المغيرين .

الباب الرابع

الوزراء والدولة

الفصل الأول : الوزراء والدعوة الإسماعيلية

الفصل الثانى : الوزراء والسياسة الداخلية

الفصل الثالث : الوزراء والجيش

الفصل الأول

الوزراء والدعوة الإسماعيلية

قامت الدولة الفاطمية مستندة إلى مبدأ خاص وعقيدة معينة تخالف عقيدة الدولة العباسية المنافسة لها ، فكانت خلافة الفاطميين خلافة مذهبية تقوم على الإمامة ، ونتيجة لذلك ظهرت النظم والرسوم التى اختص بها المذهب الإسماعيلى .

واهتم الفاطميون بنشر مذهبهم بواسطة دعاة ينبثون فى مختلف الأرجاء ويعملون على جذب الناس إلى المذهب بالحجة والإقناع ، ولا يصل الداعى إلى هذا المركز الابعد المرور بمراحل كثيرة مختلفة ، ويتميز بميزات خاصة تجعل منه الرجل الذى يمكن الركون إلى مقدرته فى نشر الدعوة واستمالة القلوب إليها ، ويرأس الدعاة نقباء يبلغون اثنى عشر نقيباً ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً داعى الدعاة الذى يعتبر الصلة بين الخليفة وبين معتنقى المذهب ، وكان فقهاء الدولة ودعاتها تحت نفوذه ويتلقون عنه الأوامر ويعرضون عليه ما أعدوه من محاضرات فى أصول المذهب ، وكان داعى الدعاة يعرضها بدوره على الخليفة لكى يقرها ويذيلها بإمضائه ، ثم يعقد المجالس ليقرأ على الناس ما أعده من محاضرات أو ألفه من مصنفات . ولذلك اهتم الخلفاء الفاطميون فى اختيار داعى الدعاة ، إذ على مقدرته يتوقف مدى انتشار مذهبهم ، لذا كان تعيين داعى الدعاة ، فى الفترة الأولى من حكمهم فى يد الخليفة وحده .

ولقد لعب الوزراء الفاطميون دوراً خطيراً فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية كان له أثره الكبير فى تاريخ العقيدة وحياة الدولة نفسها .

وقد حمل ابن كلس العبء الأكبر فى تنظيم ونشر المذهب الإسماعيلى ، فاهتم بالفقة الإسماعيلى وعمل على قيام دراسة منظمة له فى الجامع الأزهر ،

ورتب لذلك جماعة من الفقهاء يتدارسونه بعد صلاة الجمعة وابتنى لهم داراً إلى جانب الأزهر وأجرى عليهم الأرزاق . كما ألف الرسالة الوزيرية فى الفقه الإسماعيلى وكان القضاة يصدرون عنه فى أحكامهم والفقهاء يفتون بما فيه ، وأمر الخليفة الظاهر بأن يرتب مال لكل من يحفظه . كما كان الوزير يجلس بنفسه لقراءة مؤلفاته فى الفقه على الناس فى مجالس يحضرها خاصة الناس وعامتهم .

ويروى ابن ظافر فى مؤلفاته أخبار الدول المنقطعة أنه لما وقع الخلاف بين عضد الدولة بن بويه وبين العزيز جمع عضد الدولة أشراف العراق وسألهم عن نسب الفاطميين فأنكروه « فلما دهم العزيز من ذلك ما دهمه اجتمع هو ووزيره ابن كلس فعملوا نسخة نسب متصل بمحمد بن إسماعيل وأشاعوا الأمر وانتظروا للمناظرة . وكان قصدهم أن يشيع عند العوام فى البلدان نسبتهم » .

وعلى كل فإنه بفضل ابن كلس ونشاطه فى نشر المذهب اتسع نطاق الدعوة الفاطمية حتّى دعى للخليفة على منابر الموصل واليمن وتضاءل سلطان العباسيين الروحى والسياسى وانكمشت دعوتهم فى حدود ضيقة .

وإذا كان هذا مجهود ابن كلس لنشر الدعوة ، فقد جاء بعده بقليل وزير كان على وشك القضاء على المذهب والخلافة الفاطمية ، هو أبو محمد الحسن بن عمار الذى استبد بالدولة منتهزاً صغر سن الحاكم حتّى لقد هم بقتله . ويذكر ابن القلانسى أن الذى حماه على التفكير فى قتل الحاكم شيوخ أصحابه « وقالوا لاحاجة لنا إلى إمام نقيمه ونتعبد له . فحمله صغر سنه والاستهانة بأمره على إقلال الفكر فيه وإن قال لمن أشار عليه بقتله ، وما قدر هذه الوزغة حتّى يكون منها مانخاف » . ولعله من الغريب أن هؤلاء المغاربة الذين قامت الدعوة والدولة على أكتافهم فى المغرب هم أنفسهم الذين كانوا على وشك القضاء عليها فى المشرق . ويبدو أن الذى دفعهم إلى ذلك ما وجدوه من انصراف الدولة إلى الاستعانة بالمشارقة والأتراك متباعدين عنهم .

وقد استطاع برجوان إنقاذ الحاكم وإقصاء ابن عمار . ويذكر ابن الأثير

أن برجوان أظهر الحاكم وأجلسه وجدد البيعة له . ولا ندرى مايقصده ابن الأثير بتجديد البيعة وهل أقدم ابن عمار على عزل الحاكم فعلا . ولكن الحاكم سرعان ماقتل برجوان واسترد سلطانه الروحى والسياسى ، فاستعادت الخلافة والدعوة هيبتهما .

وفى عهد المستنصر حدث تطور جديد إذ أضيفت الدعوة إلى الوزارة وجمعهما لأول مرة الوزير اليازورى ، فأصبح الدعاة تابعين له . واتبع هذا التقليد فيما بعد إذ جمع كثير من الوزراء رئاسة الدعوة مع الوزارة إلا أن ذلك لم يكن له أى تأثير نحو انتشار الدعوة ، بل على العكس كانت الفترة التى تلت عزل اليازورى من أحلك الفترات التى مرت بالدولة . وكان لوقوع المستنصر تحت نفوذ أمه وحاشية أكبر الأثر فى اضطراب الدعوة وضعف الدعاة والحيلولة بينهم ومقابلة الخليفة ، حتى إن المؤيد فى الدين — ذلك الرجل الذى خدم الدعوة والدولة كما لم يخدمها أحد وأيدها ببلاغته ومنطقه — عندما جاء مصر سنة ٤٣٦ هـ لم يتمكن من مقابلة المستنصر إلا بعد جهد وإلحاح ، وقد دفعه اليأس والغضب إلى مجابهة التسترى الذى كان مسيطراً على الخليفة وأمه بهذه الحقيقة وأنه ماجاء إلا لرؤية إمام الزمان ولكنه وجده محجوراً عليه وهدد بالعودة من حيث أتى . ويذكر المؤيد أنه كان يكتب لليازورى المحاضرات التى كان يلقيها فى الأندية ، وأنه كان عاطلا من المؤهلات والمواهب الواجب توافرها فى داعى الدعاة .

هذا وإن استطاع اليازورى أن ينشر الدعوة الفاطمية فى اليمن ، فيذكر ابن حجر أن اليازورى راسل الصليحى لما ثار باليمن فأقام الدعوة الفاطمية باليمن وأهدى المستنصر ماقيمته عشرة آلاف دينار ، ولم يكن لهم عهد بمثل ذلك » .

وقد ظل المؤيد فى الدين — ذلك الرجل الذى كان من الممكن لو ولى وظيفة داعى الدعاة أن يصل بالدعوة الفاطمية إلى أوسع مدى — يحاول منذ سنة ٤٣٦ هـ الوصول إلى هذا المنصب ، ولكنه لم ينجح إلا فى سنة ٤٥٠ هـ . وإن لم يمكث فيه إلا قليلا ثم أضيفت الدعوة إلى الوزارة مرة أخرى سنة ٤٥٣ هـ ووليها عبد الكريم بن عبد الحاكم ، كما وليها غيره من الوزراء بعد ذلك ، مثل أبو على أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد سنة ٤٥٤ هـ وأبو أحمد أحمد بن الكريم

ابن عبد الحاكم سنة ٤٥٥ هـ وابن كدينة سنة ٤٥٥ هـ أيضاً . ولكن هؤلاء الوزراء لم يكن لهم من الأمر شيء إذ كانت البلاد فى يد طوائف الجند المتنازعة واضطربت الأحوال سياسية كانت أم مذهبية . وأصبح الخليفة حبيس قصره عرضة لإهانات القواد ، حتى فكر البعض فى القضاء على الدولة والمذهب ، وإحياء المذهب السنى ، إذ أرسل ناصر الدولة بن حمدان ، الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد بن البخارى رسولا إلى السلطان ألب أرسلان يسأله أن يسير عسكراً من قبله ليقيم الدعوة العباسية وتكون مصر له ، فتجهز ألب أرسلان لذلك وفتح حلب . وبينما هو يهم بالحضور إلى مصر بلغه خروج الروم لمحاربته فرجع إلى بلاده . وقد قطع ابن حمدان الخطبة للمستنصر بالوجه البحرى وخطب للخليفة العباسى .

وقد أعاد وصول بدر الجمالى وقضاؤه على الفتنة الاستقرار السياسى إلى البلاد ، ولكن كان لذلك أثره البعيد فى الدعوة الإسماعيلية ، فقد أصبح الوزراء منذ بدر المشرفين على الدعاة وبذلك سيطروا سيطرة تامة على شئون المذهب فكان من ألقابهم « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » — وحمل هذا اللقب كل وزير بعد ذلك حتى ولو لم يكن إسماعيلياً . وأصبح انتشار المذهب وقوته أو إهماله وضعفه رهناً بما يراه الوزير ، وإذا علمنا أن معظم الوزراء كانوا إما من الشيعة الإمامية أو من السنة ، أدركنا أثر ذلك فى ضعف المذهب الإسماعيلى مما مهد السبيل لسقوط الدولة .

وقد استطاع بدر إعادة الهيبة إلى المذهب الشيعى بعد أن صار الناس لا يحفلون به أو بشعائره ، نتيجة ضعف الخليفة ووزرائه ، فأمر بعودة الأذان الشيعى والتكبير على الجنائز ونظم دروساً فى المذهب . إلا أن بدراً ارتكب خطأ كانت له نتائجه البعيدة فيما بعد ، وذلك عداؤه للحسن بن الصباح الذى وصل مصر سنة ٤٧١ هـ والذى يعد من أكبر دعاة المذهب ، وقد ضاق بدر بوجود الحسن وأخذ يضيق عليه حتى اضطر إلى ترك البلاد عائداً إلى بلاد العجم ولم ينس الحسن لبدر ذلك ، فما إن مات المستنصر وأقام الأفضل بن بدر الذى

ولى الوزارة ، المستعلى خليفة بعد أبيه ، حتى حمل الحسن لواء المعارضة منادياً بأن الإمامة حق لنزار بن المستنصر وبذلك ظهر أول انشقاق خطير فى المذهب الإسماعيلى .

ولقد استطاع الأفضل بنفوذه وسلطانه أن يضم إلى جانبه رجال الدولة وينجح فى تولية المستعلى الخلافة لأنه صغير السن يمكن السيطرة عليه ولأنه زوج أخته . وساعد الأفضل على ذلك أن الناس ضعفت ثقتها فى النص وفى الخلافة نفسها نتيجة لثورات الجند والأزمات الاقتصادية والسياسية التى تعرضت لها البلاد . وهرب نزار إلى الإسكندرية حيث انضم إليه واليها ناصر الدولة أفتكين ، وبايع أهل الإسكندرية نزاراً وتلقب بالمصطفى لدين الله .

ولقد استطاع الأفضل أن يقضى على قوة نزار بعد عدة محاولات ، وقبض عليه وعلى والى الإسكندرية حيث كان آخر عهد الناس بهما . ولكن القضاء على نزار وحركته لم ينه المشكلة إذ كان الحسن بن الصباح فى فارس يراقب تطور الأحداث . فلما مات المستنصر أعلن الحسن أن الإمام هو نزار وأن المستنصر نص عليه ، وقاد حركة المقاومة ضد المستعلى ، وبذلك انقسم المذهب الإسماعيلى إلى فرقتين متعاديتين هما المستعلية والنزارية . وكان للعداء الشديد بين الفرقتين أثره الخطير فى حياة الدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية بل تاريخ الإسلام عامة . وبدلا من أن تتوحد الدعوة حتى يتيسر لها البقاء انقسمت على نفسها ، وشغلت الدولة بالقضاء على القلاقل والمؤامرات التى أثارها أتباع النزارية ، لذلك عجزت عن الاحتفاظ بما بقى لها من نفوذ على بلاد الشام ،

لم يكتف الأفضل بذلك بل أذن للناس فى إظهار عقائدهم . وأبطل الاحتفال بموالد : النبى والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب والخليفة القائم بالأمر ، وأدى عمله هذا إلى إضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد وتأكيد انتسابهم إلى على بن أبى طالب ، ولذلك مقته الفاطميون ، ويقول البعض إنهم هم الذين دبروا مقتله .

وقد قام المأمون بن البطائحى بمجهود جبار فى محاربة النزارية ، فانتشرت

جواسيسه فى كل مكان لمراقبة رسل ابن الصباح الوافدين لإشاعة القتل والتخريب فى البلاد . وقد استطاع مراقبة كل الوافدين قبل دخولهم حدود البلاد ابتداء من عسقلان . بل امتدت مراقبته إلى داخل البيوت حتى « كان الباطنى إذا خرج من ألموت لاتزال أخباره تصل إلى المأمون متعاقبة حتى يصل بلبيس فيمسك بها ويحمل إليه فيقتله » . كما رتب مجلساً حضره الخليفة وأعلنت فيه أخت نزار ما سمعته من والدتها وشاهدته من صحة إمامة المستعلى . وأن نزاراً ما خرج إلى الإسكندرية إلا ليعمل على زوال أمر الأفضل . وأمر المأمون ابن الصيرفى بإنشاء سجل يقرأ على منبر مصر بذلك . كما كتب لابن صباح كتاباً طويلا يدعوه فيه إلى الحق ويرجعه عن القول بإمامة نزار .

ولكن عندما قبض الآمر على وزيره المأمون سنة ٥١٩ هـ . اختلف المؤرخون فى سبب القبض عليه . فيذكر ابن ميسر أنه بعث إلى الأمير جعفر أخى الخليفة يغريه بقتل أخيه ليقيمه مكانه فى الخلافة . وأنه سير نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن وأمره أن يضرب السكة ويكتب عليها الإمام المختار محمد ابن نزار ويذكر المقريزي رأياً يقول إن الخليفة اطلع على أن المأمون ادعى الخلافة وأنه من ولد نزار من جارية خرجت من القصر وهى حامل عندما خرج نزار إلى الإسكندرية . وأنه سير إلى اليمن الموفق فى الدين على بن نجيب الدولة ليحقق لغلبة هناك ويدعو الناس إلى بيعته .

وفى ١٦ من ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ حدثت أخطر حركة استهدفت القضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الإسماعيلى . فعندما مات الآمر وتولى الحافظ الأمر على أنه كفيل لطفل منتظر ، استولى على الوزارة ، بقوة الجيش أبو على أحمد بن الأفضل . الذى بادر إلى القبض على الحافظ وسجنه .وأخذ يفتش على الحمل المنتظر بين جهات الآمر ليقتله فلم يعثر عليه ، ثم عمل على إلغاء الشعائر الإسماعيلية من الخطبة والأذان . فأسقط اسم إسماعيل واسم الخليفة . وأظهر المذهب الإمامى . ودعا للقائم المنتظر . ويقول المقريزى إن أبا على كان إماميًّا متشدداً فالتفت عليه الإمامية ولعبوا به حتى أظهر المذهب

الإمامى وتزايد الأمر فيه . وحسنوا له الدعوة للقائم المنتظر . فضرب النقود باسمه ونقش عليها « الله الصمد الإمام محمد » . واشتد ضرره على أهل القصر من الإرعاد والإبراق وأكثر من إزعاجهم والتفتيش على ولد الآمر . وعلى يانسى صاحب الباب وعلى صبيان الخاص الآمرية . وأراد أن يخلع الحافظ ويقتله بمن قتله الآمر من إخوته ، كما أراد بتفتيشه على الحمل الذى ذكر أنه من الآمر أن يظفر به ليقتله بإخوته . فلم يظهر الحمل ولاقدر أيضاً على قتل الحافظ ولا خلعه ، فاعتقله وخطب للقائم المنتظر تمويهاً . فنفرت قلوب أهل الدولة عنه وقامت نفوسهم منه ، وقد اختار أبو على لنفسه دعاء يدعو به على المنبر وهو « السيد الأجل الأفضل مالك أصحاب الدول والمحامى عن حوذة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره . والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره أمين الله على عباده وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده . ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده ، مولى النعم ورافع الجور عن الأمم مالك فضيلتى السيف والقلم أبو على . . ورتب فى الحكم أربع قضاة للشافعية والمالكية والإسماعيلية والإمامية ، كل قاض يحكم ويورث بمذهبه ، يقول ابن ميسر : ولم يسمح بهذا قط فيما سلف » .

ولكن بعض صبيان الخاص وعلى رأسهم يانسى صاحب الباب . رتبوا أمرهم وأخذوا يتحينون الفرص حتى استطاعوا قتل أبى على فى سادس عشر من المحرم سنة ٥٢٦ هـ أى بعد سنة وأيام من قيامه بانقلابه . وتعتبر هذه السنة فترة انقطاع للدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية ، وقيام دولة شيعية إمامية .

وعاد الحافظ إلى الخلافة ككفيل مرة أخرى واعتبر ذلك اليوم عيداً للفاطميين سمى عيد النصر رمزاً لانتصار الدولة مرة أخرى . وفى الثالث من ربيع الأول من هذه السنة (سنة ٥٢٦ هـ) استطاع الحافظ بمعاونة الوزير يانسى أن تكون له الإمامة خالصة وأن يبايع على أنه الخليفة وإمام الزمان . وهنا يحدث انشقاق آخر فى الفرقة المستعلية ، إذ تذكر بعض المراجع التاريخية أنه كان

للآمر ولد يسمى الطيب . وكما انقسمت الإسماعيلية إلى نزارية ومستعلية ، انقسمت المستعلية إلى فرقتين ، فرقة ترى صحة إمامة الحافظ تعرف بالحافظية وفرقة أخرى ترى أن الحافظ اغتصب الخلافة من الطيب ولد الآمر وعرفت هذه الفرقة بالطيبية . وكان لهذا الانقسام الثانى أثره الخطير فى الدولة الفاطمية . كما خرجت بلاد اليمن عن طاعة الحافظ لأن المملكة الحرة الصليحية كانت قد تلقت من الآمر كتاباً يبشرها فيه بمولد ابنه وولى عهده الطيب ، فاتهمت الحافظ باغتصاب الخلافة ولم تعترف بشرعية حكمه ، وانتشرت الشيعة الطيبية فى اليمن والهند .

وكان من نتيجة هذه الهزات أن انصرف الناس عن المذهب وضعفت ثقتهم فيه وخاصة بين رجال الدولة ، فنرى رضوان بن الولخشى وزير الحافظ والسنى المذهب يقدح علناً وأمام رجال القصر وخواص الخليفة فى مذهب الخليفة بل هَمّ بخلعه بحجة أنه ليس بخليفة ولا إمام وإنما هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يصح ، وأحضر فقيه الزمان أبا الطاهر بن عوف وداعى الدعاة ابن أبى كامل وفاوضهما فى خلع الحافظ واستخلاف شخص عينه لهم ، بل وصل الأمر إلى أن أهل بيت الخليفة نفسه لم يعودوا يحفلون بالنص إذ هرب ابن للحافظ إلى رضوان ومعه ابن له ليقيمه خليفة . ولولا أن الحافظ أخذ يدبر حتى استطاع التخلص من رضوان لنجح الأخير فيما أراد .

ولم يكن الوزراء بعد رضوان أقل استهانة منه بالخلافة والخلفاء وعملاً على تقويض المذهب الإسماعيلى ، فابن السلار وهو سنى المذهب أيضا ينشئ فى سنة ٥٤٦ هـ مدرسة للشافعية فى الإسكندرية تحت إشراف الفقيه الكبير الحافظ السلفى . وأورد ابن فضل الله العمرى ، أن الوزير عباس « جلس للمنادمة فلما أخذت الكأس منه قال تباً لمن يعتقد إمامة هؤلاء ويقول إنه لا يكون إمام إلا بوصية ، والله لقد قتلت الظافر ولا علم عنده بذلك حتى يوصى ، ولقد استعرضت أقاربه كالغنم إهانة وذبحاً وقدمت هذا الملقب بالفائز وعمره خمس سنين ، وعلى يدينا ذهبت دولتهم بالمغرب وكذلك تذهب بالمشرق » .

وإذا كان الظافر لم يوص بتولية الفائز بل ولاه «عباس» ، فإن الفائز بدوره لم يوص بتولية العاضد إنما كان ذلك بتدبير من الوزير الصالح طلائع بن رزيك؛ فعندما مات الفائز طلب الصالح من زمام القصر أن يعرفه بمن يصلح للخلافة فذكر له اسم أكبر الأمراء سناً فكاد أن يوليه لولا أن أحد رجال حاشيته ويدعى على بن الزبير حرضه على أن يفعل مثل مافعل الوزير عباس من قبل وهو اختيار أحد صغار السن من الأمراء حتى يمكن السيطرة عليه . فمال الوزير إلى رأيه واختار أمير صغير السن هو عبد الله بن يوسف بن الحافظ وألبسه ثياب الخلافة وبايعه ونعته بالعاضد لدين الله . ويستطرد المقريزى قائلاً: « إن طلائع كان من غلاة الإمامية مخالفاً لما عليه مذهب العاضد وأهل الدولة فلما بويع العاضد وركب طلائع من القصر سمع ضجة عظيمة ، فقال ما الخبر . فقيل بأنهم يفرحون بالخليفة . فقال كأنى بهؤلاء الجهلة يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أننى كنت من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم » .

يتبين لنا بوضوح مدى تدخل الوزراء خصوصاً فى النصف الثانى فى شئون المذهب وعدم التمسك بنصوصه فأهملوا النص فى الإمامة ولم يراعوا التعاليم الإسماعيلية فى تولية الخلفاء ، بل أصبح اختيار الخليفة فى يد الوزير . وعمل بعضهم على إحياء المذهب السنى وحاول البعض الآخر إحلال المذهب الإمامى و إضعاف المذهب الإسماعيلى و بذلك ضعفت الدعوة الفاطمية وانصرف عنها الناس فأصابها الوهن والانحلال وزال سلطان الفاطميين من كثير من البلاد كالعراق والشام والمغرب ولم يبق لهم سوى بعض النفوذ الروحى فى الحجاز واليمن ولم تكن حالة الدعوة فى مصر بأحسن منها فى غيرها إذ أخذ المذهب فى الاضمحلال حتى استطاع صلاح الدين القضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الإسماعيلى دون أية معارضة . سوى ما قام به بعض المتآمرين من أنصار الفاطميين ودعاتهم . ولم يكن الدافع لهم فى ذلك حب المذهب بل حب السلطان الذى فقدوه كمالم يكن كلهم من الإسماعيلية بل كان منهم سنى المذهب مثل عمارة اليمنى .

وهكذا انتهت حياة الدولة التى ظلت قرنين من الزمان ، وامتد نفوذها فى بعض الأحيان من أقصى الغرب حتى بغداد نفسها بهدوء أو كما يقول ابن الأثير : « لم ينتطح فيه عنزان » .

الفصل الثانى

الوزراء والسياسة الداخلية

يعزى كثير من الإصلاحات الداخلية واستقرار حالة البلاد ، كما يعزى أيضاً كثير مما صادفته من فوضى واضطراب ، إلى سياسة الوزراء وطريقة تصريفهم للأمور. وفى الحق أن الوزراء لعبوا دوراً كبيراً فى الحياة الاقتصادية لمصر وحالة الأمن بها ، سواء كان لهذا الدور أثره الطيب أو السيئ .

ولقد وضع ابن كلس كثيراً من الأسس التى سارت عليها الدولة فى سياستها الداخلية خصوصاً فى النواحى الاقتصادية التى كان خبيراً بها منذ أن دخل فى خدمة كافور الإخشيدى . فكان على ما يذكر المؤرخون عليماً بأحوال الريف وارتفاع القرى وغلاتها وسائر أحوالها الظاهرة والباطنة. فكان لا يسأل عن شىء من أمورها إلا أخبر به عن صحة ، كذلك عهد إليه المعز لدين الله الفاطمى بالخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين وجميع ما يضاف إلى ذلك وما يطرأ فى مصر وسائر الأعمال. فلا غرو إذ أنه استطاع عندما أصبح وزيراً أن ينظم الدواوين وينقلها إلى بيته ليشرف عليها بنفسه. وجعل على كل ديوان منها رئيساً مسئولا تحت يديه الكتبة والموظفون. وكان بفضل سياسة هذا الوزير وحسن إدارته أن نعمت البلاد بفترة طويلة من الهدوء وامتلاء بيت المال بالثروة حتى إن خراج مصر وصل فى عهده إلى أربعة ملايين دينار. إلا أن البلاد مرت مع ذلك بفترة من الغلاء والمجاعة نتيجة لانخفاض النيل واقترن ذلك بوباء عظيم سنة ٣٧٣هـ وهى السنة التى قبض فيها العزيز على وزيره. ويبدو أن الخليفة افتقد نصائح ابن كلس وحسن سياسته للأمور فأطلقه وأعاده إلى مركزه مكرماً . وزاد نفوذ ابن كلس

حتى استولى على أمر العزيز وعظمت منزلته عنده وأقبلت عليه الدنيا وانثال الناس عليه ولازموا بابه . ومهد قواعد الدولة وساس أمرها أحسن سياسة . وانتشرت السكينة والأمن . وبلغ الرخاء فى عهده أن شغف الخليفة والوزير باقتناء التحف والأحجار الكريمة وجمع الأموال . وابتدع الخليفة نوعاً من العمائم محلاة بخيوط الذهب ، وسروجاً معطرة بالعنبر وغير ذلك من مظاهر الأبهة التى جعلت مصر فى عهده مضرب الأمثال[١] .

وعين العزيز بعد ابن كلس وسطاء كان عملهم فى المقام الأول تدبير الأموال من أكفئهم عيسى بن نسطورس الذى ضبط الأمور وجمع الأموال ووفر كثيراً من الخراج ، واستطاع أن يحوز بذلك رضى العزيز .

وعندما وزر ابن عمار للحاكم اتجهت سياسته إلى محاولة إضعاف القصر واستعادة نفوذ كتامة التى بدأت تفقد مكانتها فى عهد العزيز . وقد حكم ابن عمار فى فترة الأحد عشر شهراً التى ظل فيها فى الوزارة ، حكماً مطلقاً فأخذ يبيع ما فى اصطبلات الخليفة « من الخيل والبغال والنجب وغيرها وكانت شيئاً كثيراً » . وقطع أكثر الرسوم التى كانت تطلق لأولياء الدولة من الأتراك ، وقطع أكثر ما فى المطابخ وفرق كثيراً من جوارى القصر ، وكان به من الجوارى والخدم عشرة آلاف جارية وخادم فباع من اختار البيع وأعتق من سأل العتق ووهب من الجوار لمن أحب وآثر . كما أسقط المكوس التى فرضها عيسى بن نسطورس .

ولم يكن لوزراء الحاكم بعد ذلك كبير أثر فى أى ناحية من نواحى الحكم نظراً لاستبداد الحاكم ، كما أن وزراء الظاهر الذين وزروا قبل الجرجرائى لم يكن لهم هذا الأثر أيضاً نتيجة انصراف الخليفة للهو وسيطرة نفر من الرجال هم الشريف العجمى والجرجرائى وابن بدوس صاحب بيت المال والقائد معضاد على الأمور دون غيرهم من كبار المسئولين بما فيهم الوزراء . ونتيجة لذلك ساءت الحالة الداخلية ولم يستطع الوزراء عمل شىء ، فتفشى الغلاء فى سنة ٤١٥ هـ واضطرب الأمن حتى لم يحج أحد فى هذه السنة فى مصر ، وبلغ بالناس الجوع أنه فى عيد النحر مد سماط العيد فى القصر فهجم عليه عبيد القصر ونهبوا جميع

ما فيه . كما تجمع العبيد والنهابة لمهاجمة مصر فأخذ أهلها فى الدفاع عن أنفسهم وأغلق الناس دورهم وحفروا دونها الخنادق . وبلغ من مات فى آخر رمضان إلى أيام من ذى القعدة ممن يعرف لهم أهل مائة وسبعين ألفاً خلاف من لم يعرف له أهل أو ألقى فى النيل فكانوا أضعاف هذا العدد .

وقد تمكن اليازورى أن يدير دفة البلاد بمهارة وأن يجتاز بها الأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها وبرغم المجاعات التى توالت أكثر من مرة ، وإن اتهمه البعض بأنه كان من أسبابها . إذ أن العادة جرت أن يبتاع للخليفة غلة بمائة ألف دينار تجعل متجراً . فأشار اليازورى أن يقام بدل الغلال متجراً لأصناف لا تتلف وريحها أكثر مثل الصابون والرصاص والحديد وغيره. ويرى بعض المؤرخين أن هذا الإجراء زاد فى خطورة المجاعات التى تعرضت لها البلاد . إذ كانت هذه الغلال تعتبر كاحتياطى لوقت الحاجة ولكن اليازورى فى الحقيقة كان يقصد بهذا الإجراء عدم احتكار الأقوات. وإن راعى فيه أيضاً صالح الخليفة . على أنه مما يدل على حسن الرأى ما اتخذه الوزير من إجراءات لمعالجة غلاء سنة ٤٤٦ هـ. فقد قصر مد النيل فى هذه السنة ولم يكن فى المخازن السلطانية إلا ما يكفى حاجة القصور وارتفع السعر حتى صار تليس القمح بثمانية دنانير واشتد الأمر على الناس ، وكان التجار قد انتهزوا فرصة إعسار الزراع وعدم قدرتهم على دفع الخراج فاشتروا منهم محصول القمح قبل أن ينضج بسعر بخس وحملوه بعد حصاده إلى مخازنهم فأمر الوزير بمصادرة هذه الغلال وعوض التجار عن كل دينار دفعوه ثمن دينار ، ولما جمعت الغلال فى المخازن السلطانية حدد ثمن التليس بثلاثة دنانير بعد أن كان ثمانية ؛ ثم قرر أن توزع على الخبازين فى مصر والقاهرة ما يكفى حاجة الاستهلاك اليومى من هذه الغلال فتقرر لمصر سبعمائة تليس وللقاهرة ثلثمائة ، واستطاع بذلك أن يدير الأمر مدة عشرين شهراً حتى أدركته الغلة الجديدة وأن يجتاز المحنة بسلام . وقد بلغ الخراج فى عهده مليونين من الدنانير ، وهو مبلغ يقل كثيراً عما كان فى وزارة ابن كلس وخلافة الحاكم . ولعل السبب الذى أدى إلى تدهور الخراج وانحطاطه ، حتى

إنه عند وفاة الظاهر لم يجد الوزير الجرجرائى فى خزينة الدولة ما يفى بأرزاق الجند ، هو سياسة الحاكم وطغيانه مما أصاب البلاد بالشلل ، ثم انغماس الظاهر فى اللهو وتركه أمور الدولة لغيره ، ثم تدخل أم المستنصر ومن حولها من الانتهازيين فى شئون الحكم . وعلى أية حال فقد اعتبر هذا الخراج شيئاً يستحق الرضى والثناء ، إذ يذكر المؤرخون أن اليازورى عندما حمل الخراج إلى بيت المال « حظى بذلك عند سلطانه وتمكن منه وارتفع قدره حتى سأل أن يكتب على السكة » .

ودخلت البلاد بعد اليازورى فى دور الفوضى وقيام المجاعات التى طحنت البلاد سبع سنين وصلت فيها إلى درجة من البؤس والفاقة جعلت المؤرخين يرسمون لها صوراً مفزعة وعرفت فى التاريخ بالشدة العظمى . وتولى وزراء ضعاف ليس فى أيديهم أى سلطان وإن كان لبعضهم أثر فيما وصلت إليه البلاد من خراب ، فيذكر ابن ميسر أن أم المستنصر أمرت الوزير البابلى الذى جاء بعد اليازورى بالإيقاع بين العبيد والأتراك « فأخذ فى أسباب ما أمرته فتغيرت نياتهم وصار فى قلب كل طائفة من الأخرى إحن ، فكانت بدء الخراب » .

فلما جاء بدر الجمالى كان عليه مهمة شاقة هى إعادة تنظيم الدولة وإنقاذ اقتصاديات البلاد ، فبعد القضاء على أسباب الفساد اهتم بالنواحى المالية فأطلق الخراج للمزارعين ثلاث سنين ثم جبى نصف الخراج فى السنة الرابعة ، وعمر الريف وأصلح الترع والجسور حتى صلحت الأحوال واستغنى أهل الريف وشعر الفلاحون بالأمن والرخاء ، ولتنظيم الرقابة أعاد تقسيم البلاد إدارياً إلى واحد وعشرين عملا وقسم الأعمال إلى نواح ، والنواحى إلى كفور وقرى .

كما شجع أصحاب رءوس الأموال وذوى اليسار بالحضور إلى مصر ، فكثر ورود التجار فى أيامه بعد نزوحهم عنها وخروجهم أيام الغلاء وأخذت القوافل ترد من كل مكان .

وكان لهذه السياسة الحازمة المصلحة أثر فى عودة الرخاء إلى البلاد فتراجعت الأسعار حتى بيع تليس القمح بربع دينار وتحسنت ميزانية البلاد حتى أصبحت فى عهده ثلاثة ملايين ومائة ألف دينار فى سنة ٤٨٣ هـ .

ومات بدر وقد ترك دولة استقرت الأمور فيها وصلحت أحوالها. وخلفه فى الوزارة ابنه الأفضل الذى سار على نهج أبيه وسيطر على الدولة سيطرة تامة ، واستطاع فى فترة حكمه الطويل أن ينشر الرخاء والأمن والاستقرار فى طول البلاد وعرضها . وقد بلغ من اهتمام الأفضل بعمارة الأرض أنه أمر فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧/١١٠٨م) بحل جميع الإقطاعات عندما شكا أصحاب الإقطاعات الصغيرة من الأجناد من قلة دخل إقطاعاتهم بالنسبة لإقطاعات الأمراء ثم راك[١] البلاد وأعاد توزيع الإقطاعات على المتزايدين من الأجناد والأمراء . وفى ذلك يقول المقريزى ، نقلا عن ابن المأمون : «إن المأمون لما رأى من اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين وتضررهم من كون إقطاعاتهم قد خس ارتفاعها وساءت أحوالهم لقلة المتحصل منها ، وإن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عن غيرها ، وإن فى كل ناحية من الفواضل للديوان جملة تجىء بالعسف ويتردد الرسل من الديوان الشريف بسببها ، فخاطب الأفضل بن أمير الجيوش فى أن يحل الإقطاعات جميعها ويردها كلها ، وعرفه أن المصلحة فى ذلك تعود على المقطعين والديوان ؛ لأن الديوان يتحصل له من هذه الفواضل جملة يحصل بها بلاد مقررة ، فأجاب إلى ذلك وحل جميع الإقطاعات وراكها . وأخذ كل من الأقوياء والمتميزين يتضررون ويذكرون أن لهم بساتين وأملاكاً ومعاصر فى نواحيهم ، فقال له كل من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الإقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره . فلما حلت الإقطاعات أمر الضعفاء من الأجناد أن يتزايدوا فيها فوقعت الزيادة فى إقطاعيات الأقوياء إلى أن انتهت إلى مبلغ معلوم ، وكتبت السجلات بأنها باقية فى أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد ؛ وأحضر الأقوياء وقال لهم ما تكرهون من الإقطاعات التى كانت بيد الأجناد . قالوا كثرة غيرها وقلة متحصلها وخرابها وقلة الساكن بها . فقال لهم ابذلوا فى كل ناحية ما تحمله وتقوى رغبتكم فيه ولا تنظروا فى العبرة

---

(١) الروك : يقصد بها مسح الأرض وتقدير خراجها .
انظر ما ذكرته عن الروك فى كتابى « نهر النيل فى المكتبة العربية » طبع سنة ١٩٦٦ ص ١٨٣ وما بعدها .

الأولى . فعند ذلك طابت نفوسهم وتزايدوا فيها إلى أن بلغت إلى الحد الذى رغب كل منهم فيه فاقطعوا به . وكتب لهم السجلات على الحكم المتقدم . فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم . وحصل للديوان بلاده مقررة بما كان مفرقاً فى الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار » . وبذلك طابت نفوس الجميع وأقبلوا على زراعة الأرض . ونلاحظ فى هذا المنشور تطورات اقتصادية هامة أولها زيادة مدة الضمان من أربع سنوات إلى ثلاثين سنة وقد يكون الغرض من ذلك أن يكون للاستقرار الذى يشعر به المقطع ولديه هذه المدة الطويلة حافز على أن يولى كل عنايته لإقطاعه . وثانيها أن أغلب المقطعين أصبحوا من الأمراء والأجناد والموظفين ذوى المرتبات الثابتة نظراً لقدرتهم على التزايد فى حين أن أفراد الشعب والفلاحين لم يعودوا على ما يبدو قادرين على الدخول فى هذه المزايدات ، وذلك لما تعرضوا له من هزات اقتصادية أثناء الشدة العظمى فى أواخر أيام المستنصر . وثالث هذه التطورات أن إعطاء الإقطاعات الفقيرة التى كانت فى يد الأجناد للأمراء القادرين من عوامل إصلاحها لما لدى أصحابها الجدد من القدرة المادية على الإصلاح. كما نلاحظ أيضاً أن الأملاك الخاصة للمقطعين فى إقطاعاتهم القديمة لم تمس بل ترك لكل واحد منهم الحرية فى التصرف فيها كيف يشاء .

ولما بلغ الأفضل أن بعض أصحاب الأملاك بالصعيد الأعلى قد استضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين أراض اغتصبوها ومواضع مجاورة لأملاكهم تعدوا عليها وخلطوها بها أمر بإصدار منشور «بإقرار جميع الأملاك والأراضين والسواقى بأيدى أربابها الآن من غير انتزاع شىء منها ولا ارتجاعه ، وأن يقرر عليها من الخراج ما يجب تقريره ويشهد على أمثالهم بمثله إحساناً إليهم. . . وقد أنعمنا وتجاوزنا عما سلف ونهينا من يستأنف وسامحنا من خرج عن التعدى إلى المألوف وجرينا على سنننا فى العفو والمعروف وجعلناها توبة مقبولة من الجماعة الجانين ومن عاد من الكافة أجمعين فلينتقم الله منه وطولب بمستأنفه وأمسه وبرئت الذمة من ماله ونفسه وتضاعفت عليه الغرامة والعقوبة . وقد فسحنا مع ذلك لكل من يرغب فى عمارة أرض حلفاء دائرة وإدارة بئر مهجورة معطلة فى أن يسلم إليه ذلك

ويقاس عليه ولا يؤخذ منه خراج إلا فى السنة الرابعة من تسليمه إياه. وأن يكون المقرر على كل فدان ما توجبه زراعته لمثله خراجاً مؤبداً وأمراً مؤكداً». فالأفضل عندما علم بأن بعض الملاك قد اغتصبوا أملاكاً من أملاك الدولة وضموها إلى أملاكهم أمر بإقرار هذه الأراضى بأيدى واضعى اليد عليها مع تقرير الخراج الواجب عليها كما أمر بمعاقبة من يلجأ بعد ذلك إلى مثل هذا العمل ؛ إلا أنه تشجيعاً لاستصلاح الأراضى البور وزراعة الأراضى المهملة أمر بأن يعفى كل مستصلح لأرض من الخراج الواجب عليها ولمدة ثلاث سنوات ويؤخذ فى السنة الرابعة، يقول المقريزى . « ولما سرت هذه المصالح إلى جميع أهل هذه الأعمال حصل الاجتهاد فى تحصيل مال الديوان وعمارة البلاد » .

إلى جانب ذلك وجه الأفضل عنايته للرى . ففى عهده جدد حفر خليج أمير المؤمنين سنة ٥٠٢ هـ . وجعل حفره بأبقار البساتين التى عليه وأقام عليه والياً بمفرده ومنع الناس من أن يطرحوا فيه شيئاً . كما أمر بحفر الخليج الذى عرف بخليج أبى المنجا . وقد حفره الأفضل بناء على نصيحة أبى المنجا بن شعيا اليهودى الذى كان مشرفاً على البلاد الشرقية التابعة لديوان الخلافة . وذلك لأن الماء لم يكن يصل لهذه الجهات إلا من خليج السردوس وغيره من الأماكن البعيدة . وابتدأ الحفر فيه يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ٥٠٦ هـ وتم فى سنتين ؛ ويقال إن الأفضل ركب فى النيل مع حاشيته بعد أن رمى فيه حزمة من البوص وأخذ يتتبعها حتى رماها الماء فى المكان الذى ابتدأ الحفر منه. وكان هذا الخليج سبباً فى ازدهار هذه البلاد التى يرويها . وقد غلب على الخليج اسم أبى المنجا برغم محاولة الأفضل تسميته باسمه .

وبلغ التقدم الزراعى فى عهده أن عمرت الأرض كلها حتى إن الأفضل استجلب إردبين من نوع جديد من القمح وأراد تجربتهما فى الزراعة فأرسل أحدهما إلى والى الصعيد والآخر إلى والى الدلتا . فجاءه جواب أحدهما أن الأرض كلها مزروعة وليس هناك مكان لبذر هذا القمح . فى حين ذكر الثانى أنه بذر الأردب فعرف اهتمام الأول بالزراعة حتى لم يجد مكاناً غير مزروع يمكن

زراعة هذا القمح فيه ، فى حين أهمل الثانى حتى بقيت هناك أرض معطلة زرع فيه هذا الإردب ، فكافأ الأول وعاقب الثانى. كما يذكر المقريزى أنه « لما تكاثرت الأموال عند أبى الليث صاحب الديوان ، رغب أن يتبجح على الأفضل بنهضته وكان سبعمائة ألف دينار خارجاً عما أنفق فى الرجال ، فجعله فى صناديق مجلس الجلوس ، فلما شاهد الأفضل المال ، قال يا شيخ تفرض بالمال ، وتربة أمير الجيوش إن بلغنى أن بئراً معطلة أو أرضاً بائرة أو بلداً خراباً لأضربن رقبتك. فقال وحق نعمتك لقد حاشى الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب أو بئر معطلة . فتوسط القائد (المأمون البطائحى) له بخلع ، فقال لا والله حتى أكشف ما ذكر ».

وليس غريباً بعد ذلك أن يصل الخراج فى عهده خمسة ملايين دينار وأن يبلغ متحصل الأهراء مليوناً من الأرادب.

واهتم المأمون اهتماماً بالغاً بالحالة الاقتصادية وخاصة الزراعة ، فما إن علم أن ضامن أى أرض لا يأمن أن يزيد عليه آخر فتنزع منه قبل انقضاء مدة ضمانه ، حتى أبطل ذلك وأقر كل ضامن على أرضه إلى أن تنتهى مدة ضمانه ما دام منفذاً لتعهداته وأصدر لذلك منشوراً جاء فيه ما نصه : « بأنه أى واحد من الناس ضمن ضماناً من باب أو ربع أو بستان أو ناحية أو كفر وكان لأقساط ضمانه مؤدياً ولما يلزمه من ذلك مبدياً وللحق متبعاً فإن ضمانه باق فى يده لا تقبل زيادة عليه مدة ضمانه على العقد المعقود عملا بالواجب والنظام المحمود . فأما من ضمن ضماناً ولم يقم بما يجب عليه فيه وأصر على المدافعة والمغالطة التى لا يعتمدها إلا كل ذنيم الطباع سفيه ، فذلك الذى فسخ حكم ضمانه بنقضه الشروط المشروطة عليه . . . » .

ولقد كان الضمان يعجزون عن دفع مبلغ ضمانهم جميعه ، فيبقى عليهم مبالغ عرفت بالبواقى ، وكانت الحكومة تشتد أحياناً فى تحصيل هذه البواقى . وقد تتسامح فى أحيان أخرى تخفيفاً عنهم ، وذلك ما اتخذه المأمون إذ أصدر أمره بإعفاء الضمان من دفع ما عليهم من متأخرات فيذكر المقريزى : « وتقدم الأمر بعمل حساب الدولة من الهلالى والخراجى على جملتين إحداهما إلى سنة

٥١٠ هـ والثانية إلى آخر سنة ٥١٥ هـ فانعقدت على جملة كثيرة من عين وأصناف ، وشرحت بأسماء أربابها وتعيين بلادها ، فلما أحضرت أمر بكتابة سجل بالمسامحة إلى آخر سنة ٥١٠ هـ . ومبلغ ما سمح به من البواقى ألف ألف وسبعمائة ألف وعشرون ألفاً وسبعمائة وسبعة وستون ديناراً ، ومن الورق سبعة وستون ألفاً وخمسة دراهم ، ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانى مائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون أردباً . ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفاً وثلثمائة وخمسة رأس ، ومن البسر والجريد والسلب والأطراف والملح والأشنان والرمان والعسل النحل والشمع وعسل القصب شىء كثير . ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفاً ومائة وأربعة وستون رأساً . ومن الدواب والسمن والجبن والصوف والشعر شىء كثير » .

ولا شك أن إقدام المأمون على المسامحة بهذه المبالغ الطائلة ، دليل على أن خزانة الدولة أصبحت عامرة حتى أمكن التخفيف عن أصحاب الضمانات .

ولما وجد المسئولون أن بعض الناس قد احتازوا أرضاً بالإصلاح أو غيره دون أن يدفعوا عنها خراجاً لمدد طويلة ، فلما قدر عليهم الخراج عن هذه السنين وجد أنه سيستنفد ثروتهم ، فأعفاهم المأمون من خراج السنين السابقة ، وتشجيعاً منه لإصلاح الأراضى البور أعفى كل مستصلح لأرض من دفع خراجها لمدة أربع سنوات .

واهتم المأمون بدور الضرب لما لها من أهمية اقتصادية . فبنى داراً للضرب قرب الجامع الأزهر كما قرر إنشاء دور للضرب بالإسكندرية وقوص وصور وعسقلان . ومن أجمل ما سنه المأمون إصداره منشوراً فى شعبان سنة ٥١٧ هـ بمسامحة سكان مصر والقاهرة ممن يستأجرون مساكن أو حوانيت أو حمامات وغيرها من أملاك الحكومة ، بأجرة شهر رمضان من كل سنة تخفيفاً عنهم إكراماً للشهر العظيم .

وبلغ من الازدهار الاقتصادى فى عهدى الأفضل والمأمون أن الناس ألفوا الرخاء ، لذلك قلقوا عند ما نزع السعر فى أواخر عهد الآمر وبلغ القمح كل إردب بدينار ، وكان سبب هذا الارتفاع ما حدث من كثرة المصادرات فى عهد الراهب أبى نجاح .

وعندما تمكن أبو على أحمد كتيفلت من السلطة استولى على جميع ما فى

القصر من الأموال والذخائر وحمل كل ذلك إلى دار الوزارة. ثم أمر أن يفرق ما فى المخازن من غلال كان قد جمعها الآمر وبلغ مقدارها مئات الألوف من الأرادب على الناس. كما رد على الناس الأموال المصادرة من أيام الراهب والموجودة فى بيت المال وبلغ مقدارها خمسين ألف دينار «فاستبشر الناس وفرحوا فرحاً طاشت منه عقولهم وضجوا بالدعاء له فى سائر أعمال الديار المصرية وأعلنوا بذكر معايب الآمر ومثالبه».

وتتهم المراجع التاريخية الصالح طلائع بن رزيك بحب المال وجمعه من أى سبيل، وأنه أخذ يبيع الولايات للأمراء وجعل مدة الولاية سنة أو ستة أشهر فقط، فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة عليهم. كما كان هؤلاء الولاة يتبعون نفس السياسة مع مرءوسيهم. وكانت النتيجة انتشار الرشوة والفساد والاختلاس وإرهاق الشعب بجمع الضرائب مما أضر بالفلاحين. واحتكر الصالح الغلات فارتفع سعرها وتطلع إلى ما فى أيدى الناس من الأموال فشرع فى الميل على المستخدمين وأخذ أموالهم وتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان فسلبهم نعمهم.

أما العادل رزيك بن الصالح فكان بخلاف أبيه محباً للخير، فيقول عمارة: «أما أخبار الملك الناصر العادل رزيك بن الصالح. فإن الله لم يمهله إلا مدة يسيرة وكانت أفعال الخير فيها كثيرة، وذلك أنه سامح الناس بالبواقى والحسبانات القديمة، وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة، وقام عن الحاج بما يستأويه منهم أمير الحرمين».

وبعد الصالح دخلت البلاد فى آخر أطوار الضعف والانهيار نتيجة الصراع الذى نشب فى سبيل السيطرة على الحكم. إذ ثار شاور على العادل واستولى على الوزارة منه. وسار شاور فى الحكم سيرة سيئة فكان سفاكاً للدماء منقاداً لولده الكامل تاركاً له مطلق التصرف فى شئون الدولة. كما أساء إخوته وأولاده وعبيده إلى الناس فظلموا الأهالى وكثرت مصادراتهم.

هذا من الناحية الاقتصادية. أما من حيث العناية بالأمن والاستقرار الداخلى فنجد أن ابن كلس كما اهتم بالشئون المالية اهتم كذلك بنشر العدل والأمن

وتنظيم البريد حتى يكون على علم بكل ما يقع فى البلد من أحداث . وبلغ من دقة هذا النظام أن العزيز اشتاقت نفسه إلى قراصيا الشام فما كان من ابن كلس إلا أن أرسل الحمام الزاجل إلى متولى أمر الشام فجاءت القراصيا محمولة على أجنحة الحمام مما كان له وقع طيب لدى الخليفة .

كما بلغ اهتمامه من شئون الناس أنه كان يجلس كل يوم فى داره يأمر وينهى ولا يرفع إليه رقعة إلا وقع فيها ولا يسأل فى حاجة إلا قضاها . وكان يجلس للنظر فى رقاع المرافعين والمتظلمين ويوقع بيده فى الرقاع ويخاطب الخصوم بنفسه .

إلا أن سياسة ابن كلس كانت القضاء على كل من يخشى منافسته فأخذ يضايق على بن النعمان القاضى الذى كان على صلة وثيقة بالعزيز حتى أبطل الجلوس للقضاة . كما يقال إنه قضى على القائد التركى أفتكين فوضع السم له . كما عمل على إضعاف نفوذ كتامة .

أما ابن عمار . فقد اتجهت سياسته إلى محاربة القصر وإضعاف نفوذ الخليفة ثم أخذ فى التعالى على رجال الدولة والشعب فألزم الناس بالترجل له . فترجل الناس بأسرهم له من أهل الدولة . وصار يدخل القصر راكباً ويشق الدواوين ويدخل من الباب الذى يجلس فيه خدم الخليفة الخاصة . ثم يعدل إلى باب الحجرة التى فيها أمير المؤمنين الحاكم . فينزل على بابها ويركب من هناك وكان الناس من الشيوخ والرؤساء على طبقاتهم يبكرون إلى داره فيجلسون فى الدهاليز والباب مغلق . ثم يفتح فيدخل إليه جماعة من الوجوه ويجلسون فى قاعة الدار على حصير وهو جالس فى مجلسه ولا يدخل له أحد ساعة . ثم يأذن لوجوه من حضر كالقاضى ووجوه شيوخ كتامة والقواد فتدخل أعيانهم ثم يأذن لسائر الناس فيزدحمون عليه بحيث لا يقدر أحد أن يصل إليه . فمنهم من يومئ بتقبيل الأرض ولا يرد السلام على أحد . ثم يخرج فلا يقدر أحد على تقبيل يده سوى أناس بأعيانهم . إلا أنهم يومئون إلى تقبيل الأرض . وشرف أكابر الناس بتقبيل ركابه ، وأجل الناس من يقبل ركبه . واستعمل ابن عمار كل نفوذه لصالح كتامة وأحلهم فى الوظائف محل المصريين .

وكان من أثر هذه السياسة أن قام النزاع بين المغاربة والأتراك . وانتهز برجوان – الذى كان يراقب الأمور – الفرصة للحد من طغيان ابن عمار ، وتزعم الحركة المضادة وجمع حوله المناوئين لسلطان ابن عمار وثارت الفتنة وانتهت بهزيمة المغاربة وانتصار الأتراك وهروب ابن عمار .

واتبع برجوان الذى حل مكان ابن عمار فى الوزارة سياسة مضادة ، إذ أخذ البيعة للحاكم من جديد من وجوه كتامة وقوادها والمشارقة وغيرهم .

وأمر بعدم التعرض لأحد من الكتاميين والمغاربة ومنع الناس من نهب دار ابن عمار وأعاد الرسوم والرواتب التى قطعها ابن عمار عن أصحابها وقرب المشارقة وأعاد المصريين إلى مناصبهم التى أخذها منهم المغاربة . إلا أنه عمل من جهة أخرى على استرضاء المغاربة ، فأخذ يتلطف بابن عمار ومنحه الإقطاعات والرواتب التى كانت له أيام العزيز واشترط عليه الطاعة . كما قرب إليه غلمان القصر وتفقد أحوالهم ، واهتم برجال الدولة وأصلح شئونهم ، ولم يفته العناية بأمور الشعب والعمل على إزالة كل ما وقع عليهم من أضرار ومنع الناس كافة من الترجل له . وكان يرجع إلى الحاكم فى تصريف الأمور .

إلا أن برجوان سرعان ما نحى نحو ابن عمار فى السيطرة والرغبة فى الاستئثار بالأمور ومال إلى اللهو وجمع الأموال . فقصر عن الخدمة وتشاغل بلذاته وأقبل على سماع الغناء وأكثر من الطرب ، وكان شديد المحبة فى الغناء ، فكان المغنون من الرجال والنساء يحضرون داره فيكون معهم كأحدهم ، ثم يجلس فى داره حتى يمضى صدر النهار ويتكامل جميع أهل الدولة وأرباب الأشغال على بابه فيخرج راكباً ويمضى إلى القصر فيمشى من الأمور ما يختار بغير مشاورة ثم تجرأ على الخليفة وعامله بالإذلال وعدم الامتثال ، منها أنه استدعاه يوماً وهو راكب معه فصار إليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه وصار باطن قدمه وفيه الخف قبلة وجه الحاكم .

ولم يزل الحاكم يتحين الفرص للقضاء على برجوان حتى تمكن من قتله فى ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ .

وكان لضعف وزراء الحاكم والظاهر أثره فى اضطراب الأمن فى البلاد وقطعت السبل ولم تحرك الحكومة ساكناً للمحافظة على الأمن حتى إنه فى ذى الحجة من سنة ٤١٥ هـ هاجم ثلاثون رجلا من بنى قرة مدينتى سفط ونهيا وقتلوا قاضى سفط واستاقوا الخيل والضأن ، منها شىء كثير للقائد معضاد[١] . ومع ذلك لم يخرج أحد لطلبهم ولا أُنكر شىء من ذلك .

وقد استطاع الجرجرائى عند ما تولى الوزارة أن يسيطر على الدولة سيطرة تامة . ونظم الدولة فى خلافة الظاهر الذى انغمس فى اللهو والملذات تاركاً الأمور لوزيره الذى أظهر كفاية فى النواحى المالية وجلداً على العمل وحفظ الأمن فى البلاد . فتمكن من إخضاع ثورة السودانيين عندما قاموا بتنيس مطالبين بأرزاقهم . وعاثوا فى البلد وسلبوا ما فى خزائنها فأرسل إليهم الجرجرائى من أخضع ثورتهم وقبض على الجناة .

ولما توفى الظاهر أخذ الجرجرائى البيعة للمستنصر واستمرت سيطرته على الدولة ، ولم تتمكن أم المستنصر طيلة مدة وزارة الجرجرائى أن تتدخل فى شئون الحكم وهو الأمر الذى تمكنت منه بعد وفاته . فأصبح لها ولرجال حاشيتها الكلمة النافذة فى جميع الأمور حتى فى تعيين الوزراء وعزلهم . وصار الوزراء وزراؤها أكثر منهم وزراء الخليفة .

ولقد تميزت هذه الفترة بالصراع بين الوزراء ورجال أم المستنصر . ويحدثنا المؤيد فى الدين الذى كان معاصراً لهذه الفترة ومطلعاً على أسرارها عن أحداثها وما جره هذا الصراع ، ويذكر فى صراحة أن المستنصر كان ألعوبة بين أيدى رجال دولته ، وأن أمه ورجالها كانوا المتصرفين فى شئون الدولة . وأنه عند ما وصل إلى مصر قابل الوزير فخر الملك صدقة بن يوسف الفلاحى . ولكن القوم نصحوه بمقابلة أبى سعيد التسترى المسيطر على أم الخليفة والذى « يحل الوزير منه محل اللفظ من المعنى وهو لأمور هذه المملكة كلها الأساس والمبنى » ولكن التسترى قتل سنة ٤٣٩ هـ واتهم الفلاحى بتحريض الأتراك على قتله ليخلو له الجو . ولكن سرعان ما قبض على الفلاحى سنة ٤٤٠ هـ وقتل . وحل مكانه فى الوزارة

(١) القائد معضاد وقد مر بنا أنه أحد الأربعة الذين استولوا على الخليفة الظاهر .

أبو البركات الحسين بن محمد الجرجرائى وما حدث بين الفلاحى والتسترى من صراع حدث بين الجرجرائى واليازورى الذى حل محل التسترى فى السيطرة على أمور أم المستنصر . ويصف المؤيد ماحدث بين الاثنين بقوله : « وكانت نصبة اليازورى مع أبى البركات نصبة اليهودى مع الفلاحى . وكان ذلك أضيق عطفاً من أن يصبر صبر الفلاحى . فما لبس خلع الوزارة حتى دب بينهما دبيب الشر . وانفسدت الحال بينهما فتجاوزت إلى الجهر من بعد الستر . ولم تزل الأيام تتعاهد مزارع العداوة بينهما بالسقى حتى صار حبها حصيداً وسببها وكيداً » . وظل الصراع بين الوزير واليازورى حتى قبض على الجرجرائى وزج به فى السجن. ويذكر المقريزى أن أيام هذا الوزير كانت « كلها ردية . لكثرة القبض على الناس والمصادرات واصطفاء الأموال والنفى ونحو ذلك . فكثر الذم له . وكان أيضاً يبطش بمن يبطش به من غير علم الخليفة ولا استئذانه فتغير خاطر الخليفة عليه وتكثر منه تغيظه » .

وعهد بالوزارة إلى اليازورى الذى أصبح المسيطر على شئون أم الخليفة وأمور الدولة والقضاء والدعوة . واستطاع اليازورى أن ينشر الأمن فى ربوع البلاد وأن يقضى على ناشرى الفتن والفوضى . خصوصاً من القبائل العربية التى عانت الدولة من تمردها الكثير . ففى سنة ٤٤٣ هـ قضى على تمرد قبيلة بنى قرة وكانت هذه القبيلة قد استقرت فى البحيرة وملكوها وعمروا ضياعها وانضم إليهم الطلحيون . واشتدت شوكتهم حتى ضاق بهم ولاة الإسكندرية وقررت لهم الدولة الواجبات لأتحمل إليهم مع واجبات العسكر بالإسكندرية واتفق أن تأخرت واجباتهم أو أن اليازورى ولى عليهم رجلا يقال له المقرب فأنفوا من ذلك وطلبوا عزله عنهم فلم يفعل. فشقوا عصا الطاعة . فاضطر الوزير إلى أن يجرد لهم عسكراً وراء عسكر حتى التقوا بكوم شريك وكانت الدائرة عليهم . وفر بنو قرة والطلحيون إلى برقة ، وانقطع أثرهم فى البحيرة . ويذكر المقريزى أن « كل من بالحضرة كان ينقد رأى الوزير فى تجهيز العساكر إليهم . ويحكمون بأنهم لا يفارقون البحيرة ، فجاء الأمر بخلاف ظنهم » . ثم إن الوزير رأى أن فى إقامة العسكر فى أعمال البحيرة

كلفة كبيرة . فأرسل إلى بنى سنبس ، وكانوا بالداروم[١] وفلسطين . وقد ثقلت وطأتهم هنالك وصعب أمرهم . يغزى بهم إلى البحيرة وهم أعداء قيس وأوطأهم ديارهم ، وأقطعهم أرضهم فمحى اسم بنى قرة من هنالك » .

وأجمع المؤرخون على أن اليازورى كان هادئ النفس والطباع لا يتحرج من الاستشارة فيما يعرض له من أمور قبل أن يتخذ القرار المناسب ،وأنه استطاع أن يسير بالبلاد وسط التيارات المختلفة محاولا إرضاء أم الخليفة والخليفة وحاشيتهما . وتمكن من السيطرة على الأمور سيطرة تامة وحد من اندفاع أم الخليفة وتدخلها فى شئون الحكم .

وافتقدت أم الخليفة بعد اليازورى الناصح الأمين والمشير القوى الذى يقف فى طريق نزواتها . فأخذت تغير فى الوزراء فلا يكاد يعين أحدهم حتى يقال أو يقتل ويأتى غيره أو كما يقول المقريزى : « كانت الفترات بعد صرف من ينصرف منهم أطول من مدة نظر أحدهم » . مما أضعف الدولة وساعد على قيام الفتن بين طوائف الجند ونشر الفوضى .

واستطاع بدر الجمالى بعد مجهود شاق أن يعيد الأمن والنظام وأن يضرب على أيدى المفسدين ، لذلك قضى المدة من سنة ٤٦٦ هـ إلى سنة ٤٦٩ هـ يتتبع المفسدين من الأمراء والقواد والأعيان والقبائل العربية الذين يصفهم المقريزى بأنهم « قد تمرنوا على الفساد ونشئوا فى الفتن واعتادوا مضرة الخلق» وابتدأ أول ما بدأ بالقضاء على أمراء الترك واستطاع قتل معظمهم فى وليمة أولمها لهم وقبض على الباقين وتتبعهم حتى لم يدع فيهم أحداً يشار إليه وتتبع المفسدين فى القاهرة ومصر حتى أتى على جميعهم بالقتل . ثم خرج إلى الوجه البحرى سنة ٤٦٧ هـ مبتدئاً من الشرق فقضى على قبيلة لواته واستصفى أموالهم حتى يقال إنه قتل منهم عشرين ألفا ، ثم توجه إلى دمياط فقضى على المفسدين فيها ثم عبر إلى البر الغربى حيث قتل كثيراً من الطائفة الملحية [٢] وأتباعهم حتى وصل إلى الإسكندرية فاستأصل

---

(١) الداروم أو الوارون جنوبى غزة .

(٢) طائفة من عسكر مصر ، وجاء فى اللباب لابن الأثير أن الملحى نسبة إلى الملح وبيعه كذلك النسبة إلى الطائفة التى خرجت على المستنصر العلوى صاحب مصر وهم الملحية .

شأفة المفسدين بها ، وبذلك لم يدع بالدلتا مفسداً إلا وقتله أو قمعه ؛ ووجه نظره بعد ذلك إلى الصعيد حيث اجتمع بمدينة طوخ العليا جماعة كثيرة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة لقتاله ، فسار إليهم وطرقهم ليلا حيث أفنى أكثرهم قتلا وغرق من فر منهم ، ولم ينج إلا القليل وصادر أموالهم . ثم سار إلى أسوان حيث قضى على ثورة كنز الدولة محمد بها ، فكانت هذه الواقعة آخر الوقائع التى قطع فيها دابر المفسدين وخمدت جمرتهم ، كما قضى على عرب قيس وسليم وفزارة وطرد باقيهم إلى برقة .

وفى هذه الفترة وأثناء انشغال بدر بإصلاح الأمر فى أسوان ، طرق مصر خطر من الخارج إذ حاول اتسز صاحب دمشق الاستيلاء على مصر وإقامة الدعوة العباسية . ولكن بدراً بمعاونة المصريين استطاع هزيمة أتسز بعد أن عاث بجيوشه فى ريف مصر .

ويتهم المؤرخون بدراً بالقسوة وسفك الدماء ، ولكنه أمر اقتضته المصلحة العامة ، فقد بلغت مصر قبل وصوله درجة من الفوضى واضطراب الأمن جعل الانتقال من مكان إلى مكان يستلزم الخفارة الثقيلة ، وكان النيل يجىء ويذهب فلا تجد الأرض من يزرعها ، وسيطر المفسدون على أنحاء البلاد . فكانت القسوة خير دواء لهذه الحالة المؤلمة التى وصلت إليها البلاد . وقد نجح بدر فى سياسته هذه وأخذ بالقسوة كل مفسد أو ثائر ، ولم يرحم حتى ابنه الأوحد عندما خرج عليه وتحصن بالإسكندرية . فيقال إنه قتله بيديه ، وقيل إنه دفنه حيًّا ، وقيل غرقه وقيل جوعه حتى مات وأباد كل من ساعده وأعانه .

وأراد بدر أن يضمن الوزارة لأولاده بعد موته فأشرك معه ابنه الأفضل فى الحكم سنة ٤٧٩ هـ وصدر بذلك سجل عن الخليفة .

ويصف المؤرخون الأفضل بالعدل وحسن السيرة فى الرعية والتجار . يقول ابن ميسر : « ولم يعرف أحد صودر فى زمانه ولا قسط عليه (أى ظلم) ، ولما حضر الإسكندرية كان بها يهودى يبالغ فى سب الأفضل وشتمه ولعنه . فلما دخلها الأفضل قبض عليه وأراد قتله وقد عدد عليه ذنوبه ، فقال إن معى خمسة

آلاف دينار خذها مني وأعتقني واعف عني . فقال والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك . وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئاً » .

والأفضل أول من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من التركات كما كان متبعاً من قبل . وأمر بحفظها لأربابها حتى يحضر من يثبت حقه فيها . يقول ابن ميسر : « وكانت هذه حسنة من حسناته التي تفرد بها دون من تقدمه . واجتمع بمودع الحكم من مال المواريث في أيامه مما ينتظر وصول مستحقيه من مشرق الدنيا ومغربها ماقدره مائة ألف وثلاثون ألف دينار . فلما ولى القضاء القاضي ثقة الدولة أبو الفتح مسلم الرسعني بعد وفاة القاضي الجليس ، رفع إليه أني قد اعتبرت ما في مودع الحكم من مال المواريث فكان مائة ألف دينار ورفعها إلى بيت المال أولى من تركها في المودع فإن لها السنين الطويلة لم يطلب شيء منها ، فوقع على رقعة . إنما قلدناك الحكم ولا رأى لنا فيما لا نستحقه فاتركه لحاله لمستحقيه ولا تراجع فيه » .

وبلغ من سيطرة الأفضل على الدولة وضبطه للدواوين وأجهزة الحكم أن أولى الأمر خشوا بعد وفاته أن يحاول الموظفون وقد رفعت عنهم يد الأفضل القوية تغيير بعض أوامره ومخالفة ماسبق وقرره من تعليمات ، مما قد يعرض مرافق الدولة للاضطراب والفوضى . لذلك أمر الخليفة بإنشاء سجل يؤكد ضرورة تنفيذ ما كان الأفضل قرره وخرجت توقيعاته الثابتة عليها علاماته في الأحكام والأموال .

وبعد قتل الأفضل كاد النظام أن يضطرب لولا يقظة المأمون البطائحي الذي ولى الوزارة ، إذ استطاع أن يعيد الأمور إلى نصابها ويحفظ الأمن في البلاد . وكان من أول ما عمله المأمون حماية البلاد من خطر الباطنية أتباع نزار الذين كان هدفهم إشاعة القتل والفوضى في البلاد ، يقول ابن ميسر : « لما ولى المأمون بلغه أن ابن صباح والباطنية فرحوا لموت الأفضل وقتله . وأنه قد امتدت آمالهم لقتل الآمر والمأمون معا ، وأنهم أرسلوا رسلا لأصحابهم المقيمين بمصر ومعهم أموال للتفرقة عليهم . فتقدم المأمون إلى والى عسقلان وصرفه عنها

وولى غيره . وأمره بعرض أرباب الخدم بها وأن لايبقى فيها إلا من هو معروف من أهل البلاد . ووصاه بالاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التجار وغيرهم وأن لايثق بما يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم وحلاهم . بل يكشف عن بعضهم من بعض ويفرق بينهم ويبالغ فى ذلك . ومن وصل ممن لم تجر له عادة بالوصول إلى بلاده فليعقه بالثغر ويطالع مجاله و بما معه من البضائع . وكذلك الجمالون لايمكن أحداً من الوصول إلى البلاد إلا من كان معروفاً متردداً . ولا يسير قافلة إلا بعد أن يتقدمها كتابة إلى الديوان بعدة التجار وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمالين وذكر أصناف البضائع ليقابل بها فى مدينة بلبيس وعند وصولهم إلى الباب . .

ثم تقدم أمر المأمون لوالي مصر والقاهرة وأمرهما أن يستقعا له شارعاً شارعاً وحارة حارة بأسماء من فيها من السكان . وأن لايمكنا أحداً من الانتقال من منزل إلى منزل إلى أن يخرج أمره بما يعهداه فيه .

فلما وقف على أوراق التسقيع وفهم أسماء أهل مصر والقاهرة وكناهم وأحوالهم ومعايشهم . ومن يصل إلى كل ساكن من سكان الحارات من الغرباء. حينئذ سير من قبله نساء يدخلن هذه المساكن ويتعرفن أحوال الباطنية . فكانت أحوال من بالقاهرة ومصر لا يخفى عليه منها شىء . ولذلك امتنع من يصل إليه من الباطنية سوى من يصل من بلاد العجم وغيرها لهذا القصد .

ثم إنه ركب فى يوم من الأيام جماعة من العسكرية وفرقهم وأمر بمساك من عينه فمسك منهم جماعة كثيرة منهم رجل كان يقرئ أولاد الخليفة الآمر. ومسك رسلا معهم المال الذى سيره ابن صباح برسم نفقة المقيمين بمصر فأخذه . وبث الجواسيس فى أقطار الأرض . وكان الباطنى إذا خرج من ألموت لاتزال أخباره تصل إلى المأمون متعاقبة حتى يصل بلبيس فيمسك بها ويحمل إليه فيقتله.

وبلغ من اهتمام المأمون بالأمن والعدالة أن والي مصر والقاهرة كانا يطالعانه صباح كل يوم بتقرير واف عن سير الأمور وحالة الأمن بخلاف ما كان يبثه من عيون لاطلاعه على كل ما يحدث . فكان عنده علم بكل كبيرة وصغيرة .

فكان كما يذكر المقريزى : « لايتحدث أحد من سكان القاهرة ومصر بحديث فى ليل أو نهار إلا ويبيت خبره عنده ولاسيما أخبار الولاة والعمال » . ويذكر المقريزى أيضاً أن أحد تجار مدينة مصر عمل لابنته فرحاً فى إحدى الدور المعدة لذلك ، فتسور ملاك الدار على النساء ، وأشرفوا عليهن والعروس فى المجلا ، فأنكر عليهم ذلك فأساءوا وأفسدوا على الرجل ماصنعه ، فخرج مستغيثاً ، فخشوا عاقبة فعلهم فما زالوا به حتى كف عن شكواهم . فلما حضر والى مصر بالمطالعة فى الصباح إلى الوزير كعادته ، قيل له لم لاذكرت فى مطالعتك ماجرى للتاجر الذى عمل فرح ابنته ، فاعتذر بأن المرسوم له أن لايذكر ما يخرج عن السلامة والعافية ، ولم يتصل به ما جرى فى الفرح ، فأسمعه ما أمضه وبين عجزه وتقصيره وقال له : والسلامة والعافية أن يخرج بالرجل ويهان وتهتك حرمته ولا يجد ناصراً » ورسم بإحضار شاهدين ومهندسين وتوجهوا إلى سائر الدور المختصة بالأفراح وإحضار ملاكها ، فمن رغب فى استمرار ملكه على حاله عليه أن يهيئه بطريقة تحفظ حرمات الناس .

وكان المأمون يجلس للمظالم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع . ولتحقيق العدالة كتب لجميع ولاة الأعمال خلا قوص وصور وعسقلان بمطالعته فى مستهل كل شهر بأسماء المسجونين والسبب الموجب لاعتقال كل منهم وذلك لأن المأمون بلغه أن بعض الولاة يعتقلون من لايجب عليه الاعتقال لطلب رشوة فتطول مدته .

ويذكر المقريزى فى حوادث سنة ٥١٦ هـ أن المأمون ابتكر مالم يسبقه إليه أحد إذ «استعمل ميقاط [١] حرير فيه ثلاث جلاجل، وفتح باب طاقة فى الروش من سور داره ، وصار إذا مضى شطر الليل وانقطع المشى طرحت السلسلة ودلى الميقاط من الطاق ، وعلى هذا المكان جماعة يبيتون تحته من المغاربة ، فمن حضر من الرجال والنساء متظلماً يشد رقعة فى الميقاط بيده ويحركه بعد أن

(١) الميقاط يعنى الحبل .

يقف من حضر على مضمون الرقعة ، فإن كانت مرافعة[١] لم يمكنوه من رفعها ؛ وإن كانت ظلامة مكنوه من ذلك ، وتعوق صاحبها إلى أن يخرج الجواب ، وكان القصد بعمل ذلك أنه من حدث به ضرر من أهل السّتر أوكانت امرأة من غير ذات البروز لاتحب أن تظهر ، أو كانت مظلمة فى الليل تتعجل مضرتها قبل النهار فليأت لهذا الميقاط » .

وبلغه أن والى مصر والقاهرة يأخذان جميع السقايين أرباب الجمال والدواب لرش ما بين البلدين سخرة وذلك فى اليومين اللذين يركب فيهما الخليفة ، فأمر بصرف دينار لكل من السقايين الذين يكلفون بذلك .

أما أبو على أحمد بن الأفضل فى محاولة القضاء على المذهب الإسماعيلى رتب فى الحكم أربعة قضاة يحكم كل واحد بمذهبه ويورث بمذهبه ، فكان هناك قاض للشافعية وقاض للمالكية وقاض للإسماعيلية وقاض للإمامية . يقول ابن ميسر : « إنه لم يسمع بهذا قط فيما سلف » .

وقد أدت محاولة أبى على القضاء على المذهب الإسماعيلى إلى تجميع القوى المعارضة له بقيادة يانسى وظلوا يتحينون الفرص حتّى تمكنوا من قتله بعد سنة وشهر من توليه الوزارة .

وبعد قتل أبى على ، تولى أبو الفتح يانسى الوزارة ، ويصفه المقريزى بأن له هيبة وعنده تماسكاً فى الأمور وحفظاً للقوانين ، فاستطاع تهدئة الدهماء وصلحت الأحوال واستقرت الخلافة للحافظ ، وحمل جميع ما كان قد نقل إلى دار الوزارة من الأموال والآلات ، وأعيد إلى القصر ، إلا أنه سرعان ماساءت العلاقات بينه وبين الخليفة لتخرف كل منهما من الآخر ، فعمل يانسى على القضاء على صبيان الخاص الذين قتلوا كتيفات خشية منهم ، كما أساء معاملة رجال القصر ، فأخذ الخليفة يدبر له حتّى قتله مسموما .

وبعد فترة لم يستوزر الحافظ فيها أحداً ، تمكن بهرام الأرمنى النصرانى (والى المغربية) أن يصل إلى الوزارة وإلى قلب الخليفة سنة ٥٢٩ هـ ونعت بسيف

( ) المرافعة يعنى الشكوى .

الإسلام تاج الخلافة . وقد قامت معارضة قوية من رجال القصر ضد تولية بهرام النصرانى الوزارة ، وكانت حجتهم أن المسلمين لن يرضوا بهذا ، إذ أنه من شروط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر فى الأعياد ليزرر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس ، وأن القضاة نواب لوزير السيف ، وأنهم يذكرون دائماً النيابة عنه فى الأحكام وكتب الأنكحة ، ولكن الخليفة على ما يبدو كان مضطراً لهذا الإجراء لتسكن الفتنة ، وأنه هو الذى أوعز لبهرام بالقدوم من الغربية ، فلم يأخذ بهذه الاعتراضات . وتقرر أن ينوب القاضى عن الوزير فى صعود المنبر ، كما لا تذكر هذه النيابة فى الأحكام .

وتصف المراجع العربية بهرام بأنه كان ذا عقل وافر وحسن تدبير وإقدام فى السياسة والحرب ، وأنه تمكن من القضاء على كل آثار الفتنة التى قام بها الأمير الحسن بن الحافظ ضد أبيه وكان من نتائجها وقوع البلاد فى الفوضى والاضطراب وانقسام فى الجيش .

ولما خلف رضوان بهرام فى الوزارة ، استدعى بالأموال من الخليفة وأنفق فى الجند . واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عسقلان بالعدد والآلات ، واستجد من الدواوين ديوان الجهاد . وأحضر جميع الدواوين وكشفها ورتبها ومهد الأمور وأعاد الناس إلى ما كانوا عليه من الطمأنينة بحسن سيرته وكثرة عدله وعمارته البلاد وقوة نفسه وشجاعته .

ولكن الأمور ساءت بين رضوان والخليفة فأخذ الخليفة يدبر له حتى تمكن من تأليب الجند عليه وفر من مصر فى شوال سنة ٥٣٣ هـ .

ولم يستوزر الحافظ بعد رضوان أحداً ، فلما ولى الظافر الخلافة استوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن مصال ، إلا أن مدة وزارته لم تطل إذ ثار عليه الأمير على بن السلار والى الإسكندرية وتمكن من الاستيلاء على الوزارة وطارد ابن مصال حتى هزمه وقتله . ولكن الصفاء كان معدوماً بينه وبين الظافر إذ كان فى نفس الخليفة نفور منه كما كان ابن السلار يحقد على الظافر ميله مع ابن مصال . وكان ابن السلار سنياً فشد من مذهب أهل السنة ، وقدم عليه الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى الفقيه الشافعى فأكرمه وبنى له

مدرسة بالإسكندرية سنة ٥٤٦ هـ . ويرى بعض المؤرخين أن النزاع بين له ابن السلار وابن مصال هو فى الحقيقة نزاع بين السنة والشيعة .

وبلغ من احتراز ابن السلار من الظافر وتوهمه أن الخليفة خبأ له قوماً يغتالونه بالقصر ، أن نقل مجلس الخليفة من القاعة التى يدخل إليها من الدهاليز المظلمة إلى الإيوان فى البراح والسعة ، فكان إذا دخل على الخليفة يدخل ومعه حرسه الخاص ، فيجلس الخليفة فى الشباك بالإيوان ويجلس هو من خارجه ، ومع هذا يبالغ فى الخدمة ويظهر الطاعة ولا يخل فى قول ولافعل.

وظل الخليفة يدبر على وزيره حتى قتله بيد نصر بن ربيبه عباس فى المحرم سنة ٥٤٨ هـ. وقد كوفئ الأخير على جريمة ابنه بتولى الوزارة حيث قرب الأمراء وأحسن إلى الأجناد حتى ينسوا ابن السلار . وأخذ الخليفة يغدق بدوره على نصر بن عباس المنح والإقطاعات مما جعل الناس يخوضون فى أمرهما فأمض ذلك والده الذى أخذ يغرى ابنه بقتل الخليفة فقتله فى سلخ المحرم سنة ٥٤٩ هـ . ولم تنته الجرائم التى ارتكبها عباس وابنه بقتل ابن السلار ثم الخليفة ، بل تلا ذلك مسرحية مؤلمة قصد بها التضليل وإبعاد الشبهات ، فبكر إلى القصر واتهم أخوه الخليفة بقتله وقتلهم ، ثم أحضر ابن الظافر وهو طفل فى الخامسة وبايعه بالخلافة وسط مظاهر الرعب والدماء فأصيب الطفل بالصرع .

وظن عباس أن الأمر قد استقام له ، ولكنه سرعان ماأدرك خطأه ، فيذكر المقريزى أن أهل القصور أخذوا « فى إعمال الحيلة عليه ، وكان الأمراء والسودان قد نافروه واستوحشوا منه لما فعله بأولاد الحافظ ، وأضمروا له العداوة والبغضاء ، فاختلفت عليه الكلمة ، وهاجت الفتنة » . وقصت نساء القصر شعورهن وأرسلنها إلى طلائع بن رزيك والى الأشمونيين وناشدنه الخلاص من عباس ، فبادر يحشد الحشود وجاء إلى القاهرة وشعور النساء فى رأس رمحه ودخلها فى ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ بعد هرب عباس وابنه واستولى على الحكم والوزارة.

وقد استطاع الصالح أن يعيد النظام والأمن إلى البلاد ، وعاقب الجناة الذين اشتركوا مع نصر بن عباس فى جريمته ، كما قضى على ثورات المناوئين له

كثورة طرخان والى الإسكندرية الذي قام طالباً للوزارة ، فأرسل إليه الصالح جيشاً بقيادة ابن أخته الأمير عزالدين أبو المهند حسام وغلامه ورد فهجما عليه عند دمنهور واضطراه إلى الهرب تحت جنح الليل ، وثورة الأمير الأوحد بن تميم والى إخميم وأسيوط الذى جمع جموعاً كثيرة وقد أرسل إليه الصالح جيشاً تمكن من قتله فى رجب سنة ٥٥٠ هـ . كما قبض على الأمير ناصر الدولة ياقوت والى قوص وأولاده بتهمة مكاتبة أخت الخليفة للقيام ضد الصالح وسجنهم.

وأخذ الصالح يتتبع كل من يخشى منافسته من أمراء الدولة ويتخلص منهم الواحد بعد الآخر حتّى خلا له الجو ، وإن كان ذلك على حساب المصلحة العامة إذ أضعف الدولة بقتل أمرائها وذوى الرأى والحزم فيها . وسيطر على القصر سيطرة تامة حتّى إنه عندما بايع العاضد بالخلافة بعد موت الفائز أرغمه على الزواج من ابنته طمعاً فى أن تؤول الخلافة لسبطه .

وبعد الصالح دخلت البلاد فى آخر أطوار الضعف والانهيار نتيجة الصراع الذى نشب فى سبيل السيطرة على الحكم ؛ إذ ثار شاور على العادل واستولى على الوزارة منه. وسار شاور فى الحكم سيرة سيئة فكان سفاكاً للدماء منقاداً لوالده الكامل وقد تمكن ضرغام من طرد شاور إلا أنه لم يلبث فى الوزارة إلا تسعة أشهر عاد بعدها شاور بمساعدة جيوش نور الدين . وفى الفترة القصيرة التى مكثها رضوان فى الوزارة شكر له الناس فعله إلا أنه كان كثير الشك فى أصحابه؛ فقتل أكثرهم فضعفت الدولة واختلت أحوالها . وتعتبر الفترة التى ولى فيها شاور وضرغام أسوأ ما مر بمصر من أحداث كانت نتيجتها نهاية الدولة الفاطمية أو كما يقول المقريزى : « إن البلايا والمنايا من حينئذ تتابعت على دولة الخلفاء الفاطميين حتّى لم يبق منهم عين تطرف » . ويصف عمارة اليمنى السنوات التى قضاها شاور فى وزارته الثانية بأنها « كثيرة الوقائع والنوازل » وأنه فيها « انكشفت صفحاته وأحرقت لفحاته وأغرقت نغماته ، وغضه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه ، وبان غمره وثماره وجمره ورماده ، ولم يجف من الأنكاد لبده ، ولا صفا من الأقذاء ورده ، وما هو إلا أن تسلمها بالراحة ، وسلمت له الهموم عوضا عن

الراحة». وحفلت هذه الأيام علاوة على هجوم الغزو والإفرنج بالاضطرابات الداخلية إذ ثار يحيى بن الخياط [1] طالباً للوزارة ، كما ثارت قبيله لواته وعصف عليه مدينة الإسكندرية .

ويلخص عمارة اليمنى أحوال البلاد فى الفترة الأخيرة بقوله : « ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور وشاور » .

وانتهى الأمر بشاور أن أغرق البلاد فى بحر من الفوضى وأحرقت الفسطاط وتقاتل عليها نور الدين والفرنج حتى تمكن شيركوه قائد نور الدين من الاستيلاء عليها وقتل شاور وأصبح هو وزير العاضد ثم خلفه صلاح الدين، يقول ابن شداد وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، وعلمه أنه إذا ولى وليس له عسكر ولا رجال كانت تحت يده وحكمه، ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامى من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين .

ولكن صلاح الدين استطاع أن يثبت حكمه ، واستمال إليه القلوب وجمع حوله الناس ، وتمكن من القضاء على ثورة خطيرة قام بها السودان بتشجيع من الخليفة ورجاله ، وبذلك ضعف أمر العاضد تماماً . وأخذ صلاح الدين ينظم الأمور وتقوية المذهب السنى وإضعاف المذهب الشيعى ، ففوض القضاء إلى أحد القضاة الشافعية هو قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس .

وما أتت سنة ٥٦٧ ﻫ حتى وجد صلاح الدين أن الوقت أصبح مهيأ للقضاء على المذهب الإسماعيلى والدولة الفاطمية ، فأمر بقطع الخطبة للعاضد فى أول جمعة من المحرم ، ومات العاضد بعدها بأيام فانتهت بموته الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء القرنين من الزمان .

---

(١) كان يحيى بن الخياط من كبار الأمراء فى عهد الصالح بن رزيك ومن جلسائه، وقد انضم إلى شاور فيمن انضم من أمراء الصالح عند ما خرج طالباً الوزارة . ثم ثار على شاور فى وزارته الثانية وخرج طالباً الوزارة .

وقد كان لتولية وزراء ذميين أثره فى اشتعال نار الكراهية بين المسلمين والنصارى نتيجة تحيز هؤلاء الوزراء لأبناء دينهم وإيثارهم بالوظائف وإبعاد المسلمين واضطهادهم ، فكانت تقوم الفتن بين المسلمين والنصارى، وكثيراً ما أدى الأمر إلى تدخل الخلفاء، فعندما وزر عيسى بن نسطورس للعزيز، مال إلى أهل ملته من النصارى ، فقلدهم الأعمال والدواوين وأخرج الكتاب والمتصرفين من المسلمين . واستناب بالشام منشا بن إبراهيم اليهودى الذى استعان بدوره باليهود . واستولى أهل هاتين الملتين على الدولة ، وآذوا المسلمين حتى كتب أهل مصر رقعة جعلوها فى يد تمثال من ورق وضعوه فى طريق الخليفة ، وجاء بالرقعة « بالذى أعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى ابن نسطورس وأذل المسلمين بك ألا كشفت ظلامتى » . فقبض العزيز عليهما وصادرهما ، ولكنه أعاد ابن نسطورس بعد أن شرط عليه استخدام المسلمين . ومع ذلك لم يهدأ العداء بين النصارى والمسلمين إذ وقعت الفتنة بينهم سنة ٣٨٦ ﻫ عندما احترق الأسطول الذى جهزه العزيز لحرب الروم ، واتهم المسلمون تجار الروم الموجودين بمصر بإحراقه وثارت العامة وقتلوا منهم عدة ونهبوا الكنائس .

فلما وزر ابن عمار أخذ بدوره يسىء معاملة النصارى وقبض على ابن نسطورس وقتله ، وامتدت أيدى المغاربة إلى أموالهم وحرماتهم . واستطاع برجوان بسياسته أن يهدئ النفوس فأعاد المصريين إلى مناصبهم ، ولكن فهد بن إبراهيم عندما وزر مع الحسين بن جوهر عاد إلى مناصرة أبناء دينه مما أدى إلى شكوى المسلمين حتى لقى أبو طاهر محمود النحوى الكاتب الخليفة الحاكم وبلغه « ما يشكوه الناس من تضافر النصارى وغلبتهم على المملكة وتوازرهم ، وأن فهد بن إبراهيم هو الذى يقوى نفوسهم ويفوض أمر الدواوين والأموال إليهم ، وأنه آفة على المسلمين وعدة للنصارى » ، فقتل الحاكم فهد فى ثامن جمادى الآخرة سنة ٣٩٣ ﻫ .

ولقد ظلت العلاقة بين المسلمين والنصارى تسوء حيناً وتهدأ حيناً إلى أن

وزر بهرام الأرمنى فتحيز تحيزا ظاهراً إلى بنى جنسه ودينه ، حتى إنه سأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله فأذن له فى ذلك ، فأخذت وفود الأرمن تتدفق على البلاد من تل باشر ومن بلاد الأرمن حتى بلغ عددهم نحو الثلاثين ألفاً واستطالوا على المسلمين وتظاهروا بدين النصرانية وأكثروا من بناء الكنائس والديارات وصار كل رئيس منهم يبنى له كنيسة بجوار داره . يقول ابن ظافر : « وظهرت النصرانية على أيامه حتى كان المسلمون إنما يحلفون بحق السيدة » . وتفاقم الأمر وخشى الناس أن يندثر الإسلام من البلاد .وأخذ بهرام يوزع الولايات والوظائف على أهله وبنى جنسه ، فولى أخاه الباساك ولاية قوص أهم ولايات مصر ، فجار على الناس واستباح أموالهم وبالغ فى أذيتهم .

لذلك أخذ الأم اء يعملون للتخلص من بهرام وعلى رأسهم رضوان بن الوخشى صاحب الباب والذى كان من أعظم الأمراء ، فعمل بهرام على التخلص منه وإبعاده خشية منافسته ، فولاه عسقلان سنة ٥٣٠هـ، فلما وصل إليها وجد فيها جماعة من الأرمن قد وصلوا فى البحر يريدون القاهرة فمنعهم مما يريدون . وعند ما بلغ ذلك الوزير شق عليه واستدعاه إلى القاهرة حيث قابله الناس بالشكر على فعله، فأبعده بهرام مرة ثانية حيث ولاه الغربية سنة ٥٣١هـ، وهناك وصلته كتب الأمراء والناس تضج بالشكوى وخشيته على الإسلام والمسلمين ، فانتهز رضوان الفرصة وخطب الناس فى مسجد سخا وحضهم على الجهاد . وينفرد المقريزى بأن رضوان أخرج للناس «كتب الخليفة الحافظ إليه بالتقدم بالسير ونزع الوزارة من يد بهرام، إذ تبين أنه ليس من أهل الملة » . وقد استجاب لرضوان نحو ثلاثين ألفاً من العربان وغيرهم وسار قاصداً القاهرة فخرج إليه بهرام فى عساكر مصر ، فلما تقاربا رفع رضوان المصاحف على الرماح فانضم عسكر بهرام من المسلمين إليه باتفاق كان بينهم وبينه ، فعاد بهرام إلى القاهرة وأرسل إلى الحافظ يعرفه الأمر ، فأمره الخليفة بالمسير إلى الأعمال القوصية عند أخيه حتى ي ى الخليفة رأيه . وقد أورد المقريزى مع هذا رأياً آخر لم يذكره ابن ميسر خلاصته أنه عند ما قرب رضوان من القاهرة جمع بهرام الأرمن إليه وقال لهم : اعلموا أننا قوم غرباء لم

نزل نخدم هذه الدولة والآن فقد كثر بعضهم لأيامنا ، وما كنت بالذى أكون عبد قوم وأخدمهم من حال الصبا ، فلما بلغنى الكبر أقاتلهم ، والله لا ضربت فى وجوههم بسيف أبداً ، سيروا . وأخذ أمراء الدولة وعساكرها يخرجون شيئاً بعد شىء إلى رضوان ، واجتمع بهرام بالخليفة وفاوضه فى أمره ، فقال : غلبنى الإسلام عليك ، فأيس حينئذ وجمع الأرمن وكانوا كلهم منقادين إليه لايخالفونه فى شىء من الأشياء ، وسار بهم نحو بلاد الصعيد » .

ومهما كان أى الأمرين أصح فإن بهرام أخذ معه ما خف حمله وخرج من باب البرقية فى حادى عشر من جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ وسار يريد الصعيد وقد أوسق المراكب بما يحتاج إليه . وما إن انفصل عن القاهرة حتى أخذ العامة ينهبون دور الأرمن وكنائسهم . وطار الخبر إلى قوص فثار المسلمون هناك على الباساك أخى بهرام وقتلوه ومثلوا به وجعلوا فى رجله كلباً ميتاً وألقوه على مزبلة ، فلما وصل بهرام بعد يومين ورأى ما حل بأخيه ، قتل من أهل قوص جماعة ونهبها وسار عنها إلى أسوان فلم يمكنه كنز الدولة وأهلها من دخولها ، فاستقر بالأديرة البيض وهى أماكن حصينة . ويذكر المقريزى أن بهرام عندما خرج قاصداً الصعيد كان غرضه أن يجتمع بأخيه بقوص ويمضوا إلى أسوان فيمتلكوها ويتقووا بالنوبة أهل دينهم .

أما رضوان فقد دخل القاهرة ووقف بين القصرين حتى أذن له الحافظ بالنزول فى دار الوزارة وخلع عليه خلع الوزارة فى الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ . فاستدعى بالأموال من الخليفة وأنفق فى الجند ومهد الأمر . وكان أول ما فعله أن أرسل أخاه ناصر الدين على رأس جيش وأسطول فى طلب بهرام ومعه أمان له ليعود مكرماً هو وطائفة على إقطاعاتهم ، فسار إلى الأديرة حيث تقرر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها على أن يطلق من معه من الجند .

وأخذ رضوان فى إحلال المسلمين فى المناصب التى كانت فى أيدى النصارى وقدم أرباب المعارف من أرباب السيوف والأقلام وأحسن إليهم وزاد فى أرزاقهم

ووجد نصرانياً يدعى بالأخرم قد توصل فى أيام بهرام إلى ديوان النظر وبذل فى كل يوم ألف دينار سوى المؤن والغرامات ، فآذى المسلمين وشق عليهم ، فصرفه واستخدم بدله رجلا مسلماً يقال له المرتضى المحناك بغير ضمان . ثم تشدد فى معاملة النصارى من أصحاب بهرام وصادرهم وقتلهم بالسيف وأباد أكثرهم ، وأمر ديوان الإنشاء بإنشاء سجل فى الوضع من النصارى واليهود ، منعوا فيه من إرخاء الذوائب وركوب البغلات ولبس الطيالسة ، وفرض عليهم شد الزنانير المخالفة لألوان ملابسهم وأن لا يجوزوا على المساجد ركباناً بل عليهم الترجل وأمر أن تؤخذ الجزية منهم من فوق مساطب وهم وقوف أسفلها ، ومنعهم من التكنى بأبى الحسن وأبى الحسين وأبى الطاهر[1] .

---

(١) م . اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٨ ا.

الفصل الثالث

الوزراء والجيش

اقتضت الظروف التى أحاطت بالدولة الفاطمية منذ قيامها حتّى نهايتها أن تعنى عناية فائقة بالجيش حتّى وهى فى حالات ضعفها، إذ أنها دولة قامت فى المغرب لتنشئ خلافة على حساب دولة أخرى ، وواجهت فى أول نشأتها ثورات عديدة ضارية حتّى تمكنت من تثبيت أقدامها ، ثم كان عليها بعد أن أخضعت المغرب أن تولى وجهها قبل المشرق فأرسلت جيوشها لفتح مصر والشام . إلى جانب ذلك كانت محاطة بخصوم أقوياء ، ففى الغرب كان الأمويون فى الأندلس وفى الشرق العباسيون والروم ، فكان عليها أن تحمى نفسها ومستعمراتها فى البحر الأبيض مثل صقلية بأسطول وجيش قويين . وحتّى عندما أخذت الدولة فى الضعف وأخذت ممتلكاتها فى الغرب والشرق تستقل عنها ، ظهر خطر جديد هو السلاجقة والأتابكة علاوة على خطر الصليبيين ، وكان على الدولة لكى تحمى نفسها فى مصر من هذا الخطر وتنقذ بعض مابقى لها فى الشام أن يكون لها الجيش والأسطول اللذان يستطيعان الدفاع عنها ، لذلك كان الجيش فى أواخر أيام الدولة برغم ما أصبحت عليه من ضعف يتكون من أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف راجل وعشر شوانى بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل .

وقد قامت الدولة فى المغرب على أكتاف المغاربة ، فكان منهم جيشها ، وبهم فتحوا مصر ، لذلك كان الجيش الفاطمى يتكون فى أول الأمر من المغاربة من قبائل كتامة وزويلة وصنهاجة والبرقية إلى جانب العنصر الصقلبى [1] . وكانت

---

(١) الصقالبة Slaves وهم الشعوب القاطنة بين جبال أورال والبحر الأدرياتيكى فى أوربا الشرقية والوسطى . ويقسمون قسمين: صقالبة الشمال (الروس والبولونيون) وصقالبة الجنوب أو =

السيطرة والنفوذ لقبيلة كتامة لأن على حرابها قامت خلافتهم فى المغرب .

وعنى الفاطميون بالأسطول عناية كبيرة وكانت بمصر دور صناعة لبناء السفن المختلفة أهمها صناعة الروضة وصناعة الفسطاط وصناعة المقس التى أنشأها المعز وصناعتى الإسكندرية ودمياط . وكانت قوة الأسطول فى زمن المعز كبيرة ، إذ يذكر المقريزى أن المعز أنشأ فى صناعة المقس ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مينا .

وبعد استقرار الأمر للفاطميين بمصر اتجهوا إلى الاستعانة بعناصر أخرى من أجناس مختلفة فصارت طوائف الجند على مدى الأيام تتألف من عدة عناصر كالمغاربة والأتراك والأكراد والأرمن والسودان والمعز والديلم ، وأصبح لفرق الجيش أسماء عدة ، مثل صبيان الحجر وصبيان الخاص كما كانت هناك فرق تنسب إلى الخلفاء وفرق أخرى تنسب إلى الوزراء مثل الوزيرية والجيوشية والأفضلية .

وقد كان للوزراء أثر فيما وصل إليه الجيش الفاطمى من قوة فى بعض الأحيان أو ضعف فى أحيان أخرى ، كما ينسب إليهم إدخال كثير من العناصر التى يتكون منها الجيش . وابن كلس هو أول من كون فرقة جديدة من فرق الجيش تنسب إلى الوزراء ، إذ أنشأ فرقة عرفت باسم الوزيرية ، ولم يذكر المؤرخون جنسية أفراد هذه الطائفة ، وربما كان نواة هذه الفرقة الغلمان الذين أهداهم إليه العزيز ، بعد أن أطلق ابن كلس من الاعتقال سنة ٣٧٤ ﻫ ، ووهبه خمسمائة غلام من الناشئة وألف غلام من المغاربة ملكه العزيز رقابهم ، ويذكر المقريزى فى خططه أن الخليفة بعد وفاة ابن كلس « أقر غلمانه على حالهم ، وقال هؤلاء صنائعى ، وكانت عدة غلمان الوزير أربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية » . فهذه الطائفة إذاً كانت حرساً خاصاً للوزير ، ثم انضموا بعد وفاته إلى الجيش وصاروا فرقة منه ، وقد ظلت هذه الفرقة حتى نهاية الدولة وكانت لهم حارة خاصة عرفت باسمهم .

=اليوغوسلافيون (العرب والكرواثيون والسلوفاكيون والبلغاريون) . ويطلق اللفظ أيضاً على جماعة من العبيد المجنذين فى الخدمة العسكرية .

شيء آخر كان له أثره الخطير فى تاريخ هذه الدولة ، هو دخول عناصر جديدة إلى الجيش الفاطمى هم الأتراك والديلم وقد أدخلهم العزيز كجند مرتزقة وأخذ يعتمد عليهم ويقربهم على حساب العناصر الأخرى من المغاربة مماأوجد التحاسد بينهم . ولم يذكر المؤرخون أثر ابن كلس فى ذلك التطور بل نسبوه للعزيز . ولكن إذا علمنا أن العداء بين ابن كلس والمغاربة كان شديداً وأنهم تآمروا على قتله حتى اضطر إلى استدعاء جند الشام ، وكان هو بدوره يحاول طوال مدة وزارته النيل من مكانتهم وخاصة كتامة إلى جانب سيطرته التامة على الدولة والعزيز ، أمكننا أن نقرر أن العزيز ما أقدم على ذلك إلا بتشجيع من وزيره ، يؤيد ذلك ما ذكره المقريزى وغيره أن ابن كلس « قرر عند مخدومه العزيز جماعة جعلهم قواداً يركبون بالمواكب والعبيد ولا يخاطب واحد منهم إلا بالقائد كما تظهر صلة ابن كلس بالأتراك من أن زوج ابنته كان قائداً تركياً .

وبذلك أصبح الجيش الفاطمى يضم عنصرين هامين هما المغاربة والمشارقة ، وقد دب التنافس والشقاق بين هذين العنصرين ، وظل المغاربة يتحينون الفرصة حتى توفى العزيز وبويع ابنه الحاكم بالخلافة ، فانتهزوا صغر سنه محاولين لاسترجاع نفوذهم ، وسيطرتهم على الدولة ، فدخل مقدمو كتامة على الحاكم وفرضوا عليه تولية شيخهم أبى محمد بن عمار الوزارة ولقب بأمين الدولة . وقد بادر ابن عمار إلى تقريب شيوخ كتامة وولاهم الوظائف الهامة وحط من شأن الأتراك والديلم وأنقص من أعطياتهم وأساء معاملتهم فهرب كثير منهم إلى الشام واصطنع ابن عمار أحداث المغاربة وقواهم بالخيل والسلاح ، فقويت شوكتهم على طوائف الجيش الأخرى وعظم سلطانهم وأساءوا إلى الناس كما أساءوا إلى الخليفة حتى فكروا فى خلعه وقتله .

وكان برجوان الوصى على الخليفة ، يراقب الأمور ويتحين الفرصة للإيقاع بابن عمار ووجد فيه الأتراك والديلم الزعيم الذى ينضوون تحت قيادته لمحاربة نفوذ أعدائهم المغاربة . وبادر برجوان بمراسلة منجوتكين قائد الأتراك بالشام يطلب منه الحضور إلى مصر بقواته لإنقاذ خليفته من يد المغاربة ويبين له ما ارتكبه

المغاربة فى حق الخليفة والناس ، وأن الديلم والأتراك عبيد القصر سيكونون له عوناً على ذلك . فبادر منجوتكين لتلبية رجاء برجوان فخرج قاصداً مصر وقد انضم إليه كثير من عرب الشام . إلا أن ابن عمار وقد أحس بما دبره برجوان مع منجوتكين وبخروج الأخير لحربه أسرع بإرسال قواته من المغاربة بقيادة سليمان بن جعفر بن فلاح ، وتقابلت القوتان بظاهر عسقلان وتقاتلتا ثلاثة أيام انتهت بانتصار سليمان وأسر منجوتكين بعد أن قتل الكثير من أصحابه ، فازداد المغاربة طغياناً وتطاولاً ، ولكن برجوان لم ييأس وساعدته الظروف بانضمام جيش ابن الصمصامة إليه ، وكان جيش هذا من شيوخ كتامة وقوادها وكان والياً على طرابلس وقد عزله سليمان لعداوة بينهما ، فقصد إلى برجوان سراً وأعلمه بغض أهل الشام للمغاربة واستيحاشهم منهم ، وما إن رأى برجوان أن معظم القوات المغربية موجودة بالشام ، وخلو مصر والقاهرة إلا من العدد القليل منهم حتى بادر بانتهاز الفرصة وراسل الأتراك والمشارقة وقال لهم : « قد عرفتم صورتكم وصورة الحاكم مع هؤلاء القوم وأنهم قد غلبوا على المال وغلبوكم ، ومتى لم ننتهز الفرصة فى قلة عددهم وضعف شوكتهم سبقوكم إلى ما لا يمكنكم تلافيه » . فاجتمع الأتراك والديلم والمشارقة وعبيد الشراء على حرب المغاربة حتى انتصروا عليهم وهرب الحسن بن عمار .

وأرسل برجوان إلى أهل دمشق وإلى الجنود المشارقة بها للقيام على سليمان بن فلاح ومن معه من المغاربة ، فهاجموا قصره واضطروه للهرب وأوقعوا بمن كان فى البلد من كتامة وقتلوا منهم عدة ، واستمال برجوان المشارقة واستدعاهم من البلاد ، فاجتمع عنده منهم ثلاثة آلاف رجل ، كما كون لنفسه طائفة من الجند أسكنهم فى حارة عرفت باسمه وبذلك ضعف أمر كتامة خاصة والمغاربة عموماً ولم يعد لهم نفوذ يذكر ، وما زال أمرهم يتلاشى حتى أصبحوا فى عهد بدر الجمالى « من جملة الرعية بعد ما كانوا وجوه البلد وأكابر أهلها » .

وبعد أن قتل الحاكم برجوان كادت أن تحدث فتنة جديدة بين المشارقة والمغاربة ، ولكن الحاكم استطاع تهدئة النفوس بمعاونة الحسين بن جوهر الذى

آصبح واسطة له . ويبدو أنه خشى الاعتماد على إحدى الطائفتين فأحاط نفسه بحرس من العبيد .

وظل التنافس بين هذه العناصر المختلفة يظهر حيناً ويختفى حيناً حسب قوة الخلفاء والوزراء ، وقد كادت تحدث ثورة بين الجند عقب وفاة الظاهر بسبب مطالبة الجند بأرزاقهم وخلو الخزائن من الأموال بسبب إسراف الظاهر ، وتزعم هذه الحركة الكتاميون والعبيد وتجمهروا أمام القصر ، ولكن الجرجرائى تمكن من إرضائهم وتهدئة ثائرتهم . وساد الهدوء طوال وزارته ، فيما عدا فترات قليلة كان النزاع يتجدد بين المغاربة والأتراك .

فلما مات الوزير استطاعت أم المستنصر أن تسيطر هى وحاشيتها ، وعلى رأسهم التسترى ، على الدولة ، وكان لذلك أثره فى الجيش فقد أخذت أم المستنصر تستكثر من أبناء جلدتها العبيد حتى بلغوا على مايذكر المقريزى نحواً من خمسين ألف أسود ، واستكثر المستنصر من الأتراك . فلما وزر الفلاحى وجد أن أمره لايستقيم مع سيطرة التسترى ، فأخذ يستميل الأتراك ويزيد فى واجباتهم ويحرضهم على التسترى حتى قتلوه ، فغضبت أم المستنصر وأخذت تتحين الفرص حتى قبضت على الفلاحى وقتلته ، واحتضنت العبيد وخصتهم برعايتها حتى « صار العبد يحكم حكم المولى ، وكرهت أم المستنصر الأتراك » .

فلما وزر أبو البركات الجرجرائى أمرته أم المستنصر أن يشجع العبيد ويغريهم بالأتراك ولكنه خشى العاقبة ورفض إطاعتها فصرفته من الوزارة وأقرت مكانه اليازورى يدها اليمنى الذى استطاع أن يسوس الأمور طيلة وزارته ، فلم تتمكن أم المستنصر من إثارة الفتن بين العبيد والأتراك .

فلما وزر بعده البابلى أمرته أم المستنصر أن يغرى العبيد بالأتراك ، فأخذ فى أسباب ما أمرته ، فتغيرت نياتهم وصار ، فى قلب كل طائفة من الأخرى إحن فكانت بدء الخراب . ولم تجد أم المستنصر من يكبح جماحها وأخذ الوزراء يتساقطون تساقط أوراق الخريف ، فخلا الجو لها فى تقوية عبيدها على الأتراك حتى حدثت الفتنة الكبرى سنة ٤٥٤ هـ بين العبيد والأتراك ووقعت الحروب بينهم ،

وكانت أم المستنصر تعين العبيد بالمال والسلاح ، وحاول الوزير أبو الفرج محمد ابن جعفر المغربى الإصلاح بينهم ولكنه لم يفلح ، واستطاع الأتراك الانتصار على العبيد وطردهم إلى الصعيد ودخلت البلاد فى فوضى دمرت كل شىء ، وأصبح السلطان كله فى يد الجيش المنقسم على نفسه كل فرقة تحكم ماتحت يدها .

وفى سنة ٤٦١ هـ استطاع الوزير خطير الملك من أن يوقع الفتنة بين الأتراك وقائدهم ناصر الدولة حمدان ، إذ شكا له الأتراك تفرد ابن حمدان بالأمر واستيلاءه على مايخرج من أموال من الخليفة ، فقال لهم : « إنما هذا وغيره بكم ولو فارقتموه لم يتم له أمر » ، فاتفقوا على محاربته وطلبوا من المستنصر إخراجه ونهبت دوره ، ولكن ناصر الدولة تمكن بمعونة القائد تاج الملوك شاذى من قتل الوزير وإن لم يتمكن من قتل الدكز قائد الترك المتآمرين عليه ، ونشب القتال بين الفريقين فانهزم ابن حمدان وأصحابه ، وخرج إلى عرب بنى سبنسى ونزل فيهم وتزوج منهم ، وحاول ابن حمدان أن يقيم الدعوة العباسية بمساعدة من ألب أرسلان ملك العراق الذى أخذ يستعد لغزو مصر لولا أن وصله الخبر بقصد الروم خراسان فرجع إلى بلاده . واستولى ابن حمدان على الريف والإسكندرية ودمياط وقطع المسيرة عن القاهرة ومصر واستمرت الفوضى والاضطرابات ، وانتشرت المجاعة التى امتدت سبع سنين من سنة ٤٥٧ إلى سنة ٤٦٤ هـ ولم يستطع الوزراء أن يصرفوا الأمور لقصر مدتهم ، وكان الوزير « منذ يخلع عليه إلى أن ينصرف لا يفيق من التحرز ممن يسعى إليه عند السلطان ، وتقف عليه الرجال ، فما يكون فيه من فضل عن الدفاع عن نفسه ، فخربت أعمال الدولة وقل ارتفاعها وتغلب الرجال على معظمها ، وتجرءوا على الوزراء واستخفوا بهم وجعلوهم خوضاً لسهامهم » وصار النيل يطلع وينزل فلا تجد الأرض من يزرعها لانعدام الأمن وانقسام البلاد بين طوائف الجند إذ صارت الصعيد تحت سيطرة العبيد ومصر والقاهرة فى يد الأتراك الريف والإسكندرية ودمياط تحت سلطان ابن حمدان ومن انضم إليه من العرب والبربر . ثم تمكن ابن حمدان من دخول القاهرة واستبد بالسلطة إلى أن تمكن الدكز من قتله وقتل أخيه

وأنصاره كما قتل الوزير أبا غالب عبد الظاهر بن العجمى ، وأصبح الأمر فى يد الأتراك حتى جاء بدر الجمالى واستولى على الحكم .

وكان دخول بدر مصر إيذاناً ببدء تحول كبير فى تنظيم الجيش الفاطمى ، إذ أصبح الوزير قائد الجيش الأعلى وأصبح لقبه أمير الجيوش . كما أن بدراً شرط على المستنصر عندما دعاه إلى تولى الأمر ، أن يستخدم معه عسكراً ولا يبقى على أحد من عساكر مصر ولا وزرائهم ، وقد أجابه المستنصر إلى ذلك ، لذلك كان أول مافعله عندما دخل القاهرة سنة ٤٦٦ هـ أن تخلص من قواد الترك بالقتل واستباحة أموالهم فلم يُبق منهم أحداً ، فكان فى ذلك القضاء المبرم على الجند الأتراك . ويصف المقريزى ما فعله بدر بالأتراك فيقول : إن بدراً لما دخل القاهرة « تلقاه أهل الدولة وأنزلوه وبالغوا فى إكرامه ، فأظهر أنه ما جاء إليهم إلا شوقاً إليهم وخدعهم بما أبداه من المحبة لهم وكثرة التعلق وأعرض عن المستنصر ولم يذكره إلا بالسوء ، وصار ومن معه يدخلون إلى القاهرة وحداناً ورجالا فى الخفية حتى تكامل منهم تسعمائة ، ثم أخذ مع الأمراء فى الأكل والشرب واللذات إلى أن اشتد تأنسهم له ، فاستدعاه كل منهم إلى ضيافته وهو آخذ فى أسباب ما دعى له ، فلما انقضت أيام ضيافتهم له استدعى أمراء الدولة ومقدميها فى صنيع أعدت لهم فحضروا إليه وقضوا نهارهم عنده وباتوا فى أطيب عيش وأنعم بال ، وقد رتب أصحابه ليقتل كل واحد أميراً من الأمراء ويكون له جميع مابيده ، فلما سكروا وامتد عليهم رواق الليل صار يخرج كل واحد من باب ويسلمه إلى غلام من غلمانه ، ويمضى إلى داره فيتسلمها بما فيها من الحريم والأموال ، فلم يصبح الصباح إلا ورءوس الجميع بين يديه وقد استولى كل رجل من أصحابه على دار أمير من الأمراء وأحاط بجميع ما كان له ، وأخذ فى القبض على الأتراك وتتبعهم حتى لم يدع منهم أحداً يشار إليه » .

وفى سنة ٤٦٧ هـ خرج بدر إلى الوجه البحرى حيث قضى على بربر لواته وبقية الجند المفسدين ، ثم توجه إلى الصعيد سنة ٤٦٩ هـ فقضى على طوائف

الجند المفسدين هناك من العرب والسودان وأفنى أكثرهم ، وبذلك خلت مصر من كل طوائف الجند التى عانت من ثوراتها الشىء الكثير ، ولم يبق فى الميدان إلا الجند الأرمن الذين حضروا مع بدر من الشام والذين عرفوا بالجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر ، وأسكنهم حارة الحسينية التى كانت للسود . ومنذ ذلك الوقت أصبح معظم الجيش من الأرمن ، وتلاشى أمر المغاربة والأتراك وأصبحوا من جملة الرعية . ولكن بدراً اضطر إلى الاستعانة بالمصريين عندما هاجم أتسز صاحب دمشق مصر، وحذا حذو جوهر الصقلى من قبل عندما هاجمها القرامطة ، فوزع على المصريين السلاح وانضم إليه الكثيرون منهم حتى خرج لملاقاة أتسز فى ثلاثين ألف مقاتل . ويظهر أن الجند المصريين لم يكن ينظر إليهم على أنهم جند مهرة ، إذ أن أتسز عندما جمع أصحابه للمشورة أشار عليه بعضهم بالعودة إلى الشام ، ولكن أخاه وابن بلدكوز اللذان حرضاه على دخول مصر ، هونا عليه الأمر ، وألا يأبه لكثرتهم « فإنما هم سوقة وصيحة واحدة تهزمهم » .

ولكن المصريين خيبوا ظنهم واستطاعوا القضاء على جيش أتسز وقتل أخيه وكثير من أصحابه ، وفر أتسز وحيداً إلى الشام . ومنذ ذلك الوقت ظل يتردد اسم العساكر المصرية والأمراء المصريين كجزء من الجيش .

وفى عهد الأفضل نسمع عن أسماء فرق جديدة فى الجيش مثل العطوفية ، والبساطية علاوة على فرق الأرمن ، كما ظلت الحكومة تعتمد فى الدفاع عن البلاد عند وقوع هجوم مفاجئ ، على العرب وأصحاب الإقطاعات ، فكان هؤلاء يمثلون خط الدفاع الأول حتى يتمكن الجيش العامل من الاستعداد للمعركة .

ولاشك أن للظروف التى كانت تمر بها البلاد فى ذلك العهد وظهور الخطر الصليبى أثره فى اهتمام الأفضل ومن جاء بعده بالجيش للدفاع عن مصر بعد أن أصبح الخطر قريباً منها ، كما عنوا بالأسطول للدفاع عن سواحل مصر من غارات الإفرنج ، لذلك أمر المأمون بن البطائحى بتجديد صناعة الجزيرة وصناعة الفسطاط وأمر أن يكون إنشاء الشوانى بالصناعة بمصر وأن تكون صناعة

الحراق والشلنديات فى الصناعة بالجزيرة .

ويبدو أن المأمون خشى الاعتماد كلية على الجند الأرمن لولائهم لأولاد الأفضل فأنشأ فرقة خاصة كحرس خاص به عرفت بطائفة المصامدة جعل على رأسهم عبد الله المصمودى ، وأصبحت هذه الفرقة جزءاً من الجيش الفاطمى ، واختط المأمون لهم حارة عرفت بحارة المصامدة ذكرها المقريزى فى خططه بقوله : «هذه الحارة عرفت بطائفة المصامدة إحدى طوائف عساكر الخلفاء الفاطميين ، واختطت فى وزارة المأمون البطائحى وخلافة الآمر بأحكام الله بعد سنة ٥١٥ ه . قال ابن عبد الظاهر ، حارة المصامدة مقدمهم عبد الله المصمودى وكان المأمون البطائحى وزير الآمر قدمه ونوه بذكره وسلم له أبوابه للمبيت عليها ، وأضا إليه جماعة من أصحابه ، فلما استخلص المصامدة وقربهم مسير أبا بكر المصمودى ليختار لهم حارة ، فتوجه بالجماعة إلى اليانسية بالشارع فلم يجد بها مكاناً ووجدها تضيق عنهم ، فسير المهندسين لاختيار حارة لهم فاتفقوا على بناء حارة ظاهر باب الحديد » . ولكن القلقشندى يذكر أنهم من البربر الذين قدم آباؤهم مع المعز من المغرب . والمقريزى لم يذكر جنسية هؤلاء الجند . ومن الملاحظ أن كل وزير بعد بدر الجمالى أصبح له حرسه الخاص .

ولقد ظل الجيش يدين بالولاء لبيت بدر الجمالى برغم مرور عشر سنوات على وفاة الأفضل . فإن الحافظ لدين الله عندما تولى الخلافة بعد الآمر فى المحرم سنة ٥٢٥ ه خلع على هزار الملوك خلع الوزارة ، ولكن اجتمع بين القصرين خمسة آلاف فارس وراجل على رأسهم رضوان بن ولخشى ، وما إن رأوا أبا على أحمد بن الأفضل حتى تواثبوا إليه وقالوا : هو الوزير بن الوزير بن الوزير ، وأصروا على أن يكون الوزير فخلع عليه . وقد أقطع أبو على البلاد للحجرية [1] .

(١) صبيان الحجر أو الحجرية ، وهم جماعة من الشباب يناهزون خمسة آلاف نفر يقيمون فى حجر منفردة لكل حجرة منها اسم يخصها ، وعدتهم كاملة وعللهم مزاحة ، ومتى طلبوا لمهمة لم يجدوا عائقاً ، وللصبيان منهم حجرة منفردة يتسلمها بعض الأستاذين ، وكانت حجرتهم بمعزل عن القصر داخل باب النصر .

ولكن الجيش أو جزءاً منه على الأقل وهم صبيان الخاص[١] ، لم يرضوا بسياسة أبي على خصوصاً محاولته القضاء على الدولة فدبروا بقيادة يانسى قتله ونفذوا ذلك فى المحرم سنة ٥٢٦ هـ .

ونسمع لأول مرة منذ وزارة بدر عن الجند المغاربة من كتامة فيذكر ابن خلدون أنه تنكر ليانسى « أولياء الشيعة ومماليك الخلفاء. وداخل يا سى الجند من كتامة وغيرهم فى شأنه واتفقوا على قتله » .

ولما ولى يانسى الوزارة تخوف من صبيان الخاص وهم حرس الخليفة ، وخشى أن يفعلوا به ما فعلوه بأبى على ، وشعروا هم منه بذلك فتغيرت النيات وتأكدت الوحشة بينهم وبينه ، فركب فى خاصته وغلمانه ومعه العسكر ، والتقى بصبيان الخاص وكانوا نحو الخمسمائة فى موقعة قبالة باب التبانين بين القصرين فقتل منهم مايزيد على ثلثمائة فارس من أعيانهم منهم قتلة أبى على أحمد وبذلك كسر شوكتهم وأضعفهم .

وبعد أن مات يانسى فى ذى الحجة سنة ٥٢٦ هـ ظل الحافظ مدة بدون وزراء ، ثم عهد إلى ابنه الأكبر سليمان سنة ٥٢٨ هـ وجعله مقام الوزير ، ولكنه مات بعد شهرين فعين مكانه ابنه حيدرة ، فشق ذلك على حسن بن الحافظ لطمعه فى ولاية العهد والوزارة ، وقام نزاع بين حسن من جهة وأبيه وأخيه حيدرة من جهة أخرى ، وانقسم الجيش إلى قسمين ، قسم مع الخليفة وابنه وهم الجيوشية والقسم الآخر مع حسن وهم الريحانية السودانيين ، ونشب القتال بينهما . وانتهى الأمر بقتل حسن بعد أن أدت الفتنة بين فرق الجيش إلى إضعافه وإضعاف الدولة بفقد عساكرها وقتل أمرائها .

وانقضت المدة الباقية من حكم الفاطميين فى صراع مستمر بين الوزراء المتنافسين على السلطان والذين استعانوا بالفرق المتنافسة فى الجيش . وقد جاء

---

(١) وهم جماعة من أخصاء الخليفة نحو خمسمائة نفر منهم أمراء وغيرهم – وأصل هذه الطائفة أن من مات من الأمراء والأجناد وعبيد الدولة وله ولد ، كان يحمل إلى حضرة الخليفة ويودع فى أماكن خاصة ويؤخذ فى تعليمهم أنواع الفروسية من الرمى وغيره .

بهرام الأرمنى إلى الوزارة بتعضيد من الجيش وكان معه من الجند والأرمن ألفان ، واتجه بعد ذلك إلى الإكثار من الأرمن حوله حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً مما أثار سخط الأهالى وتخوف طوائف الجيش الأخرى ، لذلك أرسل الأمراء المصريون إلى رضوان بن ولخشى والى الغربية الذى أخذ يحث الناس على الجهاد وجمع حوله من العربان وغيرهم نحواً من ثلاثين ألفاً ودخل القاهرة .

وقد بادر رضوان بعد توليه الوزارة إلى استرضاء الجند ففرق فيهم الأموال ، وأرسل أخاه ناصر الدين خلف بهرام ، ولكن استقر الرأى بدون قتال على إقامة بهرام بالأديرة البيض بأسوان وفارقه أكثر الأرمن ، « فمنهم من سار إلى بلاده ومنهم من أقام بأرض مصر ليكونوا فلاحين ، فسأل لهم (بهرام) مواضع يسكنونها ، فأفردت لهم جهات منها سمالوط وأبوان وقلوصنا والبرجين فى صعيد مصر وضيعة أخرى بأعمال المحلة » ، ولكن رضوان مال على النصارى وطردهم من مناصبهم ثم زاد فى تشدده على أصحاب بهرام فصادرهم وقتلهم بالسيف وأباد أكثرهم . وبذلك قضى رضوان على الجند الأرمن كما قضى بدر على الأتراك من قبل ، وأصبح أكثر جنده من العرب ، هذا وإن ظلت هناك فرقتان هامتان هما الجيوشية والريحانية .

ولما نشب النزاع بين الخليفة ورضوان ، بادر الحافظ باستمالة الجند ولم يستطع رضوان برغم استبساله إلا الفرار إلى الشام .

ولم تقف ثورات الجند بعد ذلك حتى نهاية الدولة ، ففى شعبان سنة ٥٤٤ﻫ ثار جمع كثير من السودان وعدة من المفسدين فى بعض القرى فخرج إليهم الوزير ابن مصال وحاربهم حتى كسرهم ، ولكن ابن السلار والى الإسكندرية خرج على ابن مصال وجاء إلى القاهرة يبغى الوزارة فانضم إليه الأمراء ، فخرج ابن مصال إلى الجيزة بعد أن زوده الخليفة الظافر بالأموال ، واستولى ابن السلار على الوزارة ، واتفق الجند على طاعته. وجمع ابن مصال كثيراً من السودان والعربان ولواته وغيرهم والتقى الجمعان حيث هزم ابن مصال إلى الصعيد وأخذ يحبذ القوات من العربان ، وشرع ابن السلار يجهز ربيبه عباساً فى جيش كثيف حتى يبادر ابن مصال قبل أن

يجتمع الجند عليه، ودارت عدة وقائع انتهت بقتل ابن مصال ومقدم العربان، وبلغ عدد القتلى سبعة عشر ألفا . وأخذ ابن السلار منذاستقر فى الوزارة فى تقريب الأمراء والأجناد المعروفين بالشجاعة والإقدام وزاد فى أرزاقهم . وأحاط نفسه بحرس خاص من الأتراك . خوفاً من أن يغدر الخليفة به ، وكان عدة حرسه ستمائة رجل يمشون فى ركابه بالزرد والخوذ ، كما أمعن فى إضعاف قوة الخليفة بقتل غلمانه المعروفين باسم صبيان الخاص ، فأغلق القاهرة والقصور وقتل أكثرهم وفر منهم عدة ، فكتب إلى الولاة بقتل من ظفر به منهم وأخذ يتبعهم حتى أتى على أكثرهم وبعث بمن بقى منهم فركزهم فى الثغور ، ويقال فى سبب قتلهم إنهم دبروا مؤامرة للهجوم عليه فى داره وقتله .

ولما قتل عباس ابن السلار أخذ يتقرب إلى الأمراء ويحسن إلى الأجناد حتى ينسوا ابن السلار ، ولكن حرس ابن السلار التركى لم يطمئن لعباس فغادر البلاد إلى دمشق برغم محاولته استرضاءهم ، ثم ارتكب عباس جريمة أخرى بقتل الخليفة فنفر منه الأمراء والسودان وناصبوه العداء ، واختلفت عليه الجند وهاجت الفتنة وصار العسكر أحزاباً ولبسوا السلاح فخرج إليهم عباس فى يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ . وجاء طلائع بن رزيك تلبية لدعوة عمة الخليفة وقد انضم إليه عرب البلاد وأمراء الجند ، وتحقق عباس عداوة الجند والأمراء وأنه لا مقام له بينهم ولم يجد مندوحة من الرحيل عن مصر إلى الشام .

أما عن الصالح طلائع فمما يؤخذ عليه « الميل على جانب الجند وإضعافهم والقص من أطرافهم . وما فعله الصالح شىء طبيعى بالنسبة لهذه الفترة من عصر الفاطميين ، فإن الوزراء الذين جاءوا بقوة السلاح كانوا يبادرون بالتخلص من الأمراء المنافسين أو الذين يخشون منافستهم ، ومن الجند الذين يتوقعون منهم الثورة عليهم ، ثم يكونون فرقاً يطمئنون إلى ولاء جندها . وقد أنشأ الصالح فرقة يقال لهم البرقية عدتهم فوق السبعين أميراً ، وجعل على رأسهم ضرغاماً الذى صار وزيراً فيما بعد بمساعدة البرقية هؤلاء . وبرغم محاولة الصالح إضعاف غيره

من الأمراء ، فإنه اهتم هو وابنه العادل من بعده بالجيش والأسطول للجهاد ضد الصليبيين ، إذ يذكر المقريزي نقلا عن الأسعد بن مماتى « أن عدة الجيوش بمصر أيام رزيك بن الصالح كانت أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف راجل من السودان وزاد غيره وعشر شوان بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل وهذا عند انقراض الدولة الفاطمية » . ثم يعود فيذكر فى موضع آخر من الخطط أن آخر ماوصلت إليه قوة الأسطول فى آخر الدولة نحو الثمانين شونة وعشرة مسطحات وعشر حمالات وأنه ظل كذلك حتى وزارة شاور .

ولكن العادل لم يكن فى قوة أبيه حتى إن غلمان أبيه لم يمتثلوا لأمره فلم يجد شاور أية صعوبة فى القيام ضده والاستيلاء على الوزارة إذ انضم إليه ضرغام وغيره من وجوه الأمراء من عسكر بنى رزيك ، فلما اجتمعوا بشاور أسقط فى أيدى العسكر الباقى مع بنى رزيك ، وما إن وصل شاور إلى القاهرة حتى زالت دولة بنى رزيك .

وما لبث أمراء البرقية أن انقسموا على أنفسهم فظل فريق مع شاور والفريق الآخر بقيادة ضرغام الذى تمكن من الاستيلاء على الوزارة وطرد شاور لمدة تسعة أشهر تمكن بعدها شاور من العودة بمساعدة نور الدين صاحب دمشق . وقد تنكر ضرغام مدة وزارته لرفاقه أمراء البرقية لظنه أنهم كاتبوا شاور يحثونه على العودة إلى مصر فدعاهم إلى دار الوزارة ليلا وقتلهم ، وكانوا نحو سبعين أميراً سوى أتباعهم ، فكان فى ذلك القضاء على قوة الدولة وإضعاف لها مما عجل بسقوطها . وانتهت الفترة الأخيرة للدولة فى صراع بين شاور وضرغام ثم فى تنافس بين الصليبيين ونور الدين على امتلاك مصر . وعانت مصر من ذلك الصراع الكثير حتى إن شاور أمر بإحراق الفسطاط ، كما أمر بإحراق الأسطول عندما نزل الفرنج على بركة الحبش قرب القاهرة ، ونهبهم العبيد فيما نهبوا .

ولما دخل شيركوه البلاد أصبحت الجند من الغز إلى جانب الجند المصريين ، ويذكر المقريزى أنه كان هناك من طوائف الجند المصرية فى ذلك الوقت ،

الريحانية والفرحية من السودان والجيوشية والوزيرية والأرمن ، وقد تجمع من هؤلاء ومن العامة نحو من خمسين ألفاً لقتال صلاح الدين بعد قتله مؤتمن الخلافة جوهر أحد الأستاذين المحنكين بالقصر ، والذى كان يتآمر مع الفرنج ضد صلاح الدين ، وقد استطاع صلاح الدين القضاء على الثائرين قضاء مبرماً سواء منهم العبيد والأرمن حتى لم يبق منهم إلا الشريد .

الباب الخامس

الوزراء والسياسة العربية

تمهيد

عندما فتح الفاطميون مصر حتمت عليهم الظروف العسكرية والسياسية أن يضموا إلى أملاكهم الشام والحجاز ، فالشام فى كل عصور التاريخ كانت امتداداً طبيعيًّا لمصر المستقلة ، كما أن فى ضم الشام تأميناً لحدود مصر الشرقية ضد الروم والعباسيين ، وفى الوقت نفسه تعتبر نقطة وثوب إلى العراق فى الوقت المناسب . أما الحجاز فمركزها الدينى دفع الخلافتين العباسية والفاطمية إلى التنافس وبذل كل مستطاع لبسط نفوذها عليها ، وهذا مادفع المعز سنة ٣٤٨ ﻫ وهو بالمغرب إلى إرسال رسله سرًّا لإصلاح ذات البين بين بنى الحسن وبنى جعفر ، وتحمل المعز ديات القتلى. فصارت هذه الفعلة يداً عند بنى حسن للمعز ، فلما فتح جوهر مصر بادر حسن بن جعفر الحسنى بالدعاء للمعز فى مكة.

وبذلك أصبح سلطان الفاطميين يمتد من شواطئ المحيط الأطلنطى حتّى آخر حدود الشام والحجاز ، بل امتد سلطانهم إلى الموصل ودعى للخليفة الفاطمى على منابر بغداد . وقد تعرضت هذه الدولة المتسعة الأطراف لكثير من الأحداث ، وظلت بين مد وجزر حتّى انتهى بها الأمر إلى أن تقوقعت على نفسها فى مصر حتّى لاقت نهايتها على يد صلاح الدين . وإذا استعرضنا تاريخ هذه الدولة على مدى قرنين من الزمان هما مدة وجودها ، للمسنا أثر الوزراء فيما بلغته من مجد وفيما وصلت إليه من ضعف .

وسنستعرض علاقة مصر بكل جزء من العالم العربى على حدة لنعرف الدور الذى لعبه الوزراء فى هذه العلاقة وما جرته سياسة الوزراء من تقوية للروابط أو انفصام لها .

الفصل الأول

الوزراء والمغرب

المغرب هو المهد الذى نشأت فيه الخلافة الفاطمية وعلى رماح سكانها قامت دولتهم وبهم فتحوا الأمصار . وعندما غادر المعز المهدية عاصمته فى المغرب قاصداً مصر ليتخذها دار خلافته « نظر فيمن يوليه أمر إفريقية والمغرب ممن له الغناء والاطلاع وبه الوثوق من صدق التشيع ورسوخ القدم فى دراية الدولة » ، فوقع اختياره على بلكين بن زيرى بن مناد وولاه إفريقية وسماه يوسف بدلا من بلكين وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة وأنفذ أمره فى الجيش والمال وأطلق يده فى الأعمال وأوصاه بثلاث ، ألا يرفع السيف عن البربر ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ، ولا يولى أحداً من أهل بيته . ومنذ ذلك الحين وملك المغرب فى يد يوسف وأولاده وأصبحت العلاقة بين المغرب ومصر علاقة روتينية تتمثل فى الدعاء للخليفة على منابره وانتظار سجل الولاية والخلع من الخليفة ، وقد ساعد على هذا الوضع انشغال الدولة بأمور الشرق ومشكلاته .

ولما تولى العزيز الخلافة أصبح ابن كلس المسيطر على شئون هذه الإمبراطورية ، وقد زاد فى عهده نفوذ يوسف بلكين إذ أقره على ولاية إفريقيا وأضيفت إليه ولاية طرابلس وسرت وإجدابية ، فعظم أمره واستبد بالملك ، « وكان يظهر الطاعة مجاملة ومراقبة لاطائل تحتها » . وظلت طرابلس بأيدى آل زيرى حتى أرسل برجوان جيشاً استولى عليها سنة ٣٩٠ هـ وولى عليها يانسى العزيزى وخرج عنها واليها من قبل الزيريين عصولة بن بكار وجاء بأهله وولده إلى مصر ، ولكن طرابلس سرعان ماعادت إلى ولاة المغرب مرة أخرى بعد وفاة برجوان .

واستمرت العلاقة بين آل زيرى ومصر تسير هادئة حتى ولى المعز بن باديس بن زيرى ملك المغرب سنة ٤٠٦ هـ فلما اشتد عوده تحول عن الولاء للفاطميين وانحرف عن المذهب الشيعى إلى المذهب السنى ، وأخذ العامة

يتتبعون الشيعة بالقتل وكان ذلك فى عهد الظاهر ، وبرغم أنه كان لهذا العمل وقع سيئ فى القاهرة إلا أن أولى الأمر تغاضوا عن ذلك ، واعتذر المعز ملقياً التبعة على العامة ، فلم يجد المسئولون بداً من قبول عذره ، وأخذ الجرجرائى يكاتب المعز ليعيده إلى طاعة الفاطميين ، وكان المعز بدوره يحاول استمالته ويعرض بالفاطميين ومذهبهم ، ومع ذلك ظلت العلاقات ودية والمكاتب والهدايا متبادلة بين الطرفين ، إذ يذكر المقريزى فى حوادث سنة ٤٢٠ هـ أن المعز بعث بكتاب وهدية جليلة إلى الظاهر الذى جلس فى الإيوان حيث قرئ عليه الكتاب وعرضت الهدية فى يوم الأحد الثامن من شوال . وقابل الظاهر ذلك بهدية تحتوى كثيراً من النفائس . كما أرسل المعز هدية أخرى فى ذى القعدة سنة ٤٢٣ هـ .

إلا أن الأمر اختلف فى وزارة اليازورى حيث ساءت العلاقة بين الوزير والمعز وتطور إلى خلاف شخصى ، إذا يذكر المؤرخون أن ملوك الأطراف كاتبوا اليازورى بما يليق بمكانته فيما عدا المعز فإنه « قصر فى المكاتبة عما يكاتب به من تقدمه من الوزراء » فإنه كان يكاتب كلا منهم « بعيده »، فجعل مكاتبته « صنيعة » ، فاستدعى الوزير أبا القسم ابن الإخوة وكيل ابن باديس بمصر ، وعتب صاحبه عنده، وقال : « أظن معزاً ينقصنى عن من تقدمنى إذ لم أكن من أهل صناعة الكتابة ، وإن لم أكن أوفى منهم ، فما أنا دونهم ، ومن رفعه السلطان ارتفع وإن كان خاملا ، ومن وضعه اتضع وإن كان جليلا نبيلا ، فاكتب إليه بما يرجعه إلى الصواب » . فكتب إليه بذلك ، وقد أذكى الوزير عليه عيوناً يطالعونه بأنفاسه ، فلما وقف على كتاب ابن الإخوة قال : « ماالذى يريد منى هذا الفلاح ، أكنت عبده إلا كان هذا ، ولا يكون أبداً ، وما كتبت إليه فكثير ».

واشتد الخلاف ، ووجد المعز الفرصة سانحة لإظهار ما فى نفسه ، فأعلن سنة ٤٤٣ هـ خلع طاعة الفاطميين والولاء للعباسيين ، فأشار اليازورى على الخليفة بإرسال القبائل العربية من أحياء هلال من زغبة ورباح وربيعة وعدى

الموجودة بمصر ، والتى كانت الدولة تعانى من عدم تمسكها بالنظام ومضايقتها للأهلين الشيء الكثير ، لاحتلال ديار المعز وتوليتهم أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها « فإن صدقت المخيلة فى ظفرهم بالمعز وصنهاجة كانوا أولياء للدعوة وعمالاً بتلك القاصية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة ، وإن كانت الأخرى فلها مابعدها ، وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك » . وحازت فكرة اليازورى القبول ، وتقرر أن تقوم هذه القبائل بمهمتها بعد أن أزيل مابينها من خلاف وتحمل الخليفة ما بينها من ديات ، ثم أجزل العطاء لأمرائها وأعطى لكل فرد من عامتهم ديناراً وبعيراً . وكان الشخص الذى اختير لإزالة خلافات هذه القبائل والفصل فيما ينشأ بينها من خلاف هو الأمير أمين الدولة ومكينها أبو على الحسن بن على بن ملهم بن دينار العقيلى أحد أمراء الدولة ومن كبار قوادها . وقد ظل هذا الأمير ملازماً لهذه القبائل فى هجرتها كسفير للخلافة إن لم يكن كقائد لها ينظم أمورها ويزيل خلافاتها ، ولم يزل معهم حتى وصلوا إلى غايتهم وحاصروا المعز فى المهدية ، ثم عاد إلى القاهرة محملا بالأسلاب ، والغنائم التى نهبت من قصور بنى باديس ، ومعه بعض أمراء إفريقية المستأمنين .

وقد تبعت هذه الهجرة هجرات أخرى من عرب بنى هلال الذين لحقوا بإخوتهم وأبناء عمومتهم ليشاركوهم فيما نالوه من غنائم وأسلاب ، كما انضمت إليهم القبائل العربية التى كانت موجودة بالمغرب منذ الفتح .

ويرى الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس أن هذه التغريبة كانت أشبه بهجرة بشرية ونقلة جماعية ، منها بجيش منظم ، وأنها كانت بطيئة فى حركتها طبيعية فى مظهرها ، حتى إن المعز بن باديس لم يأبه لها ولم يشعر بالخوف منها أول الأمر ويبدو أن مرجعه فى ذلك ما ذكره ابن خلدون من أن المعز لما سمع بقدوم العرب إلى برقة « احتقر شأنهم واشترى العبيد واستكثر منهم حتى اجتمع له منهم ثلاثون ألفا » ، إلا أنه يمكن مخالفة هذا الرأى للأسباب الآتية :

أولا : حقيقة أن هذه الهجرة كانت هجرة جماعية تشمل محاربى القبائل ومعهم عجزتها ومسنوها ونساؤها وأطفالها وممتلكاتها ، إلا أنه مما لاشك فيه أيضاً ،

كانت هجرة منظمة لها هدفها وهو القضاء على ملك بنى باديس والاستيلاء على ممتلكاتهم باسم المستنصر ، كما أنهم خرجوا لوجهتهم ومعهم مندوب الحكومة لمرافقتهم وتظلهم أعلام المستنصر الذى عقد لزعمائهم على ما يفتحونه من أمصار فقلد موسى بن يحيى المرداسى القيروان وباجة ، وعقد لزغبة على طرابلس قابس ، وعقد لحسن بن سرحان على قسطنطينة[١] .

ثانيا : من المستبعد أن المعز لم يكن على علم بهدف هذه الهجرة ، فقد كان للمعز العيون والوكلاء بالقاهرة ، وليس من المعقول أن تمر هذه الحركة دون أن يحس بها هؤلاء . زيادة على ذلك فإن اليازورى أرسل له خطاباً يهدده بهذه الغزوة وقال له فيه: « أما بعد فقد أرسلنا إليك خيولا وحملنا عليها رجالاً فحولاً ليقضى الله أمراً كان مفعولا » .

ثالثا : حاول المعز مقاومة هؤلاء العرب منذ دخولهم برقة ، فيذكر المقريزى وهو يتكلم عن هذه الغزوة « أنهم امتلكوا برقة فسار إليهم المعز فهزموه وتبعوه إلى إفريقية » .

وقد انتهت هذه الحركة باستيلاء هؤلاء العرب على إفريقية واقتسامهم إياها ، وتلميرهم كل شىء ، وملكوا الأرباض تاركين أمراء بنى باديس فى حواضرهم على أن يدينوا لهم بالولاء ويؤدون الأتاوات . ودان المغرب للمستنصر بالولاء ، وإن كان هذا الولاء اسمياً فقط . ونجح اليازورى فى الانتقام من عدوه .

إلا أن أهم نتائج هذه الغزوة ، كان شيئاً لم يتوقعه اليازورى أو يضعه فى الاعتبار ، ألا وهو تعريب شمال إفريقية ، وذلك أن الفتح الإسلامى الأول لم يطبع شمال إفريقية إلا بطابع الدين واللغة ، أما هذه الهجرة فقد أحدثت فيها تعديلا جنسياً وعنصرياً ، وذلك بامتزاج العرب بأهل البلاد وأصبح شمال إفريقية منذ ذلك الوقت عربياً .

---

(١) القيروان و باجة مدن داخلية فى الجهة الشمالية لتونس .
وقابس مدينة جنوب تونس على خليج طرابلس .
وقسطنطينة من مدن الجزائر الآن .

ويظهر أن المعز أراد استرضاء الخليفة ، خصوصاً بعد القضاء على عدوه اليازورى ، فنراه يرسل فى سنة ٤٥٢ هـ هدية قومت بأربعين ألف دينار منها ورقة مرصعة بالجوهر كانت للمهدى . إلا أن فترة الاضطرابات التى عمت البلاد فى أواخر عهد المستنصر جعلت العلاقة بين مصر والمغرب فى حكم المنقطعة، وحتى عندما تولى بدر الوزارة صرف همه كله لاستعادة النظام فى مصر ، ودفع الخطر الذى هددها من جهة الشام ، لذلك نراه لايهتم بما يحدث فى المغرب . وشغل ابنه الأفضل هو الآخر بما يحدث فى الشرق من تهديدات الصليبيين فلم يعد فى وسعه التطلع إلى الغرب إلا فى فترات متباعدة كان المغرب هو البادئ بالتقرب ، إذ يذكر ابن خلدون أن يحيى بن باديس (٥٠١/٥٠٩هـ): « راجع طاعة العبيديين ووصلته المخاطبات والهدايا » . ولما مات يحيى وخلفه ابنه على بن يحيى (٥٠٩/ ٥١٥ هـ) وصله رسول الخليفة من مصر بالمخاطبات والهدايا على العادة وكان آخر آل باديس الحسن بن على وفى عهده ملك رودجز ملك صقلية ساحل إفريقية حيث ظل فى يده إلى أن استولى عليه الموحدون ، وقد حاول الحسن الوصول إلى مصر للالتجاء إلى الخليفة الحافظ إلا أن أسطول صقلية كان له بالمرصاد فارتحل إلى الجزائر وانقطعت صلة المغرب بمصر نهائياً .

الفصل الثانى

الوزراء والشام

برغم أن جوهر الصقلى فتح الشام عقب فتح مصر مباشرة ، إلا أن الأمر لم يستتب للفاطميين هناك مثل ما استتب فى مصر . فقد ظلت الشام منذ الفتح الفاطمى حتى خرجت من أيديهم مصدر قلاقل واضطراب ، لمناهضة الشاميين للحكم الفاطمى وقيام حركات استقلالية أضعفت سلطة الفاطميين . وكان لسياسة كثير من الوزراء الفاطميين دور كبير فى صنع كثير من الأحداث الهامة التى مرت فى علاقة مصر بالشام من جهة وعلاقة الشام بالعباسيين والسلاجقة والروم من جهة أخرى .

وعندما ولى العزيز الخلافة سنة ٣٦٥ هـ كانت الشام قد عمت فيها الاضطرابات التى تعرضت لها البلاد وثورات أهل دمشق المتكررة مما ساعد على استيلاء أفتكين وقواته من الترك عليها سنة ٣٦٤ هـ [١] ، واستيلاء القرامطة على فلسطين . وقد حمل ابن كلس مسئولية العمل على استرداد الشام ، وحاول فى أول الأمر إعادته إلى حظيرة الفاطميين بالطرق السلمية ، فكوتب أفتكين لاستمالته وأخذ البيعة منه والدخول فى طاعة الفاطميين ، ولكن أفتكين أبى ذاكراً أنه أخذ دمشق بالسيف وليس عليه طاعة لأحد . ولم يعد هناك إلا السيف ، فأشار ابن كلس بخروج جوهر الصقلى على رأس حملة لاستردادالشام ، وقد نجح جوهر فى مهمته فى بادئ الأمر ، فاحتل فلسطين ، ثم توجه إلى دمشق حيث دارت بينه وبين أفتكين حروب طويلة استعان فيها أفتكين بالقرامطة فاضطر جوهر

(١) كان أفتكين من القواد الأتراك الذين خرجوا على العباسيين وسار من بغداد قاصداً بلاد الشام مع فريق من جنده بعد انهزامه فى المعركة التى دارت بين الأتراك والديلم وتمكن من الاستيلاء على دمشق فى شعبان سنة ٣٦٤ هـ وأخرج واليها ريان الخادم كما استولى على صيدا وعكا وطبرية .

إلى فك حصار دمشق والعودة إلى الرملة حيث حوصر فى عسقلان وأرغمته الظروف إلى طلب الصلح والخروج تحت سيف أفتكين ورمح الحسن بن أحمد زعيم القرامطة . وأمام هذه الهزيمة خرج العزيز بنفسه فى جيش كبير حيث دارت الدائرة على القرامطة وأفتكين .

ولم يستقر الأمر فى دمشق طويلا ، إذ تغلب عليها رجل من أهلها يقال له قسام ، خلع طاعة العزيز ، فجرد إليه ابن كلس القائد الفضل بن صالح الذى لم يتمكن من دخول دمشق ، واقتضى الأمر إرسال جيش آخر بقيادة بلتكين حاصر دمشق مدة استسلم بعدها قسام فحمل إلى مصر حيث عفى عنه بعد اعتقاله مدة . وظل بلتكين على ولاية دمشق خمسة شهور حتى اقتضت الظروف تولية بكجور أحد قواد بنى حمدان فى حلب عليها سنة ٣٧٢ هـ .

وإذا اتجهنا جنوباً نحو فلسطين نجد أن أحد كبار الزعماء العرب المفرج ابن دغفل بن الجراح قد استولى على الرملة ومد سلطانه على ماجاورها من نواحى ، وإن أظهر الطاعة للعزيز ، إلا أنه سرعان ماجاهر بخلع طاعته سنة ٣٧١ هـ ، فسير إليه الوزير ابن كلس صهره رشيق العزيزى فطارده من الشام حيث التجأ مدة إلى إمبراطور الروم ، ثم عاد إلى الشام والتمس الأمان من العزيز فعفا عنه .

أما حلب فى الشمال فكانت فى هذه الفترة تحت حكم سعد الدولة ابن سيف الدولة الحمدانى (٣٥٦/٣٨١ هـ) وكان الحمدانيون يدينون بالولاء للعباسيين ، وكانت العلاقات بينهم وبين الفاطميين أبعد ماتكون عن الود ، وكانوا كثيراً مايستعينون بالروم للحفاظ على ممتلكاتهم أمام أطماع الفاطميين . وقد بدأ الضعف ينتاب الدولة لانغماس سعد الدولة فى اللهو ، حتى ثار عليه أحد قواده ويدعى قرعوية واستولى على حلب ، فسار سعد الدولة إلى حمص حيث أظهر الطاعة للفاطميين وأقام الدعوة للمعز ، ولكنه تمكن من استرداد حلب بمساعدة أحد كبار قواده ويدعى بكجور . وما إن استقر سعد الدولة بحلب حتى عاد وأقام الدعوة للطائع العباسى وولى بكجور على حمص . وسرعان ماساءت العلاقة بين سعد الدولة وبكجور فاضطر الأخير إلى الاستعانة بمصر لفتح حلب ، ولكن استعانة حلب بالروم قضت على هذا الأمل ووعد العزيز بكجور بولاية

دمشق . إلا أن ذلك لم يصادف هوى من الوزير فمانع فى ذلك مدة وطلب من بلتكين عدم تسليم دمشق إلى بكجور وحذر الخليفة من تسليم البلد إليه وخوفه من عصيانه بها ، ولكن الوزير عندما علم بمؤامرة يدبرها المغاربة للوثوب عليه اضطر مرغماً إلى استدعاء بلتكين بقواته وتسليم البلد إلى بكجور الذى لم ينس للوزير معارضته ، فأساء إلى أصحاب ابن كلس وقتل نائبه بها ، فأخذ ابن كلس يدس عليه لقتله ولكنه قبض على المتآمرين ، ثم أخذ يسىء إلى أهل البلد ، فجرد الوزير فى سنة ٣٧٨ هـ حملة بقيادة منير الخادم وأصدر الكتب إلى ولاة الأعمال بالمسير معه ، فجمع بكجور العرب وغيرهم والتقى الجمعان عند داريا[١] حيث دارت الهزيمة على بكجور وخاف من وصول نزال والى طرابلس لمؤازرة منير الخادم وكان قد كوتب بذلك ، فبادر بطلب الأمان من منشا كاتب الجيش على أن يسلم دمشق ، فأمنه وغادر دمشق إلى الرقة . وغضب ابن كلس على منشا لتركه بكجور وتأمينه لخوفه من عودته لولاية دمشق ، فعزل منشا عن تدبير العسكر ثم أرسل إلى بكجور يسترضيه ويترك له ضياعه بدمشق دون مصادرة . وتسلم منير الخادم دمشق وفرح أهلها بولايته .

ومات ابن كلس والشام ماعدا حلب تحت سيطرة العزيز ، وكانت آخر نصيحة من الوزير للخليفة وهو فى مرض الموت أن يقنع من الحمدانيين بالدعوة والسكة وأن لايبقى على المفرج بن دغفل بن الجراح إذا أمكنت فيه الفرصة . ولكن العزيزلم يتبع نصيحة وزيره فإنه عفا عن المفرج بن دغفل ، وقد تحقق بعد نظر الوزير إذ عانت الدولة الكثير من عصيان آل الجراح كما سنذكر .

أما حلب فلم يفقد العزيز الأمل فى ضمها إلى سلطانه ، وقد كان بكجور عندما هرب إلى الرقة قد كاتب بهاء الدولة بن بويه للدخول فى طاعته كما كاتب صاحب ديار بكر للانضمام إليه وراسل سعد الدولة صاحب حلب للعودة إلى ما كان عليه من الطاعة على أن يُقطع حمص ، فلم يجد من أحدهم أذناً

(١) داريا على بعد ٦ ك . م من دمشق .

صاغية ، فأخذ يراسل جماعة من رفقائه من قواد ومماليك سعد الدولة ويستميلهم فأجابوه إلى الموافقة على القيام ضد سيدهم المشغول بلذاته وشهواته عن تدبير الملك، وأرسل بكجور إلى العزيز « يطمعه فى حلب وأنها دهليز العراق ، ومتى أخذت كان ما بعدها أسهل منها ويطلب الإنجاد بالعسكر » . فمال العزيز إلى الاستعانة ببكجور لتحقيق أمله وأرسل إلى نزال والى طرابلس وإلى غيره من ولاة الشام يأمرهم بمساعدة بكجور والانضواء تحت قيادته عندما يقصد حلب ، ولكن عيسى بن نسطورس وزير العزيز كان مثل سلفه ابن كلس على خلاف مع بكجور وكانت بينهما عداوة مستحكمة ، فبادر إلى الكتابة سرًّا إلى نزال ، وكان من صنائعه ، بأن يظهر الموالاة لبكجور حتى إذا ما تورط مع سيده تأخر عنه وتخلى عن مساعدته ، ونفذ نزال أوامر الوزير . فعندما أرسل إليه بكجور بالالتقاء قرب حلب فى موعد معين تباطأ فى التنفيذ . فلما وصل بكجور وجد نفسه أمام قوات حلب والروم الذين استنجد بهم سعد الدولة ثم فارقته قواته من العرب وانحازوا إلى سعد الدولة كما لم ينضم إليه أحد من غلمان سعد الدولة الذين سبق ووعدوه بذلك ، وجمع بكجور قواده للثورة ، فكان من رأى كاتبه أبو الحسن المغربى بالرجوع إلى الرقة ثم يكاتب العزيز بما فعل نزال . ولكن قواد بكجور أبوا إلا الحرب وكانت النتيجة أن أسر بكجور وقتل ، وبذلك أضاع تدخل ابن نسطورس الفرصة المواتية للاستيلاء على حلب . واضطر العزيز للخروج لحرب الروم الذين لم يألوا جهداً فى مساندة حكام حلب والمحافظة على دولتهم من الوقوع فى يد مصر .

وعندما مات العزيز سنة ٣٨٦ هـ وهو فى طريقه لهذه الغزوة وقام النزاع بين ابن عمار وبرجوان ، استغل الأخير الشام كورقة رابحة ، استطاع بها أن يقضى على نفوذ ابن عمار . فقد بادر برجوان للاستعانة بقوات الشام بقيادة منجوتكين والى دمشق للتخلص من خصمه ، فأرسل إليه شاكياً من استبداد ابن عمار وسوء معاملته للخليفة ، ودعاه إلى قصد مصر ومقابلة نعمة العزيز عنده وكشف هذه الغمة عن ولده ، يقول أبو شجاع : « فتقبل منجوتكين كتابه

وركب إلى المسجد الجامع بثياب المصيبة وجمع الناس وذكرهم جميل العزيز إليهم ، ثم ذكر تغلب ابن عمار على الملك وسوء سيرته ، وما يلقاه أئمتنا المقيمون بمصر من الذلة والهوان ، وبكى بكاء شديداً رقت له القلوب وخرق ثيابه واقتدى الناس به فى البكاء وتخريق الثياب وأجابوه إلى الطاعة وبذل المهج من غير التماس عطاء ولا مؤونة فشكرهم وعاد إلى داره وأجمع أمره للمسير فسار إلى الرملة »[١] .

ولكن ابن عمار أعلن أن منجوتكين قد خرج على طاعة الحاكم وسير جيشاً لقتاله بقيادة أبى تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامى استطاع هزيمته فى عسقلان وأسر منجوتكين . واستعمل ابن عمار على الشام أبا تميم سليمان فسار إلى طبرية وأرسل أخاه علياً إلى دمشق فامتنع عليه أهلها حتى هددهم أبوتميم فأذعنوا للطاعة واعتذروا عما بدر منهم إلا أن أبا على عاملهم بقسوة فأحرق وقتل ثم عزل سليمان والى طرابلس جيش بن الصمصامة الكتامى وولى بدله أخاه علياً ، فمضى جيش إلى مصر حيث اجتمع ببرجوان كما ذكرنا ، واستطاع برجوان هزيمة ابن عمار والاستيلاء على الوزارة .

وقد كان ذلك إيذاناً باضطراب الأمور فى الشام لبعض الوقت ، فقد أرسل برجوان إلى وجوه القواد والناس بدمشق للإيقاع بأبى تميم والمغاربة فثاروا عليه ونهبوا خزائنه فخرج هارباً ، وقتلوا كثيراً من المغاربة ، واضطربت الأحوال واستولى الأحداث على السلطة بقيادة رجل منهم يعرف بالدهيقين ، وتلا ذلك الاضطراب فى كل مكان فثار أهل صور بقيادة مغامر يعمل ملاحاً يعرف بالعلاقة سنة ٣٨٧ هـ واستعان بالروم الذين أمدوه بأسطول كما حاصرت قواتهم حصن أفامية ، وعصى المفرج بن دغفل بن الجراح سنة ٣٨٨ هـ واستولى على الرملة وعاث فى البلاد فساداً . وقد بادر برجوان إلى إرسال جيش بقيادة جيش ابن الصمصامة وفوض إليه تدبير أمر الشام فخرج إلى الرملة حيث تقدم له

---

(١) وقد وردت رواية أخرى عن سبب توجه منجوتكين إلى مصر تتلخص فى أن ابن عمار استبدل جماعة من أصحاب الولايات من المشارقة بقوم من المغاربة فاستوحش منجوتكين وكتب إلى الإمبراطور باسيل البيزنطى يبذل له الطاعة ويطلب نجدته فرفض إعانته على مولاه ، فلما يئس من نجدة الروم سار من دمشق مع من كان معه من العرب وغيرهم قاصداً إلى مصر لنصرة المشارقة .

واليها بالطاعة ، ووجد بها أبا تميم سليمان بن فلاح فقبض عليه ، ثم سير عسكراً وأسطولا إلى صور هزم أسطول الروم واستطاع الجيش دخول صور فى جمادى الأخرى سنة ٣٨٨ ﻫ وأسر العلاقة وأرسل إلى مصر حيث صلب ، وقتل كثير من جنده ونهب البلد ، وكان ذلك « أول فتح على يد برجوان » . ثم قصد جيش بعد ذلك للقضاء على فتنة المفرج بن دغفل الذى هرب من بين يديه ، ثم أرسل يطلب العفو فأمنه واستحلفه ، وهذه ثانى مرة تخالف فيها نصيحة ابن كلس بضرورة القضاء على ابن الجراح برغم مابدا من انحراف عن الطاعة كلما سنحت له الظروف .

وكانت الخطوة التالية لجيش استعادة دمشق ، وقد قابله أهلها مذعنين بالطاعة فأحسن إليهم وأمنهم وأطلق المؤن وأباح دم كل مغربى يتعرض لأهلها فاطمأنوا إليه ، ولكنه ما إن هزم الروم فى أفامية[1] حتى عاد إلى دمشق ونزل بظاهرها ولم يدخلها ، واستخلص رؤساء الأحداث واستحجبهم حتى اطمأنوا إليه ثم أمر أصحابه أنه إذا دخل رؤساء الأحداث إلى الطعام أغلقوا عليهم باب الحجرة وعلوهم بالسيوف فقتل منهم ثلاثة آلاف ، ودخل دمشق وأعاد الأمن إليها وظل والياً عليها حتى مات بعد تسعة أشهر من ولايته ، فخلفه ابنه محمود بن جيش .

وهكذا استطاع برجوان بسياسته الحازمة أن يعيد الهدوء والاستقرار إلى الشام خصوصاً بعد أن نجح فى عقد الهدنة مع الروم . وظل الهدوء مستتباً حتى سنة ٤٠٠ ﻫ عندما قتل الحاكم آل المغربى ، وفر الوزير أبو القاسم حسن بن على المغربى إلى فلسطين ولاذ بحسان بن مفرج بن الجراح أمير طىء وحسن له الخروج على طاعة الحاكم ومبايعة أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة بالإمامة لأنه لامغمز فى نسبه ؛ فاستجاب له عرب فلسطين وعلى رأسهم آل الجراح واستقدموا أبا الفتوح إلى الرملة وتلقب بالراشد بالله وأقيمت له الخطبة فى الكثير من مدن الشام . ولم يستطع الحاكم القضاء على هذه الفتنة بقوة السلاح فأعمل

---

(١) أفامية : شمال حماه وشرق اللاذقية .

الحيلة حتى استمال آل الجراح فتخلوا عن أبى الفتوح الذى استجار بالمفرج بن دغفل طالباً منه إعادته إلى مكة فعاد إليها وكاتب الحاكم واعتذر إليه فقبل عذره وأعاد الخطبة للحاكم بالحجاز ، أما الوزير أبو القاسم فإنه استجار المفرج أيضا حتى سيره إلى العراق . واستطاع الحاكم أن يدس للمفرج من قتله بالسم ثم أرسل جيشاً بقيادة على بن جعفر بن فلاح إلى الشام فتلقاه على ومحمود ابنا المفرج طائعين وفر حسان هارباً وأخذت معاقله حتى أرسل والدته إلى الحاكم فعفا عنه وأعاده إلى أرضه حيث ظل مقيماً على الطاعة مدة خلافة الحاكم ومعظم خلافة الظاهر ، وذلك بفضل مهارة القائد منتخب الدولة الوزيرى الذى ولى فلسطين فى المحرم سنة ٤١٤ هـ واستطاع أن يكبح جماح العرب وخافه حسان بن مفرج ابن الجراح وأخذ يدس له لدى الوزير أبى محمد الحسن بن صالح الروذبارى الذى استأذن فى القبض عليه ، وقبض عليه بعسقلان بحيلة دبرت له فى سنة ٤١٧ هـ ، ثم أطلق واستدعى إلى مصر . وما إن ترك الدزبرى فلسطين حتى انتهز العرب الفرصة فاستولوا على أعمال الشام وأفسدوا الأمر فيها ، وسيطر حسان ابن مفرج على فلسطين ، واتفق العرب على تقسيم الشام فيما بينهم على أن تكون لحسان وقومه من بنى طىء من الرملة إلى حدود مصر ، ولأخيه محمود طبرية . ولصالح بن مرداس وقومه من بنى كلاب من حلب إلى عانة على نهر الفرات ، ولسنان بن عليان أمير الكلبيين دمشق وما حولها ، وحاولوا الاستعانة بإمبراطور الروم .

ولم يجد الجرجرائى الذى تولى الوزارة بداً من الاستعانة مرة أخرى بالقائد أنوشتكين الدزبرى ، فاستدعاه وعهد إليه قيادة حملة لاستعادة سيطرة الفاطميين على الشام ، فخرج فى ذى القعدة سنة ٤٢٠ هـ وودعه الظاهر ووزيره وسار إلى الرملة ثم إلى بيت المقدس حيث استعد لخوض المعركة ضد الحلفاء العرب ، والتقى الفريقان عند الأقحوانة من أعمال طبرية حيث انتصر الدزبرى وقتل صالح بن مرداس وولده الأصغر ، وهرب حسان بن الجراح إلى الإمبراطور البيزنطى . ودخل الدزبرى دمشق وظل يتحين الفرصة حتى استولى على حلب

فى رمضان سنة ٤٢٩ ﻫ بعد أن هزم نصر بن صالح بن مرداس وقتله ، وأصبح الدزبرى الحاكم القوى فى الشام كله الذي خضع لسلطانه وخشيه الروم وملوك الأطراف وحاز حب الرعية .

ولكن العلاقات ساءت بين الجرجرائى والدزبرى ، إما لأن الجرجرائى خشيه وحسده على ما وصل إليه من قوة ونفوذ ، أو لأنه أحس أن الدزبري أخذ يميل إلى العصيان بتحريض من كاتبه أبو سعيد . وأيًّا كان السببان فإن الجرجرائى كاتب الدزبرى بإبعاد كاتبه وإرساله إلى مصر، فامتنع ، فوجد الوزير الفرصة سانحة للإيقاع به وإيغار نفس الخليفة عليه ، كما أرسل إلى أصحابه بالخروج عليه ومخالفته ، وحدث أن قدم بعض رؤساء الجند يشكون الدزبرى إلى الوزير فعرفهم سوء رأيه فيه وأعادهم إلى دمشق لإفساد الجند عليه . فلما أحس القائد بذلك كاشف بالعصيان وأهان نائب الجرجرائى بدمشق وأمر بضربه وأطلق أرزاق من يثق فيهم من جنده وقطع أرزاق الباقين فأظهروا الشغب واجتمعوا بظاهر دمشق للهجوم عليه فقاتلهم حتى أيقن أنه لا طاقة له بهم فخرج إلى بعلبك فمنعه مستحفظها ثم قصد حماة فمنع عنها وسار إلى حلب ودخلها بمساعدة المقلد بن منقذ الكفر طابى وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٣٣ ﻫ ، ولما حاول العودة إلى دمشق بلغه وصول سجل من مصر إلى دمشق قرئ على المنبر يتهمه بالخيانة ويسقط نعوته، ثم وصله سجل من الخليفة يسبه ويشتمه ، فأرسل إلى الحضرة يستعطف دون فائدة حتى يئس من رضاء الخليفة ، فظل بحلب حيث أكب على الشراب ومرض من الحزن ومات فى جمادى الأولى سنة ٤٣٣ ﻫ .

وبإبعاد قبضة الدزبرى القوية عن الشام ابتدأت الأمور تختل من جديد وأخذ العرب يعيثون فى أرجائه فساداً واشتدت وطأة حسان بن المفرج الطائى بفلسطين . وصرف الحسين بن حمدان — الذى ولاه الجرجرائى على دمشق — همه للعمل على عدم وقوع دمشق فى يد العرب . وانتهز ثمال بن صالح بن مرداس الفرصة واستولى على حلب بعد أن يئس أصحاب الدزبرى الممتنعون بقلعة حلب من وصول النجدات من مصر برغم إلحاحهم فى ذلك فسلموها له .

وبقى ثمال يدافع عن حلب ضد محاولات مصر المستمرة للاستيلاء عليها [١] ، برغم أنه انضم إلى المؤيد فى الدين الذى خرج من مصر سنة ٤٤٨ هـ لتأييد البساسيرى عندما خرج على الخليفة العباسى وأعلن دعوة المستنصر [٢] ، إلا أن كراهية اليازورى لثمال دفعته إلى الغضب على المؤيد لاتصاله به برغم أوامره وتحذيره [٣] وأخيراً اضطر ثمال إلى ترك حلب وتسليمها إلى المصريين سنة ٤٤٩ هـ وذلك بحيلة دبرها اليازورى .

ولكن المصريين لم يستطيعوا الاحتفاظ بحلب إلا عامين ثم استعادها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس وظلت تحت سلطانه حتى استولى عليها ألب أرسلان السلجوقى سنة ٤٦٣ هـ .

وباضطراب الأحوال فى مصر بعد إقصاء اليازورى اضطربت الأمور فى الشام وكثر تولية الولاة وعزلهم كما كثرت ثورات أهل دمشق عليهم وتطلع السلاجقة إلى الاستيلاء على الشام كله وإعادته إلى الحظيرة العباسية ، ولم تكن هناك قوة تمنعهم من ذلك ، فأخذت البلاد والمعاقل تسقط فى أيديهم وكان أول مافتحوه بيت المقدس والرملة وما جاورهما سنة ٤٦٥ هـ — ١٠٧١ م .

وعندما وصل بدر الجمالى إلى مصر سنة ٤٦٦ هـ واستولى على أمورها شغل بالقضاء على أسباب الفتنة بها عما يحدث فى الشام ، فاستطاع القائد شكلى التركى أحد قواد السلاجقة الاستيلاء على عكا سنة ٤٦٧ هـ بمعونة أحد رجال بدر ويدعى

---

(١) أرسلت مصر حملة سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن الحسين بن حمدان أمير دمشق وشجاع الدولة جعفر بن كليد والى حمص لقتال ثمال لأنه كان قد قرر على نفسه فى وزارة الفلاحى أن يحمل كل سنة عشرين ألف دينار فأخر الحمل سنتين ولكن هذه الحملة فشلت — م اتعاظ ص ٨٥ أ .

ثم أرسلت حملة أخرى سنة ٤٤١ هـ بقيادة رفق الخادم إلا أنها فشلت أيضاً وأسر .

(٢) سنتعرض لحركة البساسيرى عند الكلام عن العلاقة بالعراق .

(٣) مع أن ثمال لم يأل جهداً فى مساعدة المؤيد وتذليل مأموريته حتى وصل سالماً إلى الرحبة وفى ذلك يقول المؤيد « سرت إلى الرحبة وابن صالح وبنو كلاب جمعا معى فى الصحبة وهو يخدم الخدمة التى لا مستزاد عليها ولا مستضاف إليها فى حفظ الخزائن والأموال . وتيسيرها مسوراً عليها مخندقاً بأبطال الرجال إلى أن لقينا أبا الحارث » .

ابن سقما أو سقجا ولكنها عادت مرة أخرى فى نفس العام لطاعة بدر بتدبير من أهلها دون تدخل من مصر كما استولى أتسز ، أحد قواد ماكشاة السلجوقى على دمشق سنة ٤٨٦ ه ١٠٧٥ – ١٠٧٦ م وقطعت الخطبة للفاطميين بها ، ولم تعد إليها قط بعد ذلك ، بل إن أتسز حاول الاستيلاء على مصر نفسها فهاجمها سنة ٤٦٩ ه ، منتهزاً فرصة انشغال بدر الجمالى فى القضاء على الفتن بالصعيد واستولى على الدلتا ، فلما عاد بدر الجمالى إلى القاهرة جمع الجموع الضخمة واستطاع هزيمة أتسز هزيمة ساحقة فى رجب من نفس السنة ، وفر أتسز إلى الشام بمفرده حيث ثار عليه أهل غزة والرملة وبيت المقدس ، إلا أنه استطاع إخضاعها بالسيف .

وعندما خلص بدر من المشاكل الداخلية وقضى على مثيرى الفتن ، وجه نظره لاستعادة الشام من جديد وبذل أكثر من محاولة لذلك، فأرسل جيشاً سنة ٤٧٠ ه لفتح دمشق ، ولكنه عاد بعد أن حاصرها أياماً دون جدوى ، ثم أرسل حملة قوية سنة ٤٧٢ ه ، كادت أن تستولى على دمشق لولا أن استعان صاحبها أتسز بتاج الدولة تتش بن السلطان ألب أرسلان فعاد الجيش المصرى عندما علم بقدوم تتش الذى دخل دمشق واستولى عليها وقتل أتسز ، كما استولى تتش على قلعة بعلبك فى صفر سنة ٤٧٦ ه وطرد ابن صقيل واليها من قبل بدر . وقد حاول تتش التقرب من بدر الجمالى فعزم على مصاهرته والزواج من ابنته وذلك سنة ٤٧٦ ه ، وكادت أن تتم المصاهرة لولا تدخل ابن عمار صاحب طرابلس الذى أشار على تتش « ألا يفعل فامتنع بعد ما وردت هدايا وملاطفات من مصر » .

ثم قاد بدر بنفسه حملة لفتح دمشق فى ربيع الأول سنة ٤٧٨ ه فحاصرها مدة وقاتل صاحبها تتش إلا أنه لم يظفر منه بشىء فعاد إلى مصر . وإن كان بدر قد فشل فى الاستيلاء على دمشق برغم محاولاته المتعددة ، إلا أنه أرسل حملة فى سنة ٤٨٢ ه بقيادة ناصر الدولة الجيوشى تمكنت من الاستيلاء على بعض مدن الساحل مثل صور وصيدا وعكا وجبيل وبعلبك . وقد حاول السلاجقة استعادة ما استولى عليه بدر من بلاد الشام ثم الاستيلاء على مصر نفسها ، لذلك

اجتمعت جيوش تتش من دمشق وقسيم الدولة أقسنقر من حلب وبوزان من الرها سنة ٤٨٣ ﻫ ونزلوا على حمص وملكوها ثم ملكوا بعض القلاع التى للفاطميين ، ولكن هذه الحملة المشتركة فشلت أمام طرابلس نتيجة مسعى ابن عمار صاحبها ، وعاد كل إلى بلده . ويبدو أن صور قد ثارت ضد مصر إذ أرسل إليها بدر حملة ٤٨٦ ﻫ فتحت صور وحمل صاحبها إلى مصر ومعه أصحابه ، فضرب بدر الجمالى رقاب الجميع وقطع على أهل صور ستين ألف دينار عقوبة لهم . ومات بدر سنة ٤٨٧ ﻫ ، وليس لمصر إلا بعض مدن الساحل ، ولكن الخلاف سرعان ما دب بين السلاجقة الشام ، فقد قام النزاع بين تتش وابن أخيه بركياروق سنة ٤٨٦ ﻫ أدت إلى قيام الحروب بينهما . وانتهت بقتل تتش سنة ٤٨٨ ﻫ ١٠٩٥م وقد اقتسم رضوان ودقاق ابنا تتش أملاك أبيهما ، فاستقل رضوان بولاية حلب ودقاق بدمشق ولكنهما لم يكونا على وئام وأصبحت الفرصة سانحة أمام مصر لكى تنتهز فرصة هذا الخلاف وتستعيد نفوذها فى الشام من جديد ، لولا أن انشغل الأفضل فى القضاء على الخلاف الخطير الذى نشأ بعد تولية المستعلى وثورة نزار وانقسام المذهب الإسماعيلى إلى مستعلية ونزارية ، وما تبع ذلك من اضطراب الأحوال الداخلية . وما إن استطاع الأفضل القضاء على ثورة نزار وأصلح الأمور فى الداخل وبدأ يتطلع إلى الشام حتى ظهر خطر هدد العالم الإسلامى كله ، ذلك هو خطر الصليبيين الذين لم يجدوا أمامهم مقاومة تذكر نظراً لانقسام المسلمين على أنفسهم فاستولوا على كثير من مدن الشام .

وقد عاد النفوذ الفاطمى إلى فامية سنة ٤٨٩ ﻫ حيث أرسل أهلها وكانوا يدينون بمذهب الإسماعيلية ، يسألون والياً عليهم ، فولى الأفضل عليهم خلف ابن ملاعب ، وفى نفس العام أو فى سنة ٤٩٠ ﻫ استطاعت حملة قوية أرسلها الأفضل الاستيلاء على صور بعد حصار شديد وقضت على ثورة واليها الذى يعرف بالكتيلة . وأرسل رضوان بن تتش صاحب حلب يبذل الطاعة للدولة ، ويطلب إنجاده بعسكر يستولى به على دمشق من أخيه ، ولكنه وإن قوبل

بالشكر على الطاعة ، إلا أن ماطلبه من نجدات لم تصل إليه ، فقطع خطبة المستعلى بعد أربعة أشهر وعاد إلى الخطبة للعباسيين .

وفى شعبان سنة ٤٩١ هـ خرج الأفضل على رأس حملة قوية للاستيلاء على بيت المقدس من الأميرين سكمان وإيلغازى ابنى أرتق ، ولما رفضا تسليم البلد دون حرب ، حاصر المدينة أربعين يوما حتى سلم له أهلها ومكنوه من دخولها لخمس بقين من رمضان . وأكرم الأفضل ابنى أرتق وخلع عليهما وأخلى سبيلهما . ولم يهنأ الأفضل طويلا بانتصاره إذ سرعان ما استطاع الصليبيون فتح الكثير من مدن الشام والاستيلاء على بيت المقدس .

وكان لانقسام القوى الإسلامية ، والعداء بين الخلافتين فى بغداد والقاهرة أثره فى الانتصارات السهلة التى أحرزها الصليبيون . ولو كانت الجبهة الإسلامية متحدة لاستطاعت بسهولة القضاء على هؤلاء الغزاة الذين قطعوا المسافات الطويلة من غرب أوربا إلى الشرق العربى ووصلوا إليه وقد أنهكهم التعب ودب بين زعمائهم الخلاف .

وظلت مصر تفقد ممتلكاتها فى الشام مدينة إثر أخرى حتى لم يعد لها فى وزارة المأمون إلا عسقلان التى تمكن الصليبيون من الاستيلاء عليها فى وزارة عباس ، وبذلك خرجت مصر نهائياً من الشام حتى نهاية الدولة الفاطمية .

الفصل الثالث

الوزراء والعراق

كان امتداد النفوذ الفاطمى إلى العراق فى بعض الأحيان شيئاً عارضاً يرتبط إلى حد كبير بعلاقة حكام أجزائه المختلفة بالخلافة العباسية أكثر مما يمليه الشعور بالولاء للخلافة الفاطمية . وكانت أقرب الولايات لأملاك الفاطميين بالشام هى الموصل ، وكان حكامها من العرب العقيليين مثل عرب الشام من بنى طى وغيرهم لايثبتون على ولائهم لأى من الخلافتين العباسية والفاطمية ، وكانوا أقرب إلى التمرد منهم إلى الإذعان والسكينة . ومن المرات القليلة التى انحاز فيها العقيليون إلى مصر ماحدث فى المحرم من سنة ٣٨٢ ﻫ إذ خطب محمد ابن المسيب العقيلى بالموصل وأعمالها للعزيز وضرب اسمه على السكة . وفى سنة ٤٠١ ﻫ استمال الحاكم قرواش بن المقلد فخطب له بالموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها ، فأرسل إليه بهاء الدولة بن بويه جيشاً لمحاربته ، فبادر بالاعتذار وقطع الخطبة للعلويين وأعاد الخطبة للخليفة العباسى .

أما الحركة الخطيرة التى كان من الممكن أن يكون لها نتائج أخطر لو نجحت فهى حركة البساسيرى ، ذلك القائد الذى ثار على خليفته العباسى وفتح بغداد باسم الخلافة الفاطمية . ولقد لعب الوزراء الفاطميون دوراً كبيراً فى هذه الحركة منذ بدأت حتى انتهت بالفشل . وقد كان المظفر أبو الحارث أرسلان البساسيرى مقدم الأتراك مقرباً لدى القائم بأمر الله العباسى أثيراً عنده لايقطع أمراً دون رأيه ، ثم ازور عنه عندما تجبر وطغى وحاول الاستنصار عليه بطغرلبك السلجوقى فخرج البساسيرى مغاضباً ومعه أتباعه من الجند الأتراك ، وفى هذه الأثناء استولى طغرلبك على مدينة الري سنة ٤٤٦ ﻫ ، وبدأت خطورة السلاجقة تظهر وتهدد ماجاورها من بلاد ، بعد أن هادنوا الروم واتفقوا على

اقتسام أملاك مصر فى الشام ، بل هدد طغرلبك بالمسير إلى مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية .

واهتم أولو الأمر فى القاهرة بمواجهة هذا الخطر قبل استفحاله ؛ وعرض المؤيد أن يكاتب الكندرى وزير طغرلبك وغيره من المحيطين به ليستميلهم إلى الدولة الفاطمية ، وكانت وجهة نظره فى ذلك أنه إما أن يصيب التدبير وتنجح كتبه فى اجتذابهم بالوعود إلى جانب الفاطميين ، وإما أن تبلغ مسامع الخليفة العباسى خبر هذه المكاتبات فلا يأمن جانب طغرلبك ، وقد وافقت سلطات القاهرة على هذا الرأى ، ولكن هذه الكتب لم تأت بالنتيجة المرجوة ، فرؤى مكاتبة البساسيرى وبذل الوعود له بالتأييد والنجدة ، فلما وصلت كتب المؤيد كان طغرلبك قد دخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، وقد فرح البساسيرى بهذه الكتب ورحب بها وأخذ على نفسه العهد إذا أمدته القاهرة بتأييدها المادى والأدبى فتح البلاد باسمها . وبادر اليازورى بتدبير الأموال والأسلحة التى طلبها البساسيرى برغم ما كانت تعانيه مصر فى ذلك الوقت من أزمات اقتصادية حتى إنه لم يبق فى بيوت الأموال شىء ؛ وندب مع هذه الإمدادات المؤيد فى الدين الذى يذكر ويؤيده فى ذلك بعض المراجع الحديثة أن اليازورى إنما قصد بذلك إبعاد المؤيد فى الدين عن مصر ليأمن استفحال نفوذه ، وأنه ضحى بهذا المال ليتمكن من إخراجه ، ولكن مهما كان غرض اليازورى فالذى لاشك فيه أنه استطاع اختيار الشخص المناسب لهذه المهمة الدقيقة ، كما نلاحظ أن الإمدادات لم تشمل إرسال جنود إلى البساسيرى ، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم يطلب إلا السلاح والمال فقط ، كما أن حالة مصر والخلافات الدائمة بين الأتراك والعبيد واضطراب الشام وثورات العرب المستمرة به ، لم تترك مجالا للاستغناء عن أية إمدادات من الجند .

وخرج المؤيد فى سفارته معتمداً على قدرته الشخصية فى الإقناع قاصداً الرحبة حيث معسكر البساسيرى ، وتمكن وهو فى طريقه من ضم ثمال بن صالح المرداسى برغم معارضة اليازورى فى ذلك ، كما استطاع إقامة دعوة المستنصر فى

ميافارقين وديار بكر ولكنه فشل فى ضم شبيب بن وثاب النميرى صاحب حران للعداء الذى كان بين ابن وثاب وابن صالح وتخوفه من مقابلة المؤيد . وقد غضب اليازورى على المؤيد لفشله فى ضم ابن وثاب برغم رغبة اليازورى فى ذلك ، فى حين خالف أوامره وحالف ابن صالح . وعندما وصل المؤيد إلى الرحبة[1] قام بتوزيع الأموال والخلع على البساسيرى ومن معه من الأتراك والأكراد والعرب واستحلفهم وأخذ عليهم أيمان البيعة للمستنصر .

وقد عانى المؤيد الكثير من التنافر والتفكك بين صفوف الجيش وفى كبح جماح العناصر المختلفة فيه وإرضاء مطامعهم ومراقبة تصرفاتهم حتى استطاع فى أواخر سنة ٤٤٨ هـ أن يلتقى بجيش طغرلبك فى موقعة سنجار[1] التى ظفر فيها البساسيرى ولم يفلت من جيش طغرلبك البالغ الألفين وخمسمائة فارس إلا مائتا فارس أو دونهما . ودعى للمستنصر على منابر الموصل والكوفة و واسط وغيرها من بلدان العراق . ولكن هذا النجاح لم يدم طويلا فسرعان مادب الخلاف والانقسام بين هذه العناصر المتباينة وانفصل العرب االعقيليون من الجيش وتبعهم كثير من الجند ، ولم تجد جهود المؤيد فى توحيد الصفوف شيئاً بل اتهم بأنه يستحوذ على الأموال المرسلة من مصر دونهم . وكاتب الكندري وزير طغرلبك أمراء جيش البساسيرى يمنيهم بالولايات فاستجاب له الكثيرون منهم وتشتت شمل الجيش واضطر المؤيد للعودة إلى حلب ، وما إن سمع طغرلبك بهذا الانقسام حتى سارع إلى الموصل وأوقع بالعرب عند نصيبين .

وفى هذه الأثناء قبض على الوزير اليازورى (المحرم سنة ٤٥٠ هـ) ؛ ومن الاتهامات التى نسبت إليه أنه كان يكاتب طغرلبك ويحسن له المجىء إلى مصر . ولكن المؤيد فى الدين لم يشر من قريب أو بعيد – رغم كراهيته لليازورى – إلى مايستدل منه على اتصال بين اليازورى وطغرلبك ، كما أن اليازورى لم يقصر فى إرسال ماطلبه البساسيرى من أموال وأسلحة ، وإذا كان المؤيد

(١–١) وسنجار مدينة تقع بنواحى الجزيرة على مقربة من الموصل .
الرحبة فتقع بين الرقة و بغداد على شاطىء الفرات .

يحاول أن ينسب لنفسه كل تدبير قام به ويحاول أن يظهر أنه كان يخالف اليازورى فيما يرسم من خطط ، إلا أن الثابت أيضاً أن المؤيد كان على اتصال دائم مع اليازورى يكتب إليه بتطورات الموقف ويتلقى توجيهاته ، وإذا كان قد حدثت انتكاسات لانتصارات البساسيرى فإن ذلك كما يذكر المؤيد نتيجة لانقسام فى صفوف الجيش نفسه . وإذا رجعنا إلى ما أورده المقريزى ، نراه يذكر أن اليازورى عندما علم عن طريق عيونه أن طغرلبك يعتزم الاستيلاء على الشام ، « قلق لذلك ورأى أن الحيلة أبلغ من الاستعداد له » فكتب له يظهر الطاعة ويبذل الخدمة وأنه لاداعى لحضوره للشام حتى لايعيث فيها عساكره فساداً . ولكنه لما علم بأن طغرلبك مازال عند عزمه أرسل إليه يهدده بالحرب كما كاتب رجال طغرلبك وزوجته خاتون يعدهم ويمنيهم حتى مالوا إليه وقعدوا عن نصرة سيدهم « ففت ذلك فى عضد طغرلبك ، وترك ما هو فيه ، ورجع ليضم إليه من تفرق عنه ، وترك بغداد فقوى أمر أبى الحرث البساسيرى وكثف جمعه وقصد أعمال العراق يفتح بلداً بلداً ، وتملك أعمال والرساتيق ، طوعاً وكرها ، والدولة المصرية تمده بما يستعين به على ذلك ، وهو لاينفذ فى أمر من الأمور إلا بما يقرره اليازورى » .

ويعتبر تصرف الوزير أبى الفرج محمد بن المغربى الذى ولى الوزارة بعد ذلك من أهم العوامل التى قضت على أمل الفاطميين فى القضاء على الخلافة العباسية حتى بعد أن تمكن البساسيرى من دخول بغداد . فقد حدث أن خالف على طغرلبك أخوه لأمه إبراهيم ابن ينال وسار إلى همذان حيث لحقه كثير من الأتراك ، فانتهز البساسيرى الفرصة وتوجه إلى بغداد ومعه قريش بن بدران حيث اضطر طغرلبك إلى تركها والعودة إلى بلاده ، ودخل البساسيرى بغداد سنة ٤٥٠ ﻫ وخطب للمستنصر على منابرها وقطع الخطبة لبنى العباس وبعث إلى مصر منديل القائم الذى عممه بيده مع ردائه والشباك الذى كان يتكئ عليه . وبرغم فرح المستنصر بذلك إلا أن الوزير المغربى — الذى كان يضمر العداء للبساسيرى — أخذ يحذر الخليفة من أطماع هذا القائد ويخوفه عواقب تأييده ، فأهمل الرد على كتبه

مدة ثم أرسلت الأجوبة بخلاف ما كان يؤمل . ومع ذلك ظل البساسيرى يفتح البلاد باسم المستنصر فاستولى على البصرة وواسط سنة ٤٥١ هـ .

ولكن طغرلبك استطاع أن يضم صفوف قواته من جديد ، وتمكن من هزيمة البساسيرى وقتله فى ذى الحجة سنة ٤٥١ هـ ، وقطعت خطبة المستنصر بعد أن استمرت سنة ، وعادت للقائم كما كانت . وهكذا ضاع حلم الفاطميين فى القضاء على الخلافة العباسية إلى الأبد . ويذكر ابن ميسر والمقريزى أن « هذه الحادثة كانت آخر سعادة الدولة الفاطمية ، وأن الشام خرج من أيديهم بعدها بقليل لاستيلاء الترك عليه ، ولم يبق بيدهم غير ملك مصر خاصة .

ولكن هل كان فى استطاعة الوزراء المصريين تغيير مجرى الأحداث لو أرادوا .

إن الواقع يقول غير ذلك ، فلم يكن البساسيرى إلا قائداً مغامراً غضب عليه خليفته ، فجمع حوله كل مغامر وصولى ، واضطرته الظروف إلى أن يوجه نظره إلى الخلافة المنافسة للعباسيين ولم يكن لدى هذه الخلافة ماتقدمه إلا ماتستطيع جمعه من مال وما تبذله من وعود ، ولم تكن الحالة الداخلية فى مصر والشام تمكن مصر من التدخل تدخلا مباشراً أو تقدم مساعدة فعالة أمام قوة السلاجقة النامية .

وحركة البساسيرى أشبه بما قام به الديلم الذين أخرجوا من بغداد بعد تغلب الأتراك عليها سنة ٤١٥ هـ ، فدعوا للظاهر بالبصرة والكرخ والكوفة والموصل وعدة من بلاد الشرق نكاية فى الأتراك ، ودعا الأتراك ببغداد للقادر ، وتشبهها أيضاً من الناحية الأخرى ، الحركة التى قام بها — بعد ذلك بمدة قليلة — ناصر الدولة بن حمدان قائد الأتراك بمصر سنة ٤٦٢ هـ ، ومحاولته إقامة الدعوة العباسية بمصر واتصاله بالسلطان ألب أرسلان يسأله أن يسير جيشاً من قبله ليساعده فى إقامة هذه الدعوة ، فتجهز ألب أرسلان فى جيش عظيم للحضور بنفسه إلى مصر ، لولا أن علم بقصد الروم إلى بلاده فاضطر للعودة من حيث أتى .

الفصل الرابع

الوزراء والجزيرة العربية

كان اهتمام كل من الفاطميين والعباسيين فى ضم بلاد الحجاز إلى دائرة نفوذه – مع ما فى ذلك من التزامات مالية ضخمة – يرجع إلى مكانة الحجاز لدى المسلمين ، وأنه لا بد لكى تستكمل الخلافة مظهرها الدينى ويصبح الخليفة أمير المؤمنين حقاً أن يدعى له على منابر الحرمين المكى والمدنى. واستطاع الفاطميون فى سنة ٣٥٨ ﻫ أن يمدوا نفوذهم إلى الحجاز وأن يدعى للمعز على منابره ، فلما توفى المعز وخلفه العزيز سنة ٣٦٥ ﻫ ،خطب له بالحرمين . ولكن الخطبة قطعت بعد ذلك حتى سنة ٣٦٧ ﻫ وهى السنة التى ولى فيها ابن كلس الوزارة ، فأرسل حملة على رأسها إدريس بن زيرى الصنهاجى كأمير للحاج استطاعت الاستيلاء على الحرمين وإقامة الخطبة للعزيز . وقد ظلت الحجاز طوال وزارة ابن كلس تدين بالولاء للفاطميين حتى سنة ٣٨٠ ﻫ وهى السنة التى توفى فيها ، فخلعت طاعتهم واستطاع أمير الحاج العراقى أن يدعوا على منابرها للعباسيين ولعضد الدولة بن بويه ، مما اضطر العزيز لإرسال حملة تمكنت من إعادتها إلى حظيرة الخلافة الفاطمية وظلت على ولائها حتى سنة ٤٠٠ ﻫ حيث تمكن أبو القاسم حسين بن على المغربى من إغراء بنى الجراح بالخروج على الحاكم واستدعاء أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة ومبايعته بالخلافة ، ولكن الحاكم – كما سبق أن ذكرنا – استطاع القضاء على هذه الفتنة ، وعاد أبو الفتوح إلى مكة سنة ٤٠٣ ﻫ بعد أن عفا الحاكم عنه وتمسك بولائه للفاطميين حتى مات سنة ٤٣٠ ﻫ فى خلافة المستنصر . كما ظل خلفاؤه من بعده على ولائهم ، وقد اهتم الوزير اليازورى بأمر الحجاز فزاد فى النفقة السنوية التى كانت ترسل للحجاز فى موسم الحج من مائة وعشرين ألف دينار

إلى مائتى ألف دينار ، « ولم تبلغ النفقة على موسم الحج مثل ذلك فى دولة من دول الإسلام قط » . ولكن ذلك لم يستمر طويلا بعد إقصاء اليازورى ، إذ شغلت الدولة بالفتنة التى أثارها الأتراك عن الاهتمام بأمر الحجاز ، فانتهز ألب أرسلان الفرصة فأرسل وهو بحاب سنة ٤٦٢ ﻫ إلى محمد بن أبى هاشم الحسنى أمير مكة بثلاثين ألف دينار وبخاع سنية ، وأجرى له فى كل سنة عشرة آلاف دينار وبعث إلى صاحب المدينة عشرين ألف دينار ، فقطعت خطبة المستنصر ودعى للقائم العباسى .

ولكن عندما استقرت الأمور فى مصر وقضاء بدر الجمالى على الفتنة ، وجه نظره إلى الحجاز ، فأرسل إلى ابن أبى هاشم أمير مكة يدعوه للدخول فى طاعة الفاطميين ، خصوصاً بعد أن أحلته من عهوده للعباسيين وفاة الخليفة القائم والسلطان ألب أرسلان ، وهدده إن يرفض ، يحرض عليه بنى عمومته من الأشراف وقواهم بالمال والرجال لأخذ الإمارة منه ، فلم يجد أمير مكة بدًّا من الاستجابة لرغبة بدر خصوصاً وقد اشتد الغلاء بالحجاز وقطعت عنه الميرة ، وأعاد الخطبة للمستنصر وهو كاره فى عيد الأضحى سنة ٤٦٧ ﻫ وقلعت ألقاب القائم والسلطان ألب أرسلان من لوح كان على زمزم ونزعت الكسوة الخراسانية وجعل مكانها كسوة بيضاء ديبقية عليها ألقاب المستنصر . ولكن هذا الولاء لم يستمر طويلا على ما يبدو إذ يذكر المقريزى فى حوادث سنة ٤٦٨ ﻫ « وقطعت خطبة المستنصر من مكة ودعى فيها للمقتدى» . ولكن فى سنة ٤٦٩ ﻫ أعيدت الخطبة للمستنصر ، إذ يذكر ابن تغرى بردى فى حوادث تلك السنة فيها من صفر غلب على المدينة النبوية محيط العلوى وأعاد خطبة المستنصر هذا بها ، وطرد عنها أميرها الحسين بن مهنا فقصد الحسين ملكشاه السلجوقى .

وظل أمراء مكة يتنقلون فى ولائهم لمن يدفع أكثر ، فتارة ينحازون للفاطميين وأخرى للعباسيين ، فيذكر المقريزى فى حوادث سنة ٤٧٠ ﻫ ، « وفيها وصل إلى مكة من بغداد منبر كبير فى شهر رمضان منقوش عليه بالذهب — لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الإمام المقتدى بأمر الله أمير المؤمنين — واتفق

وصوله وقد أعيدت الخطبة للمستنصر فكسر المنبر المذكور وأحرق » . ثم يذكر فى حوادث سنة ٤٧٢ هـ : « وفيها قطعت خطبة المستنصر من مكة وأعيدت لبنى العباس » ، ثم قطعت الخطبة للعباسيين وأعيدت للفاطميين إذ أورد المقريزى فى حوادث سنة ٤٧٨ هـ ، أن الخطبة قطعت من مكة للمستنصر وخطب فيها للمقتدى العباسى .

وقد شغل الوزراء بعد ذلك فى توطيد سلطانهم فى مصر ومواجهة الخطر الصليبى بالشام عن الاهتمام بتوطيد سلطان مصر فى الحجاز ، وقد دفع ذلك أمراء الحجاز إلى عدم الحرص على رضاء مصر ، بل تعدى الأمر إلى مهاجمة مراكب أمير مكة لثغر عيذاب ، وقطع الطريق على تجار مصر ، كما حدث فى سنة ٥١٢ هـ . وقد أدى هذا العمل إلى غضب الأفضل الذى أعلن أنه سيسير بنفسه فى أسطول أوله عيذاب وآخره جدة ، وأرسل إلى أشراف مكة وأعلمهم بما فعل أميرهم ، وأقسم فى كتابه لهم أنه لا يصل إلى مكة من أعمال الدولة تاجر ولا حاج إلى أن يرد أمير مكة ما أخذه من أموال التجار ، كما كتب إلى والى قوص بأن يسير بنفسه أو من ينتدبه إلى عيذاب لتجهيز الأسطول ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية . وتقدم إلى المستخدمين بصناعة مصر بتقديم خمسة حراريق وتكميلها ليسيروا إلى الحجاز ، « فلما وردت المكاتبة على الأشراف بمكة ولم يطل إليها أحد اشتد الأمر عندهم وتحرك الجيش . فبعثوا رسولا من أميرهم فلما وصل ساحل مصر لم يؤبه به ولا أجرى عليه ضيافة ، وقيل له ما يقرأ لك كتاب ولا يسمع منك خطاب دون إعادة المأخوذ من التجار إليهم ، وشاهد مع ذلك الجد والاهتمام بأمر الأساطيل وتجهيز العساكر إلى صاحبه ، فالتزم بإحضار جميع أموال التجار ، وسأل التوقف عن الإسراع بما عول عليه من قصد صاحبه وأجل لعوده أجلا قريباً ، فأجيب إلى ذلك ، وسار فلم ينقض الأجل حتى عاد وصحبته جميع ما أخذ من التجار من البضائع والأموال » .

وقد عاد هذا الرسول مرة أخرى سنة ٥١٦ هـ يحمل كتاب تهنئة للمأمون ،

« فأطلق له ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعون أردباً برسم مكة وتخوت وثياب وأسفاط وخلع ومال وبخور » ولكن المقريزى لم يذكر إذا كانت الخطبة قد أقيمت للآمر فى مكة أم بقيت .

وتصمت المراجع التاريخية عن ذكر أى اتصال بين مصر والحجاز طوال الفترة التى تلت قتل المأمون حتى وزارة الصالح طلائع بن رزيك وهى فترة انقسامات داخلية وفتن عانت البلاد منها الكثير وشغلتها حتى عن حماية نفسها ضد خطر الصليبيين ، وكانت الحجاز فى هذه الفترة تقيم الدعوة للخليفة العباسى إلا أن أمير مكة قاسم بن هاشم ، وقد رأى قوة الوزير الصالح ، حاول التقرب إليه فأرسل عمارة اليمنى برسالة فى سنة ٥٥٠ هـ مع بقائه على الولاء للخليفة العباسى ، وعاد عمارة إلى مصر مرة أخرى بعد موسم حج سنة ٥٥١ هـ ، إذ أرسله أمير مكة للتوسط لدى الصالح بسبب ما ارتكبه جنده وخدمه ضد حجاج مصر والشام وأخذ أموالهم ، ولكن الصالح لم يسمح لعمارة بالقدوم عليه أو العودة من حيث أتى « حتى يرد أمير الحرمين ما أخذ من مال التجار » ثم أذن لعمارة بعد ذلك بالحضور لمقابلة الصالح حيث اتخذ مصر وطناً له . ومع ذلك فإن الصالح كان يعنى عناية كبيرة بأشراف الحرمين ، وكان يحمل فى كل عام إلى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة وغيرها حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها والأقلام والمداد وآلات النساء » .

وهكذا نرى أنه فى الفترة التى استبد بها الوزراء بحكم مصر انقطعت الصلة بين مصر والحجاز إلا فى بعض الفترات القصيرة خصوصاً فى عهد بدر الجمالى واتجهت الحجاز إلى ناحية العباسيين الذين استغلوا فرصة انشغال مصر فى صراعها الداخلى بين الوزراء وفى صراعها مع الصليبيين وفرضوا نفوذهم فى الأرض المقدسة .

أما بالنسبة لليمن فقد بدأت علاقة مصر به منذ سنة ٤٢٩ هـ عندما استطاع على بن محمد الصليحى فتح حصن مسار فى حراز باسم المستنصر ، وقد

استطاع الصليحى أن يبسط سلطانه على جميع أنحاء اليمن سنة ٤٤٣ هـ وأقام الدعوة الفاطمية بها ، وحمل إلى المستنصر نجوى أهلها مع هدية تبلغ عشرة آلاف دينار . ويذكر ابن حجر أن ذلك تم بمجهود من الوزير اليازورى الذى راسل الصليحى . وقد ظل الصليحى مقيماً على ولائه للمستنصر كما تدخل تدخلا إيجابيًّا فى بسط سلطان الفاطميين على الحجاز كما حدث سنة ٤٥٥ هـ عندما قدم إلى مكة وأقام بها دعوة المستنصر وكسا الكعبة حريراً أبيض ورد حلية الكعبة إليها، وكان بنو الحسن قد أخذوها ومضوا بها إلى اليمن فاشتراها منهم وأعادها فى ذلك العام ، واستخلف على مكة محمد بن أبى هاشم .

ولكن قتل الصليحى سنة ٤٥٩ هـ استتبعه قطع دعوة المستنصر من اليمن وإقامة الدعوة العباسية هناك لفترة من الزمن لا نعلم على وجه الدقة مداها ، وإن كان من المرجح أن دعوة المستنصر أعيدت إلى اليمن مرة أخرى بعد أن تمكن بدر الجمالى من إعادة هذه الدعوة إلى الحجاز سنة ٤٦٧ هـ ، يؤيد ذلك أن أول سجل وصل إلينا من السجلات التى أرسلها المستنصر إلى أحمد المكرم ابن على الصليحى تاريخه ربيع الأول سنة ٤٦٨ هـ ، وبذلك يمكن القول أن بدر الجمالى هو الذى أعاد نفوذ الفاطميين إلى اليمن وأصبح اتصال الصلحيين به يتلقون تعليماته وينفذون أوامره .

ولما توفى أحمد المكرم سنة ٤٧٨ هـ بادر بدر بتثبيت ابنه عبد المستنصر مكانه إذ جاء فى السجل الذى أرسل باسم المستنصر ، أن الخليفة أمر بدراً « أن يقلدك النظر فيما كان أبوك تقلده من الدعوة الهادية والأحكام فى اليمن وسائر الأعمال المضافة إليه برًّا وبحراً وسهلا ووعراً ونازحاً ودانياً وقريباً ونائيا ، والتقليد مقرون بهذه المكاتبة » .

ولما حاول بعض أمراء اليمن عدم الاعتراف بهذا الغلام الصغير ، وصلهم سجل بتاريخ شهر ربيع الأول سنة ٤٨٠ هـ إلى كافة السلاطين الصلحيين والزواحيين والمشايخ الحجازيين وطوائف المؤمنين يحضهم على طاعة عبد المستنصر وأمه ، وجاء فى هذا السجل : « واعلموا أن داعيكم وإن كان صغير

السن فإن له من لطيف ملاحظة أمير المؤمنين ومتواصل رعايته ، ومن تكفل فتى أمير المؤمنين ، السيد الأجل أمير الجيوش واعتنائه بصلاح شأنه وتمكين مكانه ، وصرف أكثر اهتمامه إليه ما ينهض بضبعه [1] ويقيم أوده ويبسط بالتمكين باعه ويده ، ويرفعه عن مواطن الحداثة واليفاعة إلى مواقف أولى الحجا والبراعة » . وهكذا تظهر هذه السجلات مدى نفوذ بدر وسيطرته على شئون اليمن .

وظلت السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر على ولائهما للفاطميين فى عهدى المستعلى وابنه الآمر . ولكن يبدو أن مصر اضطرت إلى تعضيد نفوذ الملكة الحرة ضد معارضيها فأرسلت سنة ٥١٣ ﻫ الداعى أبا الحسن على بن إبراهيم ابن نجيب الدولة المصرى ليقوم بالدعوة ويشرف على شئون القائمين بأمر الدولة الصليحية فى اليمن ، وقد أحسنت الملكة الحرة استقباله ووثقت به وعهدت إليه بأمور الحكم يصرفها وكان منها بمثابة الوزير . ولا شك أن هذه السفارة كانت على الأقل بموافقة الأفضل إن لم يكن هو الذى أرسلها .

ولما خلف المأمون البطائحى الأفضل جدد تفويض أبى الحسن وأعانه ببعثة عسكرية قوامها أربعمائة فارس من الأرمن وسبعمائة من السودان .

ولكن الآمر لم يلبث أن أرسل رسولا آخر يدعى الأمير الكذاب ، ولم تذكر المراجع السبب فى إرساله ، ولكنها ذكرت أن العلاقات كانت سيئة بين هذا الرسول وأبى الحسن حتى إن الأخير أهانه فى مجلس حافل ، ومن ثم أخذ الرسول يكيد له ويتجمع حوله الكارهون للداعية المصرى وخاصة بعد أن استبد بأمور الملكة الحرة .

ولكنا إذا ربطنا ذلك بما حدث للمأمون البطائحى فيما بعد من القبض عليه ثم قتله ، يمكننا أن نرجح أن الآمر عندما ترامى إليه ــ سواء صدقاً أو كذباً ــ أن المأمون طلب من أبى الحسن أن يدعو للإمام المختار محمد بن نزار وأن يضرب السكة باسمه ، أرسل هذا الأمير الكذاب ليتحرى الأمر ، وانتهز هذا الرسول

---

(١) الضبع كما جاء فى اللسان يعنى العضد ، والمقصود يشد عضده .

الفرصة للإيقاع بأبي الحسن فطلب من أعدائه الادعاء بأن أبا الحسن دعاهم إلى نزار وأنه راودهم على البيعة له ثم حرضهم الأمير الكذاب على أن يضربوا سكة نزارية ففعلوا . وعند عودة الأمير الكذاب للقاهرة كان الخليفة قد قبض على وزيره ، فلما عرض عليه الكتب والسكة اعتقد الآمر فى صحة ما بلغه ، وبادر إلى قتل المأمون ، ثم أرسل فى طلب ابن نجيب الدولة الذى لا يعرف ما حدث له بعد خروجه من اليمن برغم محاولة الملكة الحرة إنقاذه .

ومع ذلك ظلت العلاقات طيبة بين اليمن ومصر فى عهد الآمر . ولكن عندما ولى الحافظ الخلافة أنكرت عليه الملكة الحرة ذلك واعتبرت إمامته باطلة ورفضت الاعتراف به كخليفة معلنة ولاءها للطيب بن الآمر مما حدا بالحافظ إلى استمالة أسرة الزريعيين حكام عدن وقلدهم أمر دعوته وبذلك انقسمت إسماعيلية اليمن إلى فرقتين الطيبية والحافظية .

ونجد القليل بعد ذلك عن ذكر العلاقة بين مصر واليمن إلى أن تشير المراجع إلى رسول أرسلته مصر إلى اليمن ، واختلفت فى عهد من أرسل والسبب فى إرساله وإن يرجح أنه أرسل فى عهد الفائز وأنه عاد فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك ، وأنه أرسل لمحاربة الدعوة الطيبية . إلا أن العلاقة مع عدن كانت مستمرة فيذكر عمارة اليمنى أن الصالح رزيك كتب إلى عمران بن محمد الداعى باليمن سنة ٥٥٠ هـ ليسقط ديناً كان على عمارة قدره ثلاثة آلاف دينار وأن صاحب عدن لما وقف على كتاب الوزير أسقط من عمارة هذا المال وأبرأه منه. كما يذكر عمارة أيضاً أن أهل عدن أساءوا لرسول شاور الذى أرسله إلى اليمن سنة ٥٦١ هـ وأن أهل عدن أرسلوا رسولين إلى مصر هما أبو محمد بن شعيب وعلى بن مفلح ، فأمر الوزير بقتلهما لولا تشفع عمارة لهما، يقول عمارة : « ثم أحضرت الكتب واستخبرت الجواب وأخذت لهما منه مائة دينار . وقال لهما يوم الوداع والله لولا فلان لضربت رقابكما وقطعت ما بين الدولة وبين أهل عدن » .

الباب السادس

الوزراء والعلاقات الخارجية

الفصل الأول : العلاقات مع الروم

الفصل الثانى : العلاقات مع الصليبيين

الفصل الثالث : العلاقات مع النوبة

الفصل الأول

العلاقات مع الروم

عندما استولى الفاطميون على بلاد الشام استطاعوا أن يقفوا موقف الند القوى للدولة البيزنطية ، وأن يوقفوا توغلهم الذى كانوا قد بدءوا به فى بلاد الشام منتهزين فرصة الضعف الذى انتاب الدولة العباسية ، بل إن الفاطميين اضطروا البيزنطيين إلى الوقوف موقف الدفاع . على أن أهم ماحرص عليه البيزنطيون هو عدم وقوع حلب فى يد الفاطميين ، لذلك نجدهم دائماً يسارعون إلى نجدتها كلما تطلع الفاطميون إلى الاستيلاء عليها إذ أن فى وجود حلب بعيداً عن قبضتهم حماية لبلاد الروم نفسها .

وقد استمرت علاقة الفاطميين بالروم بين شد وجذب ، فتارة يلجآن للمهادنة والموادعة ، وأخرى يشتد بينهما الصراع . ولقد لعب الوزراء الفاطميون دوراً كبيراً فى هذه العلاقة ، وكانت سياسة ابن كلس كما تظهر من نصيحته للمعز هى مسالمة الروم إن جنحوا للسلم . ولقد اضطر البيزنطيون إلى مهادنة الفاطميين الذين استعادوا نفوذهم على الشام فلم يتعرضوا لأملاكهم بها ، إلا أنهم اضطروا لمساعدة حكام حلب عندما حاول يكجور الاستيلاء عليها سنة ٣٧٣ ﻫ باسم الخليفة الفاطمى ولم يمكنوه من فتحها . وفى سنة ٣٧٧ ﻫ أرسل الإمبراطور باسيل الثانى رسله مع هدية إلى العزيز ويطلب عقد صلح بين الدولتين ، وقد قبل الخليفة عقد الصلح بشروط أهمها :

١ ــ أن يطلق البيزنطيون سراح من عندهم من أسرى المسلمين .

٢ ــ أن يدعى للخليفة العزيز بجامع القسطنطينية .

٣ ــ أن تضع الحرب أوزارها بين الدولتين لمدة سبع سنوات .

لكن هذه الهدنة لم تستمر حتى نهايتها ، ففى سنة ٣٨١ هـ عندما توجه بكجور للاستيلاء على حلب استعان سعد الدولة بالروم الذين سارعو إلى نجدته وانتهت حملة بكجور بالفشل نتيجة تدبير عيسى بن نسطورس كما سبق أن ذكرنا .

وبرغم المصادمات التى كانت تحدث بين الدولتين . فإن هذا لم يمنع التجار الروم من الحضور إلى مصر للتجارة ولم يكن هناك ما يمنعهم من حرية التجول . فيذكر المؤرخون أن العزيز عندما علم بحضور الإمبراطور باسيل بنفسه إلى الشام عزم على الخروج لحربه وأمر بإنشاء أسطول ، غير أن هذا الأسطول اشتعلت فيه النيران فى أواخر ربيع الآخر سنة ٣٨٦ هـ واتهم المصريون التجار الروم الذين كانوا يقيمون قرب دار الصناعة بإحراقه ، وقامت فتنة قتل فيها فريق كبير من التجار الروم يقال إن عدتهم مائة وستون رجلا حتى استطاع الوزير عيسى بن نسطورس السيطرة على الموقف .

وكان من آثار الفتنة بين ابن عمار وبرجوان . اضطراب أمور الشام وقيام الثورات بها ، ووجد الروم الفرصة سانحة للتدخل ، فعندما ثار العلاقة بصور سنة ٣٨٨ هـ استنجد بالروم الذين أمدوه بأسطول كما حاصر قائدهم (دانيانوس ديلاسينوس) الذى يعرفه العرب باسم الدوقس حصن أفاميه ، وقد بادر برجوان بإرسال حملة برية وبحرية بقيادة جيش بن الصمصامة ، ودار قتال عنيف بين الأسطولين المصرى والبيزنطى هزم فيه أسطول الروم وأسرت إحدى سفنه وبها مائتا رجل قتلوا عن آخرهم ، وسقطت صور فى يد المصريين . ثم توجه جيش بعد فتح دمشق لقتال الروم حيث التقى الفريقان قرب أفامية ، ودارت معركة عنيفة كاد أن يهزم فيها المصريون لولا أن ثبت قائد الفرسان بشارة الإخشيدى فى خمسمائة فارس ، وتمكن جندى من الأتراك يدعى أحمد بن الضحاك من أصحاب بشارة من التسلل حيث يقف الدوقسى وضربه بقضيب من حديد فقتله وهزم الروم وقتل منهم زهاء الستة آلاف وأسر أبناء الدوقسى وجماعته من رؤساء العسكر ، وحملوا إلى مصر حيث

افتداهم الروم بعد عشر سنوات . وسار جيش حتى أبواب أنطاكية يغنم ويسبي ويحرق وعاد إلى دمشق .

واضطر الإمبراطور بعد هذه الهزيمة أن يخرج بنفسه غازياً لبلاد الشام فى شوال سنة ٣٨٩ هـ حيث ظل شهرين يفتح بلاد الساحل فاستولى على جسر الحديد وشيزر وحصن أبى قبيس ومصياف[١] وحمص ثم سار إلى بعلبك . وفى هذه الأثناء أرسل جيش يطلب النجدات من مصر فأرسل له برجوان كل ما طلبه من رجال وسلاح وأموال وأمر كل والٍ بالشام بمؤازرته فساروا إلى دمشق، للالتقاء بجيش ، ولكن الملك اضطر للعودة إلى بلاده فى المحرم سنة ٣٩٠ هـ بعد أن حاصر طرابلس خمسة أيام حيث قتل وجرح من أصحابه جماعة كبيرة .

وكان الملك قبل هذه الغزوة قد أرسل رسولين إلى مصر لإقرار الهدنة بينهما وكادت أن تفشل هذه السفارة لولا انسحاب الملك . ورأى برجوان أن من الحكمة عقد الصلح مع الروم حتى يتفرغ للسياسة الداخلية بمصر ولإقرار الأمور فى الشام ، لذلك بادر بالموافقة على عرض الروم وأرسل مع رسلهم أريسطس بطريرك بيت المقدس كسفير مفوض لعقد الصلح . ونجح البطريرك فى عقد الهدنة لمدة عشر سنوات وأقام هو بالقسطنطينية أربع سنوات ومات بها .

وظل الروم يحترمون هذه الهدنة ، بعيدين عن التدخل فى شئون الشام ، حتى إن الإمبراطور باسيل رفض الاستجابة لعرب الشام الذين عقدوا حلفاً فيما بينهم سنة ٤١٧ هـ لتقسيم بلاد الشام وحاولوا الا ستعانة بالإمبراطور .

وعندما تولى أبو القاسم الجرجرائى وزارة الظاهر سنة ٤١٨ هـ سار على سياسة المهادنة مع الروم خصوصاً وأن اضطراب الأحوال فى الشام استلزم الحفاظ

---

(١) جسر الحديد : قرب إنطاكية .

شيزر : قلعة تشتمل على كورة قرب المعرة بينها وبين حماة .

حصن أبى قبيس : حصن مقابل شيزر .

مصياب : حصن مشهور للإسماعيلية قرب طرابلس ، وبعضهم يقول مصياف .

على السلام بين البلدين حتى يتمكن من إعادة النظام والقضاء على الفئات الثائرة ، لذلك نراه يعمل على تجديد الهدنة مع الإمبراطور قسطنطين الثامن على أن يخطب للظاهر بمساجد بلاد الروم وفتح جامع القسطنطينية وعمل له الحصر والقناديل وأقيم به مؤذن ، وأذن الظاهر فى فتح كنيسة القيامة بالقدس كما سمح بارتداد من يريد ممن أسلموا كرهاً أيام الحاكم .

ولكن الصراع على امتلاك حلب لم يهدأ ، لذلك انتهز البيزنطيون الفرصة التى أتاحها انتصار الدزبرى على عرب الشام وقتل صالح بن مرداس صاحب حلب فخرج الإمبراطور سنة ٤٢٠ هـ فى ثلاثين ألف جندى للاستيلاء عليها من نصر بن صالح . ولكن انقسام الجيش وتمرد أحد قادته المعروف بابن الدوقسى ، جعل الإمبراطور يرتد عائداً بعد أن أصبح على مسيرة يوم من حلب . وفى سنة ٤٢٢ هـ خرج جيش من الروم على رأسه حسان بن مفرج ــ الذى هرب أمام الدزبرى والتجأ إلى الروم ــ واستطاع هذا الجيش الاستيلاء على أفاميه من أملاك الفاطميين ، فأسرع الدزبرى يستنفر الناس للغزو والجهاد ، وخاف نصر بن صالح أن يستولى الدزبرى على حلب ، فاتفق مع إمبراطور الروم على حمايته مقابل أن يدفع خمسمائة ألف درهم سنوياً .

وجدد الجرجرائى الهدنة مع الروم سنة ٤٢٧ هـ لمدة عشر سنوات ويظهر أن غرضه من ذلك ألا يتدخل الروم فى سبيل استيلاء المصريين على حلب ، وقد نجح الجرجرائى فى ذلك ، فعندما فسدت العلاقة بين نصر بن صالح وبين مصر فى أول خلافة المستنصر أرسل نصر إلى ملك الروم سنة ٤٢٨ هـ يستنصره وبعث إليه بما عليه من جزية مع هدية قيمة ، ولكن ملك الروم أشار عليه بالدخول فى طاعة المستنصر ، فاضطر إلى استرضاء القاهرة وأرسل هدية جليلة ، كذلك لم يتدخل الروم عندما استولى الدزبرى على حلب سنة ٤٢٩ هـ فقابل الجرجرائى ذلك بمحاولة لاسترضاء الروم ، إذ وافق على قيام الروم بتعمير كنيسة القيامة على أن يطلق الروم سراح خمسة آلاف أسير مسلم . وزاد النشاط التجارى بين بيزنطة ومصر ، فكان البيزنطيون يستبدلون بأخشاب

بلادهم الملح المستخرج من وادى النطرون ، وأخذت موانى مصر تستقبل المزيد من مراكب الروم كما كانت سفن مصر تصل إلى موانى الروم علاوة على القوافل التجارية المارة بالطرق البرية خصوصاً طريق حلب .

ولكن الروم نقضوا الهادنة سنة ٤٣٢ هـ ، ويذكر ابن الأثير أن سبب ذلك اتفاق الروم والمرداسيين على أن يعملوا يداً واحدة ضد الدزبرى ، وتجهز الروم لقصد حلب ، فأرسل الدزبرى جيشاً التقى بجيش الروم بين حماة وأفامية ، وانتصر عليه بعد معركة عنيفة « وانكف الروم عن الأذى بعدها »

وفى سنة ٤٤٦ هـ لم يتردد الإمبراطور قسطنطين التاسع فى الموافقة على أن يرسل إلى مصر ما طلبه اليازورى من غلال ليتغلب على المجاعة التى تعرضت لها البلاد لولا وفاة الإمبراطور ، واشترط الإمبراطورة تيودورا التى تولت العرش عقد معاهدة تتعهد فيها مصر بمساعدة بيزنطة ضد أى اعتداء ، ويظهر أن اليازورى خشى أن يؤدى ذلك إلى الاحتكاك بقوة السلاجقة النامية فرفض طلب الإمبراطورة ، فألغت بدورها صفقة القمح ثم سمحت لرسول طغرلبك أن يصلى بجامع القسطنطينية فصلى فيه الجمعة وخطب للقائم العباسى فى حين منعت القضاعى رسول اليازورى والذى كان موجوداً هناك ، من ذلك ، فلما سمع اليازورى بذلك استولى على ما فى كنيسة القيامة من كنوز وطرد البطريرك منها وتشدد مع النصارى ، وأدى ذلك إلى سوء العلاقات بين البلدين ، وانحاز البيزنطيون إلى جانب السلاجقة وقامت الحروب بين الدولتين مدة طويلة كان النصر فيها إلى جانب المصريين . ويذكر المقريزى أن الوزير جهز جيشاً بقيادة مكين الدولة الحسن بن على بن ملهم حاصر اللاذقية مدة ، فأرسلت الإمبراطورة أسطولا من ثمانين قطعة لمساعدة اللاذقية وتمكن هذا الأسطول من أسر شونين للمسلمين فتبعهم ابن ملهم إلى أطراف أنطاكية واستنقذ الأسرى وقتل من الروم خلقاً كثيراً ، ثم عاد الأسطول الرومى إلى طرابلس حيث قاتل أهلها فقتل من الفريقين خلائق ثم أمد الوزير ابن ملهم بجيش آخر على رأسه الأمير السعيد ليث الدولة فتمكن من فتح اللاذقية ، ولما لم يصل إلى اتفاق مع الروم أرسل

جيشاً ثالثاً على رأسه الأمير ابن موفق الدولة حفاظ بن فاتك وأبو الجيش عسكر بن الحلى وجعل القيادة العليا لابن ملهم الذى أوغل فى بلاد الروم يقتل ويأسر ، هذا والرسل والمكاتبات تتردد بين الطرفين حتى تم الاتفاق على أن يدفع الروم الجزية . وجهز الروم الجزية التى بلغت نيفاً وثلاثين ألف دينار ووصلت إلى أنطاكية فى طريقها إلى مصر ، ولكن بلغهم خبر القبض على الوزير وقتله ، « فأعيدت إلى القسطنطينية وزينت بلاد الروم لموته ، وكثر ابتهاجهم مما صرف عنهم من خشونة جانبه عليهم وشدة شكيمته » ، واستطاع الروم بعد ذلك من هزيمة ابن ملهم وأسره هو وجماعة من أعيان العرب .

وبعد موت اليازورى ، أخذت علاقة مصر بالشام ، ومن ثم علاقتها بالروم ، تضعف نتيجة استيلاء السلاجقة على معظم بلاد الشام وحلولهم محل الفاطميين .

الفصل الثانى

العلاقات مع الصليبيين

لم يفهم العرب فى أول الأمر طبيعة الحركة الصليبية ولم يتبينوا غرضها فظنوها مثل الحملات التى كان يشنها البيزنطيون بين الحين والحين ، لذلك لم يهتم العرب المنقسمون على أنفسهم بالتكتل أمام هذا الخطر . بل وجد فيه كل فريق فرصة مواتية للقضاء على خصمه ، كما أن الخلافات الداخلية شغلت كلاً من الدولتين العباسية والفاطمية عن اتخاذ أى إجراء لمقاومة هذا الخطر الجديد . فوجد الصليبيون الطريق مفتوحاً أمامهم إلى امتلاك معظم الشام ، ولم يفق المسلمون من سباتهم ولم يتبينوا حقيقة الغزو الصليبى إلا بعد أن وطدوا أقدامهم فى الشام .

وقد اتهم المؤرخون الأفضل بن بدر الجمالى بمحاولة الانضمام للصليبيين ، والاستعانة بهم فى القضاء على أعدائه من السلاجقة ، واعتبروا ذلك تنكراً من الأفضل لإسلامه وعروبته . ولكننا إذا حاولنا دراسة موقف الأفضل من خلال ماذكرناه آنفاً لا ستطعنا أن نتفهم الدوافع التى ألجأته إلى ذلك . فمصر قبل وصول بدر الجمالى كانت قد وصلت إلى حالة من الفوضى والبؤس صورها لنا المؤرخون بصور مؤلمة وانقسم الجيش على نفسه وأخذت فرقه المتنازعة تعيث فى البلاد فساداً . وبرغم نجاح بدر وابنه من بعده فى القضاء على عوامل الفساد ، والخروج بالبلاد من أزمتها الاقتصادية إلا أن ذلك كله ترك أثره فى إضعاف قوتها الحربية ، مما جعل بدراً يعجز عن استرداد ما ضاع من أملاك مصر بالشام ، زد على ذلك ما حدث فى أول وزارة الأفضل من انقسام بين صفوف المذهب الفاطمى وظهور فرقتين متعاديتين هما النزارية والمستعلية وما تلا ذلك من جهود قام بها الأفضل للقضاء على ثورة نزار . هذا من الناحية الداخلية ،

أما من الناحية الخارجية فإن مصر أصبحت تواجه خطراً يسعى للقضاء عليها ، ذلك هو خطر السلاجقة السنيين الذين استولوا على معظم أجزاء الشام ، وأصبحوا يهددون مصر نفسها محاولين القضاء على المذهب الإسماعيلي والدولة الفاطمية ، ولقد كان العداء بين هاتين القوتين عداء عنيفاً عميقاً جعل أى مهادنة بينهما غير ممكنة . وقد رأينا كيف كان كل من الفاطميين والعباسيين يحاول الاستعانة بالبيزنطيين ضد عدوه الآخر . زد على ذلك ما لمسناه من تسامح دينى نعم به المسيحيون فى بلاد الإسلام ، والمسلمون فى بيزنطة بوجه عام إلا فى فترات . فكان للمسلمين مساجدهم فى القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم كما كانت كنيسة القيامة فى القدس فى حماية المسلمين ، ويفد إليها المسيحيون من كل البلاد دون عائق . كما أن الفاطميين استعانوا بوزراء من المسيحيين واليهود . وكان من المألوف أن يستعين الحكام المسلمون فى بعض الأحيان بالبيزنطيين ضد بعضهم البعض أو يستنجد البيزنطيون بالأساطيل المصرية ضد منافسيهم المسيحيين بصقلية . فالأفضل على مايبدو لم ير مانعاً من الاتصال بالصليبيين خصوصاً وأنه كان ينظر إليهم كمجرد مرتزقة تابعين للإمبراطور البيزنطى .

لذلك عندما علم الأفضل بوصول الفرنج إلى أنطاكية أرسل إليهم سفارة ، يدعوهم فيها إلى المفاوضة مقترحاً تقسيم الشام فيكون شمال سوريا من نصيب الفرنج وتستولى مصر على فلسطين ، ولكى يجعل لاقتراحه قوة خرج إلى فلسطين ، واستولى على بيت المقدس فى رمضان سنة ٤٩١ هـ .

وقد استقبل الصليبيون هذه السفارة بالتكريم وإن لم يدخلوا معها ، فى أية مباحثات ، وعاد المصريون مصحوبين بسفارة إفرنجية محملة بالهدايا معظمها من الغنائم التى سلبوها من المسلمين . ولكن كلا السفارتين لم تأت بالنتيجة المرجوة التى أرادها الأفضل ، فالصليبيون كانت وجهتهم بيت المقدس وامتلاكها وقد استغلوا فرصة إرسال الأفضل لهذه السفارة أحسن استغلال ، وتبينوا مدى التفكك بين الحكام المسلمين ، فأرسلوا إلى دقاق صاحب دمشق يطلبون منه عدم التدخل وأنه لا مطامع لهم فى ممتلكاته ، وسار الصليبيون عن طريق الساحل ، وقد أمنوا تدخل أمراء المسلمين ، إلى بيت المقدس حيث تمكنوا من دخول

المدينة بعد أشهر قليلة من استيلاء الأفضل عليها .

وكان لسقوط بيت المقدس وقتل سبعين ألفاً من المسلمين صداه القوى فى العالم الإسلامى ، إلا أن العباسيين لم يتمكنوا من مد يد المعونة نتيجة للفتنة بين أمراء السلاجقة بعد مقتل ألب أرسلان ، والخلاف بين السلطان بركياروق وأخيه محمد . أما فى مصر فقد عرف الأفضل — وإن كان ذلك متأخراً — طبيعة الحركة الصليبية ومدى الخطر الذى يهدد مصر والإسلام ، ومنذ ذلك الوقت حمل لواء الجهاد ضد الصليبيين مادًّا يده إلى أمراء السلاجقة فى الشام متناسيا ما بينهم من أحقاد وخلاف . وخرج الأفضل إلى عسقلان فى رمضان سنة ٤٩٢ هـ وأرسل إلى الفرنج مظهراً لهم سخطه على ما فعلوه بالمسلمين . ويبدو أنه كان يعتقد فى إمكان استئناف المفاوضات معهم . إلا أنهم بادروه بقواتهم ودارت معركة عنيفة كاد أن يقتل فيها الأفضل ولم ينج إلا بأعجوبة وقتل الكثيرون من جنوده ، وعاد هو بحراً إلى مصر وترك عسقلان لمصيرها ، ولولا وقوع الخلاف بين الصليبيين لأمكنهم فتحها . ولم يخرج الأفضل بعد ذلك بنفسه لقتال الصليبيين وإن لم يأل جهداً فى إرسال الحملة تلو الحملة ولم يبخل حتى بأولاده فى جهاد الصليبيين . كما حاول الأفضل عمل جبهة موحدة من مصر ودمشق ووجد استجابة من أميرها طفتكين ، ولكن ذلك لم يأت بنتيجة فقد مات الأفضل ولم يبق بيد مصر من بلاد الشام إلا صور وعسقلان .

وفى سنة ٥١٧ هـ قدمت على المأمون رسل ظهير الدين طفتكين صاحب دمشق وآق سنقر صاحب حلب للاجتماع على حرب الصليبيين . فبادر المأمون فجهز جيشاً فى البر على رأسه حسام الملك البرقى ، وأسطولا من أربعين شينيا ، وتوجه الجيش والأسطول إلى عسقلان وشنوا الغارات على الصليبيين . ولكن هذه الحملة لم تأت بأية نتيجة ، بل إن المأمون اضطر فى شعبان من نفس السنة إلى تسليم مدينة صور إلى طفتكين صاحب دمشق لعدم استطاعة مصر الدفاع عنها ، ونعت طفتكين بسيف أمير المؤمنين وخلعت عليه الخلع . ورغم ذلك فقد سقطت صور سنة ٥١٨ هـ بعد أن حاصرها الصليبيون مدة ، وتقاصر المأمون عن

نجدتها ، وقبل طفتكين تسليمها على أن يؤمن خروج أهلها منها بما خف حمله وتفرقوا فى البلاد . ولم يعد فى يد الفاطميين إلا عسقلان التى ظلت تدافع عن نفسها برغم اضطراب الأحوال الداخلية فى مصر ، بل إن مصر نفسها لم تكن لتسلم من استيلاء الصليبيين عليها لولا ظهور أمراء أقوياء مثل عماد الدين زنكى ، ثم ابنه نور الدين من بعده الذى نهض للقضاء على هذا الخطر ، وعمل على توحيد الشام تحت حكمه ليقابل العدو بجبهة موحدة ، وأمكنه أن يجعل مملكة بيت المقدس تشعر بالخطر ، ولو كانت مصر فى حالة من الاستقرار الداخلى ، أو كانت على المذهب السنى مثل نور الدين ، لكان فى ارتباطهما القضاء على الصليبيين .

ولقد حاول الوزير ابن السلار ، السنى المذهب ، أن يتحالف مع نور الدين ، وكان الوسيط بينهما أسامة بن منقذ وكانت الفرنج قد شرعوا فى عمارة غزة ليحاصروا عسقلان فأرسل ابن السلار أسامة ومعه الأموال والهدايا ، وأمره أن يطلب من نور الدين منازلة طبرية ، واشترط ابن السلار أنه فى حالة موافقة نور الدين يعطيه أسامة ما معه من مال ، فإن امتنع فعلى أسامة أن يجند بما معه من مال جنداً يتوجه به إلى عسقلان ليقاتل الفرنج . فلما وصل أسامة إلى بصرى وجد نور الدين يحاصر دمشق ، لذلك اعتذر عن السير معه خوفاً من أهل دمشق ، فاستأذن أسامة فى أن يجند قوماً من الجند على أن يرسل معه نور الدين رجلا من أصحابه فى ثلاثين، فارساً حتى يعلم الفرنج بقبوله الحلف مع مصر ، فأذن له فى ذلك ، وسير معه الأمير عين الدولة الياروقى فى ثلاثين فارساً . وسار أسامة وسط بلاد الفرنج دون أن يتعرض له أحد حتى وصل عسقلان ، فجمع الصليبيون قواتهم لحصارها ، ولكن أسامة تمكن من ردهم وظل بعسقلان أربعة أشهر يهاجم بلادهم القريبة يأسر ويقتل حتى جاءه كتاب ابن السلار يستدعيه إلى مصر ، فترك بها أخاه عز الدولة أبو الحسن على ، الذى قتل وهو ينازل غزة .

ولم يأل بن السلار جهداً فى محاربة الصليبيين ، فجهز فى سنة ٥٤٦ هـ

أسطولا أنفق عليه ثلثمائة ألف دينار للانتقام من الصليبيين تخريبهم الفرما فى سنة ٥٤٥ هـ . وأقلع الأسطول فى ربيع الأول إلى يافا وعكا وصيدا وبيروت وطرابلس حيث أسروا عدة من مراكب الفرنج وقتلوا خلقاً كثيراً . وبلغ ذلك مسامع العادل نور الدين فعزم على قصد الفرنج ومحاربتهم فى البر ، ولكنه شغل بأمور دمشق ، ولو كان نور الدين قد تمكن من الخروج لحرب الصليبيين لكان ذلك قد غير وجه التاريخ ولأمكن قطع دابر الفرنج .

واهتم ابن السلار اهتماماً كبيراً بأمر عسقلان آخر معقل لمصر فى الشام ، فتوى حصونها وأمدها بالرجال والأموال والأقوات ، وكان يبدل حاميتها كل ستة أشهر حتى تقوى على صد الفرنج . ولكن بعد أن قتل ابن السلار سنة ٥٤٨هـ بطل سير العساكر إلى عسقلان ، فانتهز الفرنج الذين كانوا محاصرين لعسقلان الفرصة « فقالوا لأهلها سلطانكم قتله ابنه وأنتم تقاتلون لمن ! فلما صح الخبر لهم وهنوا لانقطاع المدد حتى أخذها الفرنج وقووا بأخذها » . ويذكر أن أهل عسقلان أرسلوا إلى نور الدين وإلى مجير الدين صاحب دمشق يستصرخونهما ، فاتفقا على النزول على بانياس ليشغلوا الفرنج النازلين على عسقلان ، ولكن الخلف وقع بين المسلمين فعاد نور الدين إلى حمص ومجير الدين إلى دمشق ، ولما طال انتظار أهل عسقلان للمدد من مصر دون جدوى ، اضطروا لتسليمها للفرنج ، وكان بها من الذخائر والعدد والغلال ما لا يحصى . وهكذا فقدت مصر نتيجة لجريمة عباس وابنه آخر معقل لها بالشام .

وقد رفع الصالح بن رزيك علم الجهاد من جديد ،فاهتم بإرسال الأساطيل والسرايا لمهاجمة الصليبيين ، فجهز فى سنة ٥٥٠ هـ أسطولا هاجم ميناء صور حيث ظفر بمراكب الفرنج وعاث فى الميناء قتلا وأسراً . وعقد الفرنج مع الصالح بعد هذه الوقعة هدنة استمرت حتى سنة ٥٥٢ هـ شرع الصالح بعدها فى إرسال الحملات البرية والبحرية للإغارة على بلاد الفرنج ، فأول سرية جهزها فى السابع والعشرين من جمادى الأولى سارت إلى غزه وعسقلان حيث نهبت أطرافهما وعادت بغنائم كثيرة . وأعقب ذلك الحملات المظفرة طوال سنى

٥٥٢ . ٥٥٣ . ٥٥٤ هـ ، كما حصلت اتصالات بين الصالح ونور الدين للعمل يداً واحدة ، وكتب الصالح له عدة قصائد يحرضه فيها على الجهاد . فأرسل نور الدين رسولا سنة ٥٥٢ هـ وآخر سنة ٥٥٣ هـ كما قدم رسول الفرنج يطلب الصلح ، وقد أعاد الصالح رسول نور الدين بجواب رسالته ومعه هدية من الأسلحة ما قيمته ثلاثون ألف دينار ومن العين ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على جهاد الفرنج . وقد اهتم الصليبيون بمهادنة الصالح فأرسلوا رسولا آخر سنة ٥٥٤ هـ ومعه هدية وعرض بقيام هدنة بين الطرفين . إلا أن رسولا من قبل نور الدين وصل إلى مصر يخبر بأنه متوجه لمهاجمة الصليبيين وطلب خروج حملة من مصر تشغلهم . فبادر الصالح بتجهيز ستة آلاف وخمسمائة فارس لشن الغارات على غزة . كما خرج أسطول فى البحر لمهاجمة موانى العدو وسفنه .

ويبدو أنه كان هناك اتفاق بين ابن رزيك ونور الدين على أنه بعد طرد الصليبيين من الشام يجرى تقسيمها بين نور الدين ومصر . يظهر ذلك من قصيدة للمهذب بن الزبير أحد أصدقاء ابن رزيك المقربين إذ يشير فى قصيدته هذه إلى تلك الوقعة وإلى هذا الاتفاق .

فمن تلك القصيدة :

وأعدت رسل ابن القسيم إليه فى ... شعبان كما يلأم الشعبان
والفأل يشهد باسمه أن سوف يغ ... دو الشام وهو عليكما قسمان
وأراك من بعد الشهيد أباً له ... وجعلته من أقرب الإخوان

ولكن برغم اهتمام الصالح بقيام هذا التحالف وكتبه المتلاحقة لحث نور الدين على العمل يداً واحدة والقيام بمجهود مشترك ضد العدو ، إلا أن ذلك لم يأت بالغرض المنشود ، إما لأن نور الدين لم يكن يثق تماماً فى عروض مصر ، أو لأن القدر لم يمهل الصالح إذ قتل بعد قليل . ومات الصالح وهو يتأسف لعدم تمكنه من فتح بيت المقدس وطرد الصليبيين .

ودخلت البلاد بعد ذلك فى حالة من الفوضى دفعت كلا من نور الدين والصليبيين إلى التدخل فى شئون مصر . ففى سنة ٥٥٨ هـ استولى شاور على

الوزارة من العادل رزيك ، ولكن ضرغاماً تمكن من الثورة عليه بعد أشهر قليلة ففر إلى الشام مستنصراً نور الدين ومستعيناً به لاستعادة الوزارة ، على أن يتعهد بدفع نفقات الحملة التى ترسل معه وثلث دخل البلاد كجزية سنوية . وأن يتصرف فى مصر كوكيل لنور الدين . وبرغم تطلع نور الدين إلى امتداد نفوذه إلى مصر إلا أنه تردد كثيراً قبل الموافقة على طلب شاور .

وتذكر بعض المراجع أن تطور الحوادث هى التى دفعت إلى تدخل نور الدين ، إذ أن ضرغاماً وزير مصر اختلف مع عمورى ملك بيت المقدس على المبلغ السنوى الذى كان يدفعه الوزراء أخيراً للفرنجة حتى يضمنوا عدم إقدامهم على غزو مصر مما دفع ملك بيت المقدس إلى غزو مصر لولا إقدام ضرغام على فتح سدود النيل وقت الفيضان . فأغرقت البلاد واضطر عمورى للعودة ، ولكن ضرغاماً لما علم بالتجاء شاور إلى نور الدين وطلب معونته شعر بخطئه لعدم ارتباطه بالفرنج فأسرع إلى عمل هدنة دائمة وزاد فى مقدار الجزية ، وقد بلغت هذه الخطوة نور الدين فاضطر إلى التدخل المباشر فى شئون مصر وأرسل حملة مع شاور بقيادة شيركوه . وقد صحب نور الدين الحملة حتى حدود بلاد الفرنج ليشغلهم عن التعرض لها ، ونجح شيركوه فى إعادة شاور إلى الوزارة ، ولكنه سرعان ماتنكر لحليفه ونقض اتفاقه معه وطلب من شيركوه مغادرة البلاد ، ولكن شيركوه أصر على تنفيذ ما اتفق عليه واستولى على بلبيس والبلاد الشرقية ، واضطر شاور إلى الاتجاه إلى الفرنج الذين سارعوا إلى تلبية طلبه خشية وقوع مصر فى يد نور الدين فيكون فى ذلك القضاء عليهم ، وبلغ من لهفتهم على الاستيلاء على مصر أنهم لم يعبأوا بتهديد نور الدين لبلادهم ليمنعهم عن المسير .

وحاصرت قوات الفرنج وقوات شاور ، شيركوه فى بلبيس ثلاثة أشهر حتى اضطروا لفك الحصار والإسراع عائدين إلى بلادهم عندما علموا باستيلاء نور الدين على حارم ومسيره إلى بانياس للاستيلاء عليها ، وقد اتفقوا مع شيركوه على جلاء الفريقين عن البلاد .

وقد ظلت القوتان المتنافستان تتحينان الفرص للاستيلاء على مصر بعد أن تبينتا مدى ما وصلت إليه من ضعف نتيجة تنافس وزرائها فى الوصول إلى الحكم، حتى ولو على أسنة رماح أعداء البلاد . ففى ربيع الأول سنة ٥٦٢ ﻫ عاد شيركوه مرة أخرى . وأرسل شاور يستنجد بالفرنج فأتوه على الصعب والذلول ، وحملهم على ذلك أمران : أحدهما الطمع فى تملك الديار المصرية . والثانى الخوف من تملك العساكر النورية لها ، لعلمهم أنه إن ملكها نور الدين واستضافها إلى البلاد الشامية ، لم يبق لهم ببيت المقدس والشام مقام .

ودارت بين الفريقين عدة معارك أهمها معركة البابين بالصعيد . واستولى شيركوه على الصعيد والإسكندرية ثم انتهى الأمر بالاتفاق بين الطرفين على جلاء شيركوه بعد أن بُذل له خمسون ألف دينار ، وأن يجلو الصليبيون عن البلاد على أن تظل منهم شحنة بالقاهرة ليحفظوا أبواب القاهرة لحمايتها من نور الدين، وأن يكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار .

وقد حاول شيركوه أثناء وجوده بمصر فى هذه الحملة التحالف مع شاور ضد الصليبيين الموجودين فى مصر والانقضاض عليهم والتخلص منهم . وبذلك يسهل على المسلمين القضاء نهائياً على القوى الصليبية بالشام ، وذكر أسد الدين فى رسالته إلى شاور « وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط ، وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد ، والنجدة عنه بعيدة ، وأريد أن نجتمع أنا وأنت عليه ، وننتهز هذه الفرصة التى قد أمكنت ، والغنيمة التى قد كتبت ، فنستأصل شأفته ، ونخمد ثائرته ، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً » .

ولكن شاور كان يخشى من أسد الدين أكثر من خشيته من الفرنج ، فلم يستجب لدعوته بل لقد أمر بقتل رسوله ، وأطلع عمورى على عرض شيركوه . وبذلك أضاع شاور تلك الفرصة التى لا تعوض .

وتتكلم المصادر الإفرنجية المعاصرة للصليبيين عن سفارة أرسلها الملك عمورى لعقد اتفاقية مع العاضد وشاور ، يتعهد فيها الصليبيون بحماية مصر من تهديدات نور الدين ، على أن تدفع له مصر مائتى ألف دينار معجلة

ومثلها مؤجلة . على أن المؤرخ المعاصر ابن واصل يذكر أن « الكامل بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهى محبته وولاءه ، ويسأله الدخول فى طاعته ، وضمن عن نفسه أنه يجمع بمصر الكلمة على طاعته . وبذل له مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، فحمل إلى نور الدين مالا جزيلا» . وهكذا فبينما أبوه يتفق مع الفرنج ، يحاول الانضمام إلى صف نور الدين ، ولعل ذلك باتفاق مع أبيه حتى يضمنا حماية الطرفين المتنازعين . وفى هذا يقول عمارة اليمنى عن شاور : « وهو الذى أطمع الفرنج والغز فى الدولة حتى انتقلت عن أهلها » .

وفى سنة ٥٦٤ هـ عاد الصليبيون يحاولون فتح مصر ، ويذكر ابن واصل أن الجند الصليبيين الموجودين على أبواب القاهرة عاملوا المصريين معاملة سيئة وأرسلوا إلى عمورى يغرونه بفتح مصر مبينين له ضعفها ، كما أرسل له بعض الأمراء المصريين المعادين لشاور ، فلما استشار الملك أمراءه أجمعوا على قصد مصر ، وإن كان من رأيه هو الاكتفاء بما يأتيه منها من مال ، وكان يخشى إن تدخل عسكريًّا أن يستعين أهلها وخليفتها بنور الدين ، إلا أنه خضع لرأى قواده وجاء إلى مصر واحتل بلبيس ، ثم حاصر القاهرة واضطر شاور إلى إحراق مصر . وقد تحققت مخاوف الملك ، إذ جاءت كتب العاضد إلى نور الدين تطلب نصرته ، ويذكر المؤرخون أن شاور لما أدرك عجزه عن المقاومة حاول استمالة الفرنج وتذكيرهم بما بينهم من عهود ، وعرض عليهم الصلح على أن يدفع لهم مليون دينار يعجل بدفع جزء منها ويؤجل الباقى إلى وقت آخر ، ومال الفرنج إلى قبول الصلح خشية تدخل نور الدين . وقد بادر شاور بدفع مائة ألف دينار ثم ماطلهم فى دفع الباقى وأرسل يستنجد بنور الدين وسير إليه الكتب وفى طيها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة ، ويبذل له ثلث البلاد ، وأن تكون نفقات جنده الموجودين بمصر خارجة عن الثلث المقرر له . هذا وإن ذكر أبو شامة رأياً آخر ملخصه أن الكامل بن شاور بعد أن رأى ميل أبيه لتسليم البلاد للفرنج خاطب العاضد بالاستنجاد بنور الدين .

وما إن وصلت الكتب لنور الدين حتى أمر شيركوه بالتوجه إلى مصر . وأسرع شيركوه . الذى كان ينتظر هذه الفرصة ، لتنفيذ أمر سيده ، ووصل إلى مصر فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ واضطر الفرنج إلى الجلاء عن البلاد . وبذلك حقق نور الدين أمله فى ضم مصر والشام فى جبهة واحدة . واضطر شيركوه لقتل شاور بعد ذلك بفترة قصيرة حتى يأمن ما عهد من خيانته . يذكر ابن واصل أن شاور قد عزم على أن يحمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم فيها ، فنهاه ابنه الكامل وهدد بإبلاغ شيركوه بهذا العزم ، ولم يثنه ماذكره أبوه من أنه إن لم يبادر بالخلاص من شيركوه كان نصيبهم القتل فرد الكامل من أنه خير لهم أن يقتلوا والبلاد فى يد المسلمين ، من أن يقتلوا والبلاد فى يد الفرنج ، وأنه إذا سمع الفرنج بالقبض على شيركوه بادروا بالحضور إلى مصر ، ولن يقبل نورالدين بإنجادهم بعد ذلك .

وباحتلال جند نورالدين لمصر ، وبعد قتل شاور ، دخلت البلاد فى عهد جديد واستطاع صلاح الدين الذى خلف عمه فى الوزارة للعاضد ، أن يسيطر على الأمور ، وينقل البلاد إلى المذهب السنى والتبعية للخلافة العباسية . كما استطاع أن يصد حملات الصليبيين على دمياط ، ثم وحد القوى الإسلامية فى جبهة واحدة ، واستطاع ذلك القائد العظيم أن يطيح بالصليبيين ويسترد بيت المقدس بعد مواقع بطولية خلدت اسمه فى التاريخ .

الفصل الثالث

العلاقات مع النوبة

بادر جوهر الصقلى عندما فتح مصر بإرسال مندوب عنه هو عبدالله ابن أحمد بن سليم الأسوانى إلى ملك النوبة يدعوه للإسلام ودفع الجزية السنوية المعروفة بالبقط والمقررة على النوبة منذ الفتح العربى[1] .

وقد ظلت علاقة الفاطميين بالنوبة علاقة طيبة يسودها السلام بوجه عام ، وتقوم على تبادل التجارة فيما عدا أوقات متفرقة كانت ترسل فيها حملات تأديبية عندما كان النوبيون ينقضون الهدنة أو يسيئون للمسلمين هناك أو يهاجمون أسوان . وأخذ المسلمون يستوطنون هذه البلاد ويقتنون بها الأراضى . كما دخل بعض النوبيين خصوصاً فى الأجزاء الشمالية فى الإسلام . وحرص الفاطميون على صفاء هذه العلاقة حرصاً على حياة المسلمين هناك وأخذت الهدايا تتبادل بين البلدين . ففى ربيع الأول سنة ٤١٥ هـ وصلت إلى مصر هدية من بلد النوبة فيها عبيد وإماء وخشب وأبنوس وفيلة وزرافات .

وعندما وزر اليازورى للمستنصر جهز حملة إلى بلاد النوبة وفرض عليهم مضاعفة البقط ، واستقر الأمر على ذلك . ولم يذكر المقريزى الذى أورد ذلك الأسباب التى دعت اليازورى إلى إرسال هذه الحملة . ولكن هذا لم يؤثر فى العلاقات الطيبة بين البلدين إذ أنه عندما تنازل الملك سالمون عن العرش لابن

---

(١) عندما غزا عبد الله بن سعد بلاد النوبة سنة ٣١ هـ صالحهم على جزية سنوية من العبيد وعرفت الاتفاقية باسم البقط وتتكون من ٣٦٥ رأساً لبيت مال المسلمين وأربعين رأساً لأمير مصر وعشرين لخليفته المقيم فى أسوان والذى كان يتسلم هذا البقط ، وللحاكم أسوان الذى يحضر مع هذا الخليفة قبض البقط خمسة رؤوس ولاثنى عشر شاهداً عدولا من أهل أسوان يحضرون مع اثنى عشر رأساً .

وكان الموضع الذى يسلم فيه هذا البقط يعرف بالقصر على بعد ستة أميال جنوب أسوان . وقد ظلت هذه الجزية تدفع لمدة ستمائة سنة .

أخيه جرجه ليتفرغ للعبادة دعى إلى مصر حيث قوبل بالحفاوة وظل بمصر إلى أن مات .

وفى وزارة بدر الجمالى امتد نفوذه الأدبى إلى بلاد النوبة حتى إن ملك النوبة بادر بتسليم كنز الدولة الذى ثار بأسوان عندما لجأ لبلاد النوبة وذلك كطلب بدر . كما أن بدراً لم يتردد فى إرسال رسول من قبله إلى النوبة ليتحقق مما سمعه من أن ملكهم قد هدم مسجداً هناك . وكان النوبيون يلجأون إلى بدر كلما حدث خلاف بينهم وبين رؤساء الكنيسة القبطية بمصر كما حدث عندما أرسل الملك بازيل يطلب وساطة بدر ومساعدته حتى يعين البطريرك ابنه رئيساً دينياً للنوبة . وكان بدر بدوره يحاول أن تكون صلته طيبة بالنوبة . فعندما سمع أن والى قوص قبض على ملك النوبة الذى خرج من بلاده لزيارة كنيسة أسوان ، أمر الوالى بإرساله إلى القاهرة مكرماً حيث أفاض عليه أمير الجيوش النعم وأتحفه بالهدايا الجليلة ، وقد أدرك الأجل الملك وهو بمصر قبل أن يعود إلى بلاده .

ولكن العلاقة مع النوبة ساءت فى عهد الأفضل ، ولم يذكر المقريزى ، وهو مرجعنا فى ذلك ، السبب الذى أدى إلى هذه القطيعة ، ففى حوادث سنة ٥٠١ هـ يقول : « وفيها وردت الأخبار بأن ملك النوبة قد تجهز براً وبحراً ، وعول على قصد البلاد القبلية ، فسير الأفضل عسكراً إلى قوص وتقدم إلى والى قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة ، فورد الخبر بوثوب أخى الملك عليه وقتله واشتدت الفتنة بينهم حتى باد أهل بيت المملكة ، وأُجلس صبى فى الملك فأرسلت أمه تستجير بعفو الأفضل وتسأله أن يسير إليهم من يغزوهم ، فكتب لوالى الصعيد الأعلى بأن يسير عسكراً إلى أطراف بلاد النوبة ويبعث إليهم رسولا يحدد عليهم القطيعة الجارى بها العادة وهى ثلثمائة وستون رامساً دقيقاً كل سنة ، بعد أن يستنفذ منهم ما يجب عليهم فى السنين المتقدمة . فلما دخلت العساكر نحوهم دخلوا تحت الطاعة وكتبوا المواصفات وسألوا فى الإعفاء عما يمضى من السنين وحملوا ما تيسر لهم ، وعادت العساكر كاسبة » .

ويبدو أن العلاقات عادت مرة أخرى إلى الصفاء فلم نعد نسمع عن أى احتكاك بين البلدين . وقد حاول الوزير بهرام عندما فر أمام رضوان بن الولخشى أن يمتلك أسوان ويتقوى بالنوبة أهل دينه . ولكنه لم يجد أية مساعدة منهم . ولما سيطر صلاح الدين على السلطة بمصر[1] حاول الاستيلاء على النوبة لتكون ملاذاً له إذا اضطرته الظروف لترك مصر . ولكنه وجدها بلدة قفراء فوجه نظره إلى اليمن .

الباب السابع

الوزراء الفاطميون

الوزير الأجل أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس :

أول المحرم ٣٦٧ هـ حتى توفى ٥ من ذى الحجة ٣٨٠ هـ

أول وزراء الفاطميين . وتعتبر مدة وزارته من أزهر العهود فى تاريخ الدولة الفاطمية . استطاع فيها أن ينهض بالدولة سياسيًّا وحربيًّا . وكان خير نصير للعلوم والفنون والآداب .

وابن كلس يهودى من أهل بغداد تنقلت به الأحوال بين العراق والشام حتى وصل مصر واستطاع الدخول فى خدمة كافور الإخشيدى ، وأسلم على يديه فى شعبان سنة ٣٥٦ هـ . وتمكن فى هذه المدة من معرفة أحوال مصر المالية والاقتصادية وأصبح خبيراً بضياعها وارتفاع كل منها . ولذلك عهد إليه المعز لدين الله فى المحرم سنة ٣٦٣ هـ أمور الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة .

وعندما تولى العزيز الخلافة جعله وزيره فى أول المحرم سنة ٣٦٧ هـ وفى شهر رمضان سنة ٣٦٨ هـ لقبه بالوزير الأجل وأمر أن لا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا به . ثم قبض عليه فى شوال سنة ٣٧٣ هـ لمدة شهور حتى أطلق سراحه فى المحرم سنة ٣٧٤ هـ ورده إلى التدبير ، فدبر أمور مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب وأعمال هذه الأقاليم كلها من الرجال والأموال والقضاء والتدبير ، وعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطراز .

وظل ابن كلس رجل الدولة القوى حتى توفى فى ٥ من ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ .

جبر بن القاسم :

شوال ٣٧٣ هـ حتى المحرم ٣٧٤ هـ

من أهل المغرب الذين قدموا مع المعز وكان من كبراء الدولة وأماثل أهل الحضرة ، وبلغ من منزلته أنه عندما خرج العزيز إلى الشام لحرب أفتكين كان جبر بن القاسم نائبه فى مصر ، وكانت الكتب التى ترد وتقرأ على المنابر

باسمه . كما أشرف هو والحسن بن تأييد الله وعبد الله بن خلف المرصدى وعلى بن عمر العداس على أمور الخراج . كما تولى الشرطتين العليا والسفلى وتنيس ودمياط والفرما والجفار [١] .

وعندما قبض العزيز على ابن كلس رد الأمر إلى جبر مدة اعتقاله .

أبو عبد الله الموصلى [٢] :

استخدمه العزيز مدة قصيرة بعد وفاة ابن كلس ثم صرفه ، ويذكر ابن الأثير أن العزيز استخدم ابن الموصلى كوزير فى حين يذكر سبط بن الجوزى أن ابن الموصلى لم يكن إلا كاتب إنشاء وهو أقرب إلى الصواب .

وفى عهد الحاكم تولى أبو عبد الله ديوان الشام مكان صالح بن على الروزبارى عندما تقرر الأخير فى الوزارة مكان الحسين بن جوهر .

أبو الحسن على بن عمر العداس :

ذى الحجة ٣٨٠ هـ حتى المحرم ٣٨٢ هـ

كان ضمن القائمين على أمور الخراج ، وقد ضمن فى أيام المعز لدين الله كورة بوصير فخلع عليه سنة ٣٦٤ هـ ، وولاه العزيز الوساطة بعد موت ابن كلس ولم يلقبه بالوزير ، ومكث فى منصبه هذا مدة السنة .

ويختلف ابن الصيرفى والمقريزى فى تاريخى توليته وعزله ، فيذكر ابن الصيرفى أنه تقلد الوساطة فى ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ وعزل فى أوائل سنة ٣٨٢ هـ أما المقريزى فيذكر أنه جلس فى القصر لتسع عشرة خلت من ذى الحجة سنة ٣٨١ هـ وأقام سنة وصرف فى أول المحرم سنة ٣٨٣ هـ ، ولا شك أن ابن الصيرفى أصح فى تاريخه .

---

(١) الجفار هو المعروف برمل مصر ، وبه منازل السفارة . وتوجد بين فلسطين مصر . والشرطة العليا هى شرطة القاهرة والسفلى هى شرطة مصر .

(٢) بعد ابن كلس لم يعتمد العزيز على وزراء بل وسطاء وكتاب ، وقد اختلفت المراجع فى أسماء هؤلاء الوسطاء وتواريخ توليهم .

وكان ابن العداس مدة وساطته ينظر فى الأموال ويشرف على العمال « وأمر أن لا يطلق شيء إلا بتوقيعه ، ولا ينفذ إلا ما أمر به وقرره ، وأمره العزيز بالله أن لا يرتفق أى يرتشى ولا يرتزق ، بمعنى أنه لا يقبل هدية، ولا يضيع ديناراً ولا درهماً » وفى هذه السنة اتضع خراج البلاد فقبض عليه واعتقل فى دار حسين الرايض وصودرت أملاكه ، وظل معتقلا سبعة وخمسين يوماً حتى شهد له من حاسبه أنه ما ارتفق ولا اختزن ولكن خانه الضمان والأسعار ، فأطلق ، وعين فى ديوان الاستيفاء .

وظل بن العداس فى عمله بديوان الاستيفاء فى خلافة الحاكم إلى أن كان جمادى الآخرة سنة ٣٩٣ هـ . فحرض أبا طاهر محمود النحوى الكاتب ، وكان منقطعاً إليه ، على أن يلقى الحاكم بأمر الله « ويبلغه ما يشكوه الناس من تضافر النصارى وغلبتهم على المملكة وتوازرهم ، وأن فهد بن إبراهيم هو الذى يقوى نفوسهم ويفوض أمر الأموال والدواوين إليهم ، وأنه آفة على المسلمين وعدة للنصارى . فقتل الحاكم فهد فى ثامن من جمادى الآخرة وأحل ابن العداس محله فى الرابع عشر منه ، ولكنه قتله أيضاً فى السادس من رجب من السنة وحرقه بالنار .

أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات :

سنة ٣٨٢ هـ

اختلف بن الصيرفى مع المقريزى وابن ميسر فى مدة وزارته وفى من خلفه . فيذكر ابن الصيرفى أنه تولى تدبير الأموال إلى شعبان سنة ٣٨٢ هـ ثم قبضت يده وتولى تدبير الأموال والقيام بها جماعة منهم موسى بن شهلول وعيسى بن نسطورس ويحيى بن نمان وإسحق بن المنشى وغيرهم ، ثم ردت المحاسبة فى وجوه الأموال إلى القائد فضل بن صالح بمشارفة القاضى محمد بن النعمان ، وذلك فى سنة ٣٨٣هـ . وفى شعبان من السنة أمر العزيز الكتاب والعمال أن يمتثلوا ما يرسمه ابن الفرات فجلس الناس وأمر ونهى ثم صرف .

أما ابن ميسر والمقريزى فيذكران أن ابن الفرات صرف بعد سنة ، وجاء بعده أبو عبد الله الحسين بن الحسن البازيار سنة وثلاثة أشهر ، ثم أبو محمد ابن عمار شهرين ، ثم الفضل بن صالح أياماً .

عيسى بن نسطوروس :

ظل حتى وفاة العزيز فى رمضان سنة ٣٨٦ هـ

وتختلف المراجع فى ذكر تاريخ وزارته . إذ يذكره ابن الصيرفى كما مر بنا ضمن مجموعة من الكتاب تولت تدبير الأموال بعد ابن الفرات . وأيد صاحب التاريخ المجموع ذلك . فيذكر أن العزيز رد النظر فى الأمور إلى أبى الفضل جعفر بن الفرات « فنظر فى الأمور ووقف عليها وعجز عن القيام بما عول عليه فيه فاعتنى عن ذلك بعد أربعة أشهر ورد العزيز النظر فى الأمور إلى عيسى ابن نسطورس النصرانى وخوطب بسيدنا الأجل » .

أما ابن ميسر والمقريزى فيذكران أن عيسى بن نسطورس وزر بعد عزل الفضل بن صالح واستمر لمدة سنة وعشرة أشهر . فى حين تذكر مجموعة أخرى من المؤلفين منهم سبط بن الجوزى وابن الأثير وابن القلانسى أن العزيز بعد أن صرف أبا عبد الله الموصلى قلد عيسى بن نسطورس .

ويقف ابن ظافر مؤلف الدول المنقطعة موقفاً وسطاً بين هذه الآراء ، فيذكر أن العزيز لم يستوزر أحداً بعد ابن كلس بل ضمن الدولة على جماعة مستخدمين . والغالب عليه عيسى بن نسطورس . وهو قول يمكن أن نتقبله ، فمن المؤكد أن العزيز فى كثير من الأمور خصوصاً الشئون المالية كان يعتمد فيها على عيسى ابن نسطورس الذى حابى أبناء جلدته من النصارى ، وعينهم فى وظائف الدولة المختلفة ، مما جعل المسلمين يضجون بالشكوى ؛ فقبض عليه العزيز مدة حتى شفعت له ست الملك بنت الخليفة فرده وولاه الوزارة وشرط عليه استخدام المسلمين فى دواوينه وأعماله . وظل فى منصبه حتى رمضان سنة ٣٨٦ هـ ، حيث

اضطر الحاكم إلى عزله تحت ضغط المغاربة الذين طالبوا بتولى ابن عمار زمام الأمور .

وفى المحرم سنة ٣٨٧ ﻫ قبض ابن عمار على عيسى بن نسطورس وقتله .

أبو محمد الحسن بن عمار :

٣ شوال سنة ٣٨٦ ﻫ حتى ٢٧ شعبان ٣٨٧ ﻫ .

أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار بن أبى الحسين شيخ كتامة وسيدها ، وهو أول من تلقب من رجال الدولة واستبد بالأمور منتهزاً صغر سن الحاكم ، وأساء التصرف وحابى المغاربة وأساء إلى المصريين والمشارقة حتى تمكن برجوان من السعى عليه وإقصائه عن منصبه .

الأستاذ أبو الفتوح برجوان :

٢٧ شعبان سنة ٣٨٧ ﻫ حتى ٢٦ ربيع الآخر سنة ٣٩٠ ﻫ .

خصى أبيض من الصقالبة . تربى فى القصر ، وأخذ يرتقى فى الخدم حتى وصل إلى مرتبة الأستاذية وصار أثيراً لدى الخليفة حتى عينه وصياً على ابنه الحاكم بعد وفاته .

ولما استبد ابن عمار بالحكم أخذ برجوان يكيد له ويجمع القوى المعارضة حتى تمكن من إقصائه والحلول مكانه . وسار برجوان فى أول وزارته سيرة حسنة واستطاع إعادة الاستقرار الداخلى بمصر والهدوء والنظام بالشام وحارب الروم حتى اضطروا لإقرار الهدنة لمدة عشر سنوات . ولكن برجوان مال بعد ذلك للهو واستبد بالأمور دون الحاكم حتى دبر الخليفة قتله فى ٢٦ ربيع الآخر سنة ٣٩٠ ﻫ .

قائد القوّاد الحسين بن جوهر :

ومعه — فهد بن إبراهيم ثم على بن عمر العداس .

٣ من جمادى الأولى سنة ٣٩٠ هـ حتى ٧ من شعبان سنة ٣٩٨ هـ

خلع على الحسين بن جوهر لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة ٣٩٠ هـ ولقب بقائد القواد ورد إليه التوقيعات والنظر فى أمور الناس وتدبير المملكة وإنصاف المظلوم . وخلع على الفهد بن إبراهيم ليكون خليفة القائد فظلا يدبران الأمر فى القصر مع الرجوع إلى الحاكم فى كل الأمور حتى قتل فهد بن إبراهيم فى الثامن من جمادى الآخرة سنة ٣٩٣ هـ وحل مكانه على بن عمر العداس الذى قتل بعد فهد بتسعة وعشرين يوماً .

وانفرد الحسين بن جوهر بتدبير الأمور حتى عزل فى ٧ من شعبان سنة ٣٩٨ هـ .

صالح بن على الروزبارى :

٧ من شعبان ٣٩٨ هـ حتى ١١ من صفر سنة ٤٠٠ هـ

عراقى الأصل ، التحق بخدمة الفاطميين حتى تقلد ديوان الشام ، ثم تولى الوساطة بعد عزل حسين بن جوهر. يقول المقريزى . وما زال (حسين بن جوهر) إلى يوم الجمعة سابع من شعبان سنة ٣٩٨ هـ فاجتمع سائر أهل الدولة فى القصر بعد ما طلبوا ، وخرج الأمر أن لا يقام لأحد ، وخرج خادم من عند الخليفة فأسر إلى صاحب الستر كلاماً فصاح : صالح بن على ، فقام صالح بن على الروزبارى متقلد ديوان الشام . فأخذ صاحب الستر بيده وهو لا يعلم هو ولا أحد مايراد به . فأدخل إلى بيت المال وأخرج وعليه دراعة مصمتة[1] وعمامة مذهبة ومعه مسعود فأجلسه بحضرة قائد القواد وأخرج سجلا قرأه ابن عبد السميع الخطيب فإذا به رد سائر الأمور التى ينظر فيها قائد القواد حسين بن

(١) الدراعة المصمتة : أى ذات لون واحد لا يخالطه لون آخر .

جوهر إليه . فعندما سمع من السجل ذكره قام وقبل الأرض ، فلما انتهت قراءة السجل قام قائد القواد وقبل خدى صالح وهنأه وانصرف .

ولقب الحاكم . صالح بن على بثقة ثقات السيف والقلم . فنظر فى الأمور ودبر الأعمال وحفظ وجوه المال والاستغلال تقدير سنتين ثم تغير له وتأول عليه وعزله فى ١١ من صفر سنة ٤٠٠ هـ وألزمه بالبقاء فى داره ثمانية أشهر وكتب له أماناً لحياته . إلا أنه قتله بعد ذلك فى شوال من السنة .

الكافى أبو نصر منصور بن عبدون :

١١ من صفر سنة ٤٠٠ حتى ٤ من المحرم سنة ٤٠١ هـ .

يصفه ابن القلانس أنه كان رجلا نصرانيًّا خبيثاً جلداً . وكان يتولى ديوان الشام ، ثم قبض عليه الحاكم وعلى كثير من الكتاب المسلمين والنصارى وطالبهم بحساب ما كانوا يتولونه وصادر أموالهم ، ثم اشتد فى عقاب النصارى منهم وصلبهم أحياء عدة أيام حتى مات الكثيرون منهم ، وأسلم الباقون فعفا عنهم الحاكم ورد أموالهم . ولكن ابن عبدون ظل على دينه ، وولاه الحاكم الوزارة بعد عزل صالح بن على ، ولقبه بالكافى بعد مدة من نظره .

وفى مدة وزارته أمر بهدم كنيسة القيامة ، وأنشأ ديواناً يعرف باسم المفرد توضع فيه الأموال المصادرة التى تخص رجال الدولة الذين يغضب عليهم الحاكم وظل ابن عبدون يدبر الأمور حتى عزله الحاكم . ويذكر المقريزى فى سبب عزله أن الحسين بن جوهر فر من وجه الحاكم ولجأ إلى بنى قرة فى البحيرة ، فأنفذ إليه الكتب يؤمنه ويستدعيه للحضور ، « فأعاد الجواب بأنه لا يدخل ما دام أبو نصر بن عبدون ينظر فى الوساطة ويوقع عن الخليفة . فإنى أحسنت إليه أيام نظرى ، فسعى بى إلى أمير المؤمنين ونال منى كل منال ، ولا أعود أبداً وهو وزير . فصرف ابن عبدون فى الرابع من المحرم سنة ٤٠١ هـ » .

أحمد بن محمد القصورى (أو القشورى)وصحته القشيرى :

٤ من المحرم سنة ٤٠١ هـ حتى ١٤ من المحرم سنة ٤٠١ هـ

أحد كتاب الدولة ويغلب أنه كان عراقياً . ولم يلبث إلا عشرة أيام حيث عزله الحاكم وقتله .

الشافى زرعة بن عيسى بن نسطورس :

المحرم سنة ٤٠١ هـ حتى صفر سنة ٤٠٣ هـ

ابن الوزير عيسى بن نسطورس وهو من القلائل الذين أفلتوا من غضب الحاكم ، وظل فى منصبه حتى مات ، وكان محبوباً من الجند والكتاب .

أمين الأمناء الحسين (أو الحسن) بن طاهر الوزان :

١٩ من ربيع الأول ٤٠٣ هـ حتى جمادى الآخرة ٤٠٥ هـ .

كان قبل وزارته متولياً لبيت المال ، وقد خلع عليه للوساطة والتوقيع عن الحضرة فى ١٩ من ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ ، وحل أخوه أبو الفتح مسعود محله فى ولاية بيت المال . وتلقب الحسين بأمين الأمناء فى جمادى الأولى من السنة .

وقد حاول ابن الوزان أن يقف أمام إسراف الحاكم فى الإنعام الذى لم يكن يدانيه إلا الإسراف فى القتل . فتوقف عن إمضاء ما يقرره الخليفة ، فكتب إليه الخليفة بخطه بعد البسملة .

الحمد لله كما هو أهله

أصبحت لا أرجو ولا أتقى إلا إلهى وله الفضل
جدى نبيى وإمامى أبى ودينى الإخلاص والعدل

المال مال الله عز وجل ، والخلق عبد الله ونحن أمناؤه فى الأرض ، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام .

وفى جمادى الآخرة سنة ٤٠٥ هـ ركب مع الحاكم على عادته . فلما وصلا حارة كتامة . ضرب رقبته هناك ودفنه مكانه .

الحسن وعبد الرحمن ابنا أبى السيد :

١٣ من شعبان ٤٠٥ حتى ١٥ من شوال من السنة .

أقام الحاكم الأخوين معاً فى الوساطة بعد أن ضمنا أموال الدولة وإجراءها على رسومها وتوفير ثلثمائة ألف دينار بعد ذلك سنوياً تحمل إلى بيت المال .

ولكن مدة نظرهما لم تطل أكثر من اثنين وستين يوماً قتلا بعدها .

أبو العباس الفضل بن جعفر بن الفضل بن الفرات :

٢ من ذى العقدة ٤٠٥ حتى السادس من نفس الشهر .

ولذلك لم تطل مدة وزارته إلا خمسة أيام . يقول ابن الصيرفى إنه جلس للوساطة من غير خلع ولا حملان ، وفى اليوم الخامس لوزارته قتله الحاكم .

وظل الحاكم بدون وزراء أو وسطاء مدة أربعة أشهر . وصار أصحاب الدواوين يدخلون إلى حضرته ويستأذنون فيما يحتاجون إليه ويأمرهم بما يفعلون . ثم استناب فى ذلك ولى العهد عبد الرحيم بن إلياس . فأقام ناظراً إلى أن خرج إلى الشام .

وزير الوزراء ذو الرياستين الأمير المظفر قطب الدولة أبو الحسن على بن جعفر ابن الفلاح :

سنة ٤٠٦ هـ حتى شوال سنة ٤٠٩ هـ .

من اجل الوزراء الكتاميين ومن أشهر قواد الدولة هو وأخيه أبى تميم سليمان ابن جعفر . وكان ابن عمار قد أرسلهما إلى الشام لحرب منجوتكين عندما أزمع الحضور إلى مصر بتحريض من برجوان لتخليص الحاكم من قبضة ابن عمار وظل أبو تميم وأخوه يديران أمور الشام حتى وزر برجوان فحرض عليهما أهل دمشق .

ولكن الحاكم استعان فيما بعد بعلى بن جعفر فى إقرار النظام فى الشام بعد فتنة آل الجراح وأبى الفتوح الحسن بن جعفر . ثم قلده الحاكم الوساطة سنة ٤٠٦ هـ . ونعته بألقابه فى رجب سنة ٤٠٨ هـ . وكتب له سجلا بذلك كما أضيفت إليه ولاية الإسكندرية وتنيس ودمياط والشرطتين العليا والسفلى والحسبة والسيارتين والعرض والإثبات والنظر فى الواجبات . ويذكر ابن الصيرفى — « ولما هرب ابن الدايقية قال الإمام الحاكم لمن كان بين يديه من خواصه متى تهربون . فقال له وزير الوزراء هذا . يا أمير المؤمنين يهرب إليك لا عنك » .

ومع ذلك لم ينج ابن فلاح من القتل . ففى شوال سنة ٤٠٩ هـ لقيه فارسان مقنعان وهو فى طريقه من داره إلى القاهرة كعادته فرماه أحدهما برمح جرحه . فمات من جراحه فى اليوم التالى . فصلى عليه ولى العهد وواراه بحضور قاضى القضاة .

الأمير الظهير شرف الملك تاج المعالى ذو الجدين صاعد بن عيسى بن نسطورس :

شوال سنة ٤٠٩ هـ حتى ذى الحجة من السنة .

ثالث فرد من أهل بيته يلى الوساطة ، إذ تولاها أبوه ثم أخوه من قبل . ولم يذكر وزارته إلا ابن الصيرفى ، ولكنه يخطئ فى تحديد تاريخ ذلك . فبينما يقول إن ابن فلاح قتل فى شوال سنة ٤٠٩هـ نراه يذكر أن صاعداً تولى الوساطة فى رجب سنة ٤٠٩ هـ وعلى ذلك فيمكن اختيار شوال كتاريخ لوزارة صاعد . وظل يتولى الأمور حتى قتل فى ذى الحجة من السنة .

الأمير شمس الملك المكين الأمين أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزان :

ذو الحجة ٤٠٩ حتى جمادى الآخرة ٤١١ هـ .

حل محل أخيه الحسين فى ولاية بيت المال كما ذكرنا من قبل ، وفى

ذى الحجة سنة ٤٠٩ هـ خلع عليه ، وجعل واسطة . فنقل جميع الدواوين إلى داره ، وجعل يوماً يركب فيه إلى القصر للمطالعة . ويحضر معه أماثل أصحاب الدواوين ويؤخذ رأيهم فيما يحتاج إليه . وظل كذلك حتى صرف . ولم يذكر ابن الصيرفى تاريخ صرفه . كما أن صاحب التاريخ المجموع يذكر أن ابن الوزان ظل حتى فقد الحاكم . ولكن من المؤكد أن عمار بن محمد وزر للحاكم بعد صرف ابن الوزان . وعلى ذلك فيمكن أن نحدد تاريخ صرف ابن الوزان فى جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ وهو تاريخ تولية عمار بن محمد .

الأمير رئيس الرؤساء خطير الملك أبو الحسن عمار بن محمد :

جمادى الآخرة ٤١١ حتى ذى القعدة أو ذى الحجة سنة ٤١٢ هـ .

كان يتولى ديوان الإنشاء وديوان المشارقة والأتراك . وفى جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ اختاره الحاكم للتوقيع عنه . وكانت علامته « الحمد لله رب العالمين » وكان من القلائل الذين اعتمدت عليهم ست الملك فى أخذ البيعة للظاهر يوم عيد النحر سنة ٤١١ هـ ، كما اعتمدت عليه فى تدبير الأمور لابن أخيها كما كان لأبيه من قبل وخلعت عليه للوساطة فى ربيع الأول سنة ٤١٢ هـ . ولكن ست الملك خشيت من انقياد الظاهر له وشغفه بملازمته فعملت على قتله بالفج فى ذى الحجة سنة ٤١٢ هـ .

بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسن :

المحرم سنة ٤١٣ هـ حتى ٢٠ شوال من السنة .

من كبار موظفى الدولة الذين تقلبوا فى المناصب المختلفة ، فتولى الشرطة السفلى ثم صار والياً على الصعيد فى جمادى الآخرة سنة ٤١٢ هـ ثم ولى ديوان الإنشاء عوضاً عن ابن خيران . وفى المحرم سنة ٤١٣ هـ خلع عليه للوساطة ، وظل حتى اعتقل فى العشرين من شوال من السنة وهو بالقصر وقتل صبيحة اليوم التالى فى الفج .

المسعود بن طاهر الوزان :

المحرم سنة ٤١٤ هـ[١]

تولى الوزارة للمرة الثانية ، وكانت الأولى فى خلافة الحاكم . ولم يكن له أى سلطان . إذ استأثر بالنفوذ أربعة أشخاص هم الشريف العجمى وأبو القاسم الجرجرائى والشيخ العميد محسن بن بدوس والقائد معضاد ، وانفردوا بمقابلة الظاهر وتصريف الأمور ، وأصبح الوزير لا يستطيع مقابلة الخليفة إلا مرة واحدة كل عشرين يوماً . وكفت يده شيئاً فشيئاً حتى إنه فى ١٠ من المحرم سنة ٤١٥ هـ احتجب فى داره لمدة ثلاثة أيام حنقاً على سلب نفوذه ، إلى أن استدعاه الظاهر وأمره بالعودة إلى خدمته . ولكنه ظل مسلوب السلطة حتى صرف .

ولا نعلم متى صرف ابن الوزان ، إذ لم يذكر ابن الصيرفى ولا المقريزى ولا ابن ظافر تاريخاً لذلك . إلا أن المقريزى يذكره فى حوادث ذى الحجة سنة ٤١٥ هـ . وربما يكون صرفه بعد ذلك التاريخ .

عميد الدولة وناصحها أبو محمد الحسن بن صالح الروزبارى :

من ٤١٦ هـ حتى سنة ٤١٨ هـ .

ابن الوزير صالح بن على الروزبارى الذى تولى الوساطة للحاكم . يذكر ابن الصيرفى أنه كان فى خراج الرملة أيام العزيز ثم أصبح كاتباً لمنجوتكين والى دمشق . ثم يقول إنه تقلد ديوان الشام بدلا من منشى بن إبراهيم فى سنة ٣٨١ هـ ثم ولى ديوان الجيش وتنقل فى التصرفات حتى وزر للظاهر .

وربما كان ابن الصيرفى يخلط بين الولد وأبيه . فمن المعروف أن صالح بن على كان متولياً ديوان الشام عندما قلده الحاكم الوساطة بدلا من الحسين بن جوهر . لذلك نستبعد أن يكون ابنه متولياً ديوان الشام سنة ٣٨١ هـ وأن هذا الشخص هو صالح لا ابنه ، خصوصاً إذا أخذنا فى الاعتبار المسافة الطويلة

---

(١) لم يرد ذكر أى وزراء أو وسطاء فى المدة من ٢٠ شوال ٤١٣ حتى المحرم ٤١٤ .

منذ سنة ٣٨١ هـ حتى السنة التى وزر فيها الحسن بن صالح . كما أن ابن ظافر يخلط بين الأب والابن هو الآخر فنراه يذكر خطأ أن الحسن بن صالح الروزبارى هو أحد وسائط الحاكم .

ولا نعرف بالضبط تاريخ وزارة الحسن وربما كان ذلك فى سنة ٤١٦ هـ . وفى سنة ٤١٨ هـ شنع عليه بالصرف ، فكتب له سجل بتجديد نظره وتهديد من شنع عليه ، ولكنه عزل فى نفس العام .

الوزير الأجل الأوحد صفى أمير المؤمنين وخالصه أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى :

١٢ من ذى الحجة سنة ٤١٨ حتى توفى فى ٦ من رمضان سنة ٤٣٦ هـ .

عراقى الأصل . ولقبه الجرجرائى نسبة إلى قرية جرجرايا بسواد العراق . حضر إلى مصر مع أخيه أبى عبد الله محمد ، والتحق بوظائف الدولة . وخدم بالريف والصعيد ، وتولى ديوان الإنشاء للحاكم . وفى ربيع الآخر سنة ٤٠٤ هـ أمر الحاكم بقطع يديه . ومع ذلك ظل الجرجرائى يخدم الدولة بإخلاص حتى ولاه الحاكم ديوان النفقات سنة ٤٠٦ هـ ، ثم لقبه بنجيب الدولة سنة ٤٠٧ هـ .

وبعد وفاة ست الملك سنة ٤١٥ هـ ازداد نفوذ الجرجرائى وأصبح رابع أربعة يسيطرون على الظاهر سيطرة تامة . ثم استطاع الجرجرائى أن ينفرد بالسلطان بعد ذلك إذ أصبح وزير الظاهر . وكتب له سجل التعيين من إنشاء على بن خيران متولى ديوان الإنشاء فى ١٢ من ذى الحجة سنة ٤١٨ هـ . وسيطر على الدولة سيطرة تامة إذ كان أول وزير بعد سلسلة من الوسطاء بدأت منذ وفاة ابن كلس .

واتخذ الجرجرائى علامة للتوقيع على الأوراق الرسمية هى « الحمد لله شكرا لنعمته » وكان الكاتب الشهير القاضى القضاعى يقوم بالتوقيع نيابة عنه . وبلغ من نفوذ الجرجرائى أن نقش اسمه على الطراز . ويصفه المقريزى بأنه « كان عالماً فطناً نحريراً ، وقع مرة بين يدى الظاهر على مائة كتاب فلم تتشابه فيها لفظة بلفظة » .

وعندما توفى الظاهر سنة ٤٢٧ هـ تولى الجرجرائى أخذ البيعة للمستنصر وكان

ابن ثمان سنين ، فزاد نفوذ الوزير واستطاع أن يحد من أطماع المستنصر وتطلعها للاستحواذ على السلطان . كما أعاد النظام إلى الشام ، ودبر أمور الدولة المالية حتى إنه عندما مات كان الموجود فى بيت المال أكثر من مليون وسبعمائة ألف دينار .

وتوفى الجرجرائى يوم الأربعاء السادس من رمضان سنة ٤٣٦ وكانت مدة وزارته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً .

أبو على الحسن بن على الأنبارى :

من ٦ إلى ١٠ من رمضان سنة ٤٣٦ .

من أصحاب الجرجرائى وقد خلفه فى الوزارة ، ولكنه لم ينعم بهذا المنصب . إذ ظهرت نوايا أم المستنصر ومتولى أمورها أبى سعيد سهل التسترى فى الانفراد بالنفوذ ورغبتهما فى أن يكون الوزراء مجرد منفذين لرغباتهما ، ويبدو أن الأنبارى حاول السير على منوال الجرجرائى فى الاحتفاظ بسلطانه وعدم التفريط فيها ، فأدى ذلك إلى الاصطدام مع التسترى . يقول المقريزى عن الوزير الأنبارى : « وانفسد أمره بسبب أبى سعد سهل بن هارون التسترى وأخيه أبى نصر إبراهيم اليهوديين . . . فلما وزر الأنبارى قصده أبو نصر إبراهيم فجبهه غلام له فأحفظه وأعلم أخاه أبا سعيد ، فثنى رأى المستنصر على ابن الأنبارى لهذا السبب وأشار عليه أن يستوزر أبا نصر صدقة بن يوسف الفلاحى وكان يهودياً قد أسلم » .

وصرف ابن الأنبارى وقبض عليه وصودرت أمواله وقتل فى سجنه بخزانة البنود ودفن بها .

الوزير الأجل تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين أبو منصور (أو أبو نصر) صدقة بن يوسف الفلاحى :

١١ من رمضان سنة ٤٣٦ حتى سنة ٤٣٩ .

كان يهودياً وأسلم ، وكان مثل أبيه بارعاً فى ضروب الكتابة والبلاغة ولى أولا نظر الشام ، ولكنه هرب من أمير الجيوش أنوشتكين الدزبرى وقدم

إلى القاهرة ، ولاذ بالوزير الجرجرائى الذى رعى له حرمة انفصاله عن عدوه الدزبرى فوضعه تحت رعايته ورقاه وأشار فى مرضه أن يستوزر بعده .

واستوزره المستنصر يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رمضان سنة ٤٣٦ هـ ، فلما تقررت له الوزارة أملى سجل تقليده بنفسه .

ولم يكن للفلاحى أمر ولانهى مع التسترى الذى سيطر على كل شىء فى الدولة . فكان هو رئيس ديوان أم المستنصر وكان أخوه أبو نصر رئيساً لديوان الخليفة وابنه على إمرة الدواوين ، ولم يعد للوزير سوى الاسم ولا يخرج فيما يفعله عما يرسمه التسترى . وضاق الفلاحى بهذا ، وعمل على التخلص من التسترى فأغرى به الأتراك حتى قتلوه يوم الأحد لثلاث خلون من جمادى الأولى وهو فى طريقه من داره إلى القصر كعادته . وظن الفلاحى أن الدنيا صفت له وأن الجو خلا بقتل عدوه . ولكن أم المستنصر لم تغفر له ما فعله برجالها القوى ، فما زالت به حتى صرفته عن الوزارة واعتقلته فى خزانة البنود وذلك سنة ٤٣٩ هـ .

الوزير الأجل الكامل الأوحد علم الكفاة سيد الوزراء ظهير الأئمة سماء الخلصاء فخر الأمة ذو الرياستين صفى أمير المؤمنين أبو البركات الحسين بن عماد الدولة محمد بن أحمد الجرجرائى :

من سنة ٤٣٩ حتى منتصف شوال سنة ٤٤١ هـ .

ابن أخى الوزير أبى القاسم الجرجرائى ، وقد خلف الفلاحى فى الوزارة . وكان سيئ السيرة . يقول المقريزى : « وكانت أيام الوزير كلها رديئة لكثرة القبض على الناس والمصادرات واصطفاء الأموال والنفى ونحو ذلك ، فكثر الذم له ، وكان أيضاً يبطش بمن يبطش عن غير علم الخليفة ولا استئذانه فتغير خاطر الخليفة عليه وتكثر منه تغيظه ، إلا أن العادة جرت بأن لا يعترض الوزير فيما يفعله ، ويمد له فى النفس ، ويصبر على ما يكون منه » .

وحاول الجرجرائى أن يبعد اليازورى — الذى حل محل التسترى فى ديوان

أم المستنصر – ويشغله بإسناد منصب قاضى القضاة إليه، وبذلك يخلو له الجو فيعين ابنه فى ديوان أم الخليفة، فتصبح الدولة فى قبضة يده. ولكن اليازورى استطاع البقاء فى منصبه عند أم الخليفة مع وظيفة القضاء، وبذلك فشل الوزير فى مسعاه.

وكان من نتيجة فشل الوزير فى سياسته الداخلية وفى تصريف أمور الشام أن وجد أعداؤه سبيلا إلى إغراء المستنصر به، فحركت أقوالهم عليه ما يحقده الخليفة من استبداد بالأمور من غير أمر ولا استئذان، فأمر به فقبض عليه ونفى إلى صور فى منتصف شوال سنة ٤٤١ هـ واعتقل هناك. فكانت وزارته سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام، ثم أفرج عنه ومضى إلى دمشق، فلما ملكها الغز عاد وتوفى بقيسارية إحدى مدن فلسطين الساحلية.

عميد الملك زين الكفاة أبو الفضل صاعد بن مسعود

شوال ٤٤١ حتى ٦ من المحرم ٤٤٢ هـ.

من شيوخ الكتاب وأكابر أصحاب الدواوين، وكان قبل نظره متولياً ديوان الشام. وكان الوزراء يعتمدون عليه ويرجعون إلى رأيه. ويذكر المقريزى، أنه هو الذى أشار على الجرجرائى بأن يعين اليازورى قاضياً حتى يشغله بذلك عن ملازمة السيدة أم المستنصر فيجد الوزير سبيلا إلى استخدام ولده مكانه، وبذلك يملك جهة الخليفة والسيدة، ولكنهما فشلا فى حيلتهما، إذ جمع اليازورى بين القضاء والنظر فى أمور أم الخليفة.

وبعد اعتقال الجرجرائى ظل المنصب شاغراً عدة أيام، والخليفة يعرض الوزارة على اليازورى، ولكنه امتنع من ذلك فتقرر أن يكون صاعد بن مسعود واسطة لا وزيراً. ولقب عميد الملك زين الكفاة، وجعل نظره فيما يختص بالرجال دون الأموال. وكان إذا أراد الاستئذان على ما يفعل جلس اليازورى بحضرة الخليفة واستدعى صاعداً فعرض ما يحتاج إليه، فيتقدم إليه اليازورى بما يفعله، ويخرج وفى نفسه من اليازورى أشياء، فأخذ

يحمل عليه الرجال ويوهمهم أنه إذا سأل لهم فى زيادة أو ولاية يعترضه اليازورى ويفسد عليه . ولكن الوزير فشل فى مسعاه هذا أيضاً ، وعزل من النظر فى المحرم سنة ٤٤٢ ﻫ بعد أن قبل اليازورى منصب الوزير .

الناصر للدين غياث المسلمين الوزير الأجل الأوحد المكين سيد الوزراء وتاج الأصفياء ، قاضى القضاة ، وداعى الدعاة علم المجد خليل أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى :

٧ من المحرم سنة ٤٤٢ ﻫ حتى أول المحرم سنة ٤٥٠ ﻫ .

من أشهر وزراء الأقلام ، ويقف فى صف واحد مع ابن كلس ولعب مثله دوراً كبيراً فى حياة الدولة الفاطمية سواء من ناحية الدعوة أو السياستين الداخلية والخارجية . ولقد دخلت مصر بعد عزله من منصبه فى فترة من أحلك فترات تاريخها وتعرضت لأسوأ مجاعة وعمها الفوضى والاضطرابات .

واليازورى فلسطينى الأصل من قرية يازور ، وكان أبوه من أثريائها المعدودين ثم انتقل للرملة واشتغل بالقضاء بها وخلفه ابنه هذا حتى عزل ، فجاء إلى مصر يسأل فى العودة إلى عمله ولكنه استطاع أن يصل إلى أم المستنصر وتصادف قتل أبى سعد التسترى وامتناع أخيه أبى نصر من الحلول محله خوفاً من الأتراك ، فعينت اليازورى مديراً لأعمالها واتسع سلطانه ونفوذه على الدولة كلها ، وأضيف إليه قضاء القضاة ثم تولى الوزارة بعد عزل صاعد بن مسعود وقرئ سجله بالوزارة فى السابع من المحرم سنة ٤٤٢ ﻫ وخلع عليه ثم زيد فى ألقابه الناصر للدين غياث المسلمين ، وبلغ من قوة نفوذه أن كتب اسمه على الطراز وعلى السكة .

وظل اليازورى يملك ناصية الأمور حتى قبض عليه فجأة فى أول المحرم سنة ٤٥٠ ﻫ ، وقتل بتنيس .

الوزير الأجل الأسعد المكين الحفيظ الأمجد. الأمين عميد الخلافة جلال الوزراء تاج المملكة وزر الإمامة شرف الملة كفيل الدين خليل أمير المؤمنين وخالصة أبي الفرج عبد الله بن محمد البابلي :

المحرم سنة ٤٥٠ حتى ربيع الأول من السنة .
وزر ثلاث مرات هذه أولاها .

كان يكتب للوزيرين الحسن بن صالح الروزبارى وعلى بن أحمد الجرجرائى ، وفى وزارة اليازورى علا شأنه إذ قدمه ورفع من شأنه واستخدمه فى التوقيع ورد إليه ديوان تنيس ودمياط وديوان الخاص وغيره من الدواوين حتى كان فى يده ستة دواوين . وميزه اليازورى عن غيره من أصحاب الدواوين إذ جعل دواوينه فى بيته وخصص له يوم الثلاثاء من كل أسبوع لمقابلته ، فإذا حضر لم يدخل عليهما أحد . وأغدق عليه اليازورى الإنعامات والهبات .

فلما قبض على اليازورى أسندت الوزارة للبابلى ، لأنه لم يكن فى الدولة من يتقدمه ، فلما وزر « بان للناس من رواعنه وكثرة شبره ما افتضح به ، وتجرد لمقابلة إحسان اليازورى بكل قبيح وذكره بما لا يستحقه من الغض ، فسقط لغدره من أعين الكافة» . وظل يسعى للخلاص من اليازورى بقتله فسيره إلى تنيس حيث قتل .

ولم تطل مدة وزارة البابلى هذه غير اثنين وسبعين يوماً ، إذ صرف فى شهر ربيع الأول واعتقل .

الوزير الأجل الكامل الأوحد صفى أمير المؤمنين وخالصة أبي الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين المغربى :

٢٥ من ربيع الآخر ٤٥٠ ﻫ حتى ٩ من رمضان سنة ٤٥٢ ﻫ .

من آل المغربى الذين اتصلوا بخدمة الحاكم ثم غدر بهم وقتلهم ، إلا من هرب منهم ، وكان أبو الفرج قد هاجر إلى العراق وخدم بها حتى هرب من البساسيرى وعاد إلى مصر واتصل باليازورى الذى استخدمه وولاه ديوان الجيش

وأصبح من خلصائه وكانت أم المستنصر تعنى به فكرهه البابلى . فلما صارت الوزارة إليه بعد اليازورى قبض عليه فى جملة من قبض عليهم من أصحاب اليازورى وظل معتقلا إلى أن تقررت له الوزارة وهو فى الاعتقال بعد صرف البابلى ، فأخرج من السجن وخلع عليه خلع الوزارة . ولم يقابل إساءة البابلى بمثلها بل قابله بالجميل وأحسن إليه إحساناً كبيراً .

ولما صرف المغربى فى رمضان سنة ٤٥٢ ﻫ اقترح أن يولى بعض الدواوين فولى ديوان الإنشاء ، وكان ذلك سابقة لم تعهد من قبل فإن الوزراء كانوا إذا اعتزلوا لا يستخدمون بعد ذلك ، وأصبح ذلك سنة . فكثيراً ما كان يعهد لمن يعتزل من الوزارة بأعمال أخرى . وتوفى المغربى سنة ٤٧٨ ﻫ .

البابلى :

مرة ثانية ٩ من رمضان سنة ٤٥٢ حتى ٣ من المحرم سنة ٤٥٣ ﻫ .

الوزير الأجل العادل الأمير شرف الوزراء سيد الرؤساء تاج الأصفياء عز الدين مغيث المسلمين خليل أمير المؤمنين وخالصته وصفوته أبو الفضل عبد الله ابن يحيى بن المدبر :

٣ من المحرم سنة ٤٥٣ ﻫ حتى رمضان من السنة .

يقول ابن الصيرفى : « هذا الوزير مشهور البيت فى الدولة العباسية وقد تضمنت التواريخ أخبار أسلافه وكان موصوفاً بالأدب » . ويذكر المقريزى أنه من ولد ابن المدبر متولى خراج مصر فى أيام ابن طولون .

وقد تولى ابن المدبر الوزارة مرتين وتوفى وهو بها فى ١٩ من جمادى الأولى سنة ٤٥٥ ﻫ .

الوزير الأجل فخر الوزراء عميد الرؤساء قاضى القضاة وداعى الدعاة مجد المعالى كفيل الدين يمين أمير المؤمنين وصفوته أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى :

رمضان سنة ٤٥٣ هـ حتى توفى فى ٣ من المحرم سنة ٤٥٤ هـ .

كان أبوه قاضياً لطرابلس ثم انتقل إلى القضاء بمصر وكان من أفضل من تولاه وكان خيراً . ولم تطل مدة نظره إذ توفى وهو فى الوزارة .

الوزير الأجل قاضى القضاة وداعى الدعاة ثقة المسلمين خليل أمير المؤمنين وخالصته ، أبو على أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد :

المحرم سنة ٤٥٤ هـ حتى ربيع الأول من السنة .

كان مثل أبيه وأخيه يشتغل بالقضاء، وكان مأموناً ديِّناً محققاً، وتحققت له الوزارة بعد وفاة أخيه ، ووليها أكثر من مرة فكان يتنقل بين الوزارة والقضاء أو يجمع بينهما .

ولم تحدد المراجع تاريخ وزارته ولا صرفه، ولكن يمكن تحديد توليته فى شهر المحرم إذ أنه حل محل أخيه فى الوزارة، ويذكر ابن الصيرفى أنه ظل فى الوزارة سبعة عشر يوماً فى حين يذكر ابن ميسر أنه صرف عن الحكم — أى القضاء — فى صفر ثم صرف بعد ذلك عن الوزارة واستخدم الماشلى . ولما كان الماشلى قد ولى الوزارة فى ربيع الأول فإنه يمكن تحديد تاريخ صرف ابن عبد الحاكم فى هذا الشهر .

الوزير السيد الأجل الكامل الأوحد أبو عبد الله الحسين بن سديد الدولة ذو الكفايتين ابن أبى الحسن على بن محمد بن الحسن بن عيسى الماشلى :

ربيع الأول سنة ٤٥٤ هـ حتى ٢ من شعبان من السنة .

وصفه ابن الصيرفى بأنه من أماثل الكتاب وصدورهم وله كتب مستحسنة ورسائل مدونة وكان طبعه أغزر من أدبه . وقد تولى نظارة دواوين الشام وكانت إقامته بدمشق ، واستدعى للوزارة فلما وصل تقلدها فى شهر ربيع الأول .

وفى وزارته كانت الوقعة التى حدثت بين العبيد والأتراك فى جمادى الأولى وكانت بداية الفتنة التى جرت الخراب على مصر ، وتولى بعد صرفه من الوزارة ديوان الشام ثم رحل إلى صور حيث أقام بها عدة سنين وعاد إلى مصر وأصبح مشارفاً للإسكندرية ثم صرف وتوفى سنة ٤٨٧ هـ .

البابلى :

للمرة الثالثة — شعبان سنة ٤٥٤ هـ حتى المحرم سنة ٤٥٥ هـ .

الوزير الأجل الأوحد سيد الوزراء مجد الأصفياء قاضى القضاة وداعى الدعاة خليل أمير المؤمنين أبو على (أو أبو أحمد) أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم :

١٣ من المحرم سنة ٤٥٥ هـ حتى ١٧ من صفر من السنة .

كان مثل عمه يتولى القضاء تارة والوزارة تارة أو يجمع بينهما. وكان اللقب الذى اشتهر به جلال الملك ، وقد توفى بالشام .

وقد حدد المقريزى وابن ميسر تاريخ وزارته فى ١٣ من المحرم وأنه صرف فى ١٧ صفر ، فى حين لم يحدد ابن الصيرفى تاريخ وزارته واكتفى بأن يذكر بأنه صرف بعد شهرين ، ولذلك سنعتمد على ما ذكره المقريزى وابن ميسر .

ابن المدبر :

مرة ثانية صفر أو ربيع الأول سنة ٤٥٥ حتى توفى فى وزارته فى ١٩ من جمادى الأولى من السنة .

الوزير الأجل الأوحد الأسعد تاج الوزراء الأمين المكين شرف الكفاة ذو المفاخر خليل أمير المؤمنين وخالصته أبو غالب عبد الظاهر بن الفضل بن الموفق فى الدين المعروف بابن العجمى :

١٩ من جمادى الأولى سنة ٤٥٥ هـ حتى صرف وقبض عليه فى ٢٧ من شعبان

من السنة ، كان جده الموفق فى الدين من دعاة الدولة ، واشتهر أبو غالب بالجرأة والإقدام . ولى الوزارة غير مرة .

الوزير الأجل الأوحد جلال الإسلام ظهير الإمام قاضى القضاة وداعى الدعاة شرف المجد خليل أمير المؤمنين وخالصته أبو محمد الحسن بن ثقة الدولة مجلى ابن أسد بن أبى كدينة :

شعبان سنة ٤٥٥ هـ حتى ٥ ذى الحجة سنة ٤٥٥ هـ .

مثله مثل بنى عبد الحاكم فى التردد بين الوزارة والقضاء ،ويصفه ابن الصيرفى بسوء الخلق وقسوة القلب ، وأنه من ولد عبد الرحمن بن ملجم . وقد قبض عليه أمير الجيوش بدر الجمالى وسيره إلى دمياط وقتل بها .

جلال الملك أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم :

مرة ثانية ٥ من ذى الحجة سنة ٤٥٥ هـ حتى ١٣ من المحرم سنة ٤٥٦ هـ .

وزير الوزراء العادل خليل أمير المؤمنين أبو المكارم المشرف بن أسعد بن عقيل:

١٣ من المحرم سنة ٤٥٦ هـ حتى ٢٧ من ربيع الآخر من السنة .

من صنائع البابلى وخاصته، كان نعته قبل الوزارة رئيس الرؤساء وذخيرة الملك، ولى الوزارة مرتين وتنقلت به الأحوال إلى أن قتله أمير الجيوش بدر فيمن قتلهم من وزراء مصر ورجالها .

ابن العجمى :

مرة ثانية – من ربيع الآخر حتى رجب سنة ٤٥٦ هـ .

أبو البركات الجرجرائى :

مرة ثانية – مستهل رجب سنة ٤٥٦ حتى العشر الأخير من رمضان سنة ٤٥٦ .

ابن أبى كدينة :

مرة ثانية – العشر الأخير من رمضان سنة ٤٥٦ هـ حتى ٤ من ذى الحجة من السنة .

العميد علم الكفاة أبو على الحسن بن أبى سعد إبراهيم بن سهل التسترى :

٤ من ذى الحجة سنة ٤٥٦ هـ حتى منتصف المحرم سنة ٤٥٧ هـ .

ابن أبى سعيد إبراهيم بن سهل الذى كان مسيطراً على أمور الدولة ، وقد أسلم ابنه هذا وحفظ القرآن . وكان يتولى بيت المال قبل إسناد الوزارة إليه .

والتسترى نسبة إلى تستر بلدة من كور الأهواز من خوزستان، وقد تكون نسبته إلى التستريين إحدى المحال الغربية من بغداد .

الأجل المعظم فخر الملك أبو شجاع محمد بن الأشرف بن أبى غالب محمد ابن على بن خلف :

لمدة يوم واحد .

يذكر الأستاذ الدكتور الشال فى ترجمته لعلى بن خلف أنه أديب عاش فى العصر الفاطمى وأنه ألف كتاب « مواد البيان » فى ترتيب الكتاب للدولة الفاطمية وحاول فيه أن يقنن لفن الكتابة قوانين ويقعد لها قواعد ، ونقل عنه القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى خاصة عند الحديث عن نظم ديوان الرسائل فى العصر الفاطمى ، ويرجح أن ابن خلف عاش فى النصف الثانى لعصر المستنصر ، وأنه ولى الوزارة للمستنصر مدة قصيرة .

ولكن على بن خلف هو جد الوزير المذكور وهذا الجد لم يل الوزارة بل كان من كتاب الإنشاء .

ويقول ابن الصيرفى فى ترجمته للوزير المذكور « من رؤساء العراقيين ، وكان والده فخر الملك أبو غالب محمد بن على بن خلف قد وزر لبهاء الدولة

أبى نصر بن عضد الدولة فناخسرو بن بويه (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) ، وكان من الكفاية والكرم وسعة الحال على ما هو مذكور فى التواريخ ، ووصل هذا إلى مصر وتقررت له الوزارة فخدم فيها أياماً وانصرف وتوجه إلى الشام فى البحر فلقيه أمير الجيوش لما صعد إلى مصر سنة ٦٦ فقتله .

ابن كدينة :

للمرة الثالثة – ولمدة أربعة أيام من ١٧ إلى ٢١ من المحرم سنة ٤٥٧ هـ .

ويذكر المقريزى خطأ أنه استقر فى الوزارة والقضاء فى حادى عشر من المحرم سنة ٤٥٧ هـ وصرف بعد أربعة أيام فى سادس عشر منه إذ أن أبا سعد التسترى كما سبق أن ذكرنا صرف فى النصف من المحرم ثم جاء بعده ابن خلف لمدة يوم واحد فيكون التاريخ المرجح أن ابن كندية ولى فى ١٧ المحرم ويكون صرفه فى الواحد والعشرين منه .

ابن خلف :

للمرة الثانية من ٢١ المحرم حتى منتصف ربيع الأول سنة ٤٥٧ هـ

الوزير الأجل سيد الوزراء تاج الأصفياء ذخيرة أمير المؤمنين سديد الدولة أبو القسم هبة الله بن محمد الرعيانى :

من منتصف ربيع الأول سنة ٤٥٧ هـ حتى آخره .

يذكر ابن الصيرفى أنه من الطارئين على مصر وربما جاء من العراق والتحق بخدمة الدولة حتى ولى الوزارة ، ويذكر ابن الصيرفى أنه أسندت إليه الوزارة مرتين ظل فى كل منهما عشرة أيام .

ابن كدينة :

للمرة الرابعة – ربيع الآخر سنة ٤٥٧ هـ وصرف عن الوزارة فى منتصف رجب سنة ٤٥٧ هـ .

أبو المكارم المشرف بن أسعد :

للمرة الثانية — من منتصف رجب حتى العشر الأخير من شوال سنة ٤٥٧ هـ .

الأثير كافى الكفاة أبو الحسن على بن الأنبارى :

أقام شهراً وصرف فى ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ .

كان من خلصاء المؤيد فى الدين داعى الدعاة وجعله نائباً عنه فى ديوان الإنشاء الشامى ، ويصفه ابن الصيرفى بأنه كان حسن الخط متوسط الأدب .

وابن الأنبارى هذا غير الوزير أبى على الحسن بن الأنبارى السابق ذكره ويغلب أنه ابنه .

ابن كدينة :

للمرة الخامسة — من ذى الحجة سنة ٤٥٧ حتى ٢٦ من صفر سنة ٤٥٨ هـ .

أبو القسم الرعيانى :

مرة ثانية — من ٩ من ربيع الآخر حتى ١٦ منه سنة ٤٥٨ هـ .

جلال الملك أحمد بن عبد الكريم :

مرة ثالثة فى من ٤ جمادى الآخرة سنة ٤٥٨ هـ وقد صرف بعد أيام .

الوزير الأجل تاج الرياسة علم الدين سيد السادات أبو على الحسن بن سديد الدولة ذو الكفايتين الماشلى :

أخو الوزير الحسين الماشلى السابق ذكره وقد أقام أياماً وصرف . يقول ابن الصيرفى : « ولى الوزارة وقد استحكم فساد الأمر وقلت الهيبة ، فأسقط الكاتبون حشمته فيما كانوا يعرضون له به ، وأقام أياماً وانصرف وسار إلى الشام وكان مع أخيه نصر وعادا وتوفيا بمصر » .

ابن خلف :

للمرة الثالثة — وأقام أياماً وصرف .

الأجل الوجيه سيد الكفاة نفيس الدولة ظهير أمير المؤمنين أبو الحسن طاهر بن وزير :

جمادى الآخرة أو رجب سنة ٤٥٨ هـ أقام أياماً وصرف .

يذكر ابن الصيرفى أنه من أهل طرابلس الشام ، ووصل إلى مصر وخدم كاتباً فى ديوان الإنشاء ثم انتقل إلى الوزارة وأقام أياماً وانصرف .

القادر العادل شمس الأمم سيد رؤساء السيف والقلم تاج العلى عميد الهدى شرف الدين غياث الإسلام والمسلمين حميم أمير المؤمنين وظهيره أبو عبد الله محمد بن حامد التنيسى :

أقام يوماً واحداً وصرف وقتل .

يذكر ابن الصيرفى عنه أنه « من أهل تنيس وكان ذا يسار وسعة حال ، ودخل مصر زمان الفتن واختلال الأحوال . واستقرت له الوزارة فأقام فيها يوماً واحداً وصرف ثم قتل » .

لأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف الكناة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين أبو سعد منصور بن (أبى اليمن) بن سورس بن مكرواه ابن زنبور :

أقام أياماً قليلة وهرب .

يقول ابن الصيرفى : « كان أبوه أبو اليمن ناظر الريف وكان نصرانيًّا وولده

هذا على دينه ، فلما أفضت الوزارة إليه أسلم وخلع عليه وقلد مصحفاً والنصارى ينكرون إسلامه . وأقام فى الوزارة أياماً قلائل فطالبه الجند بأرزاقهم فوعدهم وطمنهم وهرب مع اللواتيين فبطل أمره » .

الصادق المأمون مكين الدولة وأمينها أبو العلا عبد الغنى بن نصر بن سعيد الضيف :

يقول ابن الصيرفى فى ترجمته : «كان يخدم اليازورى فى دولته . ولم يكنه قط وإنما كان يدعوه باسمه، وسمت به حاله إلى أن جعل واسطته وبقى إلى أن دخل أمير الجيوش فنفى إلى قيسارية ثم نقل إلى تنيس وقتل بها » .

وليس معنى قول ابن الصيرفى ، إنه بقى حتى دخل أمير الجيوش ، أنه ظل فى الوزارة حتى دخل بدر القاهرة ، إذ أنه جاء بعد سلسلة طويلة من الوزراء ، كما أن هذا الوزير لم يبق فى الوزارة إلا أياماً وصرف .

ابن كدينة :

صرف عن الوزارة يوم الثلاثاء ثامن من المحرم سنة ٤٥٩ هـ .

ولم يذكر ابن ميسر أو المقريزى متى تولى هذه الوزارة وإن أجمعا على أنه صرف فى التاريخ المذكور .

أبو القسم عبد الحاكم المليجى :

ثامن من المحرم حتى ٧ جمادى الآخرة سنة ٤٥٩ هـ .

ابن كدينيه :

أقام أياماً وصرف .

المليجى :

لم يقم سوى ليالٍ يسيرة وصرف .

ابن كدينة :

أقام إلى ٢٨ من ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ .

جلال الملك أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم :

للمرة الرابعة تولى الوزارة فى ٢٨ من ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ ولا نعلم تاريخ صرفه بالضبط .

ابن كدينة :

المحرم سنة ٤٦٠ هـ .

حددنا هذا التاريخ حيث يذكر المقريزى فى حوادث المحرم سنة ٤٦٠ هـ أن الأتراك « ركبوا إلى دار الوزير ابن كدينة يريدون الأموال ، فقال وأى مال بقى ، الريف فى يد فلان والصعيد فى يد فلان ، والشام فى يد فلان » .

أما ابن حجر فيذكر أنه أعيد فى صفر ، ولم يذكر متى صرف ولكن الغالب أنه صرف فى صفر من السنة وسنعتمد على تاريخ المقريزى .

المليجى :

صفر سنة ٤٦٠ هـ

يقول ابن ميسر والمقريزى : « وعظم أمر ناصر الدولة واستبد بالأمور فصرف ابن كدينة عن الوزارة وأعاد المليجى فلم يبق غير خمسة أيام وصرف » .

ابن كدينة :

ربيع الأول حتى جمادى الأولى سنة ٤٦٠ هـ .

جلال الملك بن عبد الحاكم :

جمادى الأولى حتى ١٠ من ذى الحجة سنة ٤٦٠ هـ .

ابن كدينة :

١٠ من ذى الحجة سنة ٤٦٠ هـ حتى ٢٣ صفر سنة ٤٦١ هـ .

خطير الملك محمد بن اليازورى :

صفر سنة ٤٦١ هـ ولا نعرف متى صرف .

الوزير محمد بن جعفر بن المغربى :

مرة ثانية ونجهل تاريخ وزارته ولكنه صرف فى رمضان سنة ٤٦١ هـ .

جلال الملك ابن عبد الحاكم :

رمضان سنة ٤٦١ هـ وصرف بعد أيام .

خطير الملك محمد بن اليازورى :

مرة ثانية ــ رمضان سنة ٤٦١ هـ حتى شوال من السنة .

قتله القائد تاج الملوك شاذى ، يقول ابن ميسر ، إن الأتراك شكوا ابن حمدان إلى الوزير الخطير ، واتهموه بأنه يستحوذ على أغلب المال الذى يخرج لهم من الخليفة ، ولا يصل إليهم إلا القليل ، فقال لهم : إنما وصل إلى هذا وغيره بكم ولو فارقتموه لم يتم له الأمر ، فاتفق رأيهم على محاربته وإخراجه من ديار مصر ، فلجأ ابن حمدان إلى القائد تاج الملوك شاذى وحرضه على قتل القائد الدكز والوزير الخطير ، فعلم الدكز بالمؤامرة واستطاع الالتجاء إلى القصر ، أما الوزير فإنه أقبل فى موكبه فأوقع به شاذى وقتله .

ابن كدينة :

من شوال إلى ذى القعدة سنة ٤٦١ هـ .

المليجى :

وزر فى ذى القعدة سنة ٤٦١ هـ ولا نعلم تاريخ صرفه .

ابن كدينة :

ربيع الأول سنة ٤٦٤ هـ حتى آخر السنة .

أبو غالب عبد الظاهر بن العجمى :

للمرة الثالثة سنة ٤٦٥ هـ وقتل فى رجب من السنة .

ممن قتلهم القائد الدكز مع ابن حمدان وأهله ، يقول ابن ميسر والمقريزى : « وقتل فى هذه النوبة الوزير أبو غالب عبد الظاهر بن فضل بن الموفق فى الدين ابن العجمى » ويحدد المقريزى أن ذلك كان فى شهر رجب .

ابن كدينة :

ربيع الأول سنة ٤٦٦ هـ حتى قتله بدر الجمالى فى جمادى الأولى من السنة .

السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصرى :

٢٨ من جمادى الأولى سنة ٤٦٦ هـ وتوفى فى ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ .

أرمنى الجنسية ، كان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار وتربى عنده وتقدم بسببه ، وما زال يأخذ نفسه بالجد من شبيبة فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم فيما يرومه حتى أصبح معدوداً فى ذوى الشهامة وقوة العزم ، وأخذ يتنقل فى الرتب حتى ولى بلاد الشام وتقلد إمارة دمشق مرتين ، ولما ثار عليه أهلها رحل إلى عكا . وفى هذه الأثناء كانت الأمور بمصر تسير من سيئ إلى أسوأ أو كما يصف ابن الصيرفى : « كانت الأحوال يومئذ بالحضرة قد فسدت والأمور

قد تغيرت وطوائف العساكر قد تبعثرت وتخربت ، والفتن بينهم قد اتصلت وتأكدت ، والوزراء يقنعون بالاسم دون الأمر والنهى ، والرخاء قد أيس منه والصلاح لا يطمع فيه ، ولواته قد ملكت الريف ، والصعيد فى أيدى العبيد ، والطرقات قد انقطعت براً وبحراً إلا بالخفارة الثقيلة ، والكلفة الكبيرة ، مع ركوب الغرر وشدة الخطر ، والمارقون ينوى بعضهم لبعض الاحتيال والغدر ويضمر كل منهم لصاحبه الاغتيال والبغى » .

وكان بدر وهو بعكا ينتظر الفرصة للحضور إلى مصر والقضاء على أسباب الفتنة ، فما إن وصلته كتب المستنصر تستدعيه حتى بادر بالحضور وتمكن من القضاء على مثيرى الفتن وأعاد الاستقرار والهدوء للبلاد ، ورتب الدواوين والمستخدمين ، وأخذت البلاد فى الازدهار من جديد . وقد تحكم بدر فى البلاد تحكم الملوك ، وأصبح المسيطر على أمورها ، ولم يبق للخليفة بجانبه أى سلطان ، ويبدأ عهد وزراء السيوف أو وزراء التفويض الذين أصبح الخلفاء فى أيديهم مجرد ألعوبة .

السيد الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه بن بدر الجمالى :

ربيع الأول سنة ٤٨٧ هـ حتى قتل ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥ هـ .

من الثابت أن الأفضل اشترك فى الوزارة مع أبيه وإن كان هناك خلاف كبير بين المراجع فى ذلك ، فابن ميسر والمقريزى لم يذكرا ذلك ، فى حين أن ابن الصيرفى يذكر ما يلى : « انتقل النظر إليه حين اشتد مرض والده فى شهر ربيع الأول من سنة ٤٨٧ هـ » ويستطرد فى أن سبب تولية الأفضل فى حياة أبيه هو طمع أحد رجال بدر ويدعى لاوون فى الوزارة عندما رأى مرض سيده ، ولكنه لم ينجح فى مسعاه وأسندت الوزارة للأفضل . أما ابن ميسر والمقريزى فقد اتفقا على أن بدر الجمالى استناب ولده الأفضل وجعله ولى عهد السلطنة فى جمادى الأولى سنة ٤٧٧ هـ وعلى أية حال فإن الثابت من السجلات المستنصرية أن الأفضل اشترك مع أبيه فى تدبير الأمور منذ السابع من المحرم سنة ٤٧٩ هـ

على الأقل ، وهو تاريخ هذا السجل ، وأمر بأن يدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة ولأمير الجيوش بدر ، ثم استقل بالأمر بعد وفاة بدر .

ومن أهم الأحداث التى حدثت فى وزارة الأفضل حادثان هامان تركا أثرهما فى حياة الدولة الفاطمية ، الحادث الأول هو انقسام الدعوة الإسماعيلية إلى فرقتين المستعلية والنزارية وما كان للعداء بين الفرقتين من أثر كبير فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، والحادث الثانى هو مجىء الحملة الصليبية والدور الذى لعبه الأفضل فيها .

وعلى أى حال فإن عهد الأفضل يعتبر من العهود السعيدة فى مصر والتى شهدت فيها الرخاء ونعم الناس بالطمأنينة .

وفى ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥ هـ قتل الأفضل وله من العمر سبع وخمسون سنة ، إذ كان مولده بعكا سنة ٤٥٨ هـ ، قتله أشخاص خرجوا عليه من دكان دقاق بالملاحين . وتختلف المراجع فى سبب قتله ، فالبعض مثل ابن ميسر يذكر أن قتلته من فئة البديعية والبعض يذكر أنهم من النزارية ، فى حين يرى آخرون أن الآمر ضاق بتحكم وزيره واستيلائه على الأمور ، فوقعت بينهما المباينة وأخذ كل منهما يعمل على التخلص من الآخر ، وأن الآمر عزم على قتله داخل القصر ، ولكن ابن عم الخليفة ، الأمير عبد المجيد حذر الخليفة من ذلك، وأن الصواب أن يستميل الخليفة المأمون بن البطائحى وهو ثقة الأفضل ويمنيه بالوزارة على أن يدبر قتل الأفضل ، فتم الأمر على مادبره الأمير عبد المجيد ، وأن قتلته قتلوا فى الحال حتى يضيع سرهم معهم .

السيد الأجل المأمون تاج الخلافة عز الإسلام فخر الأنام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن الأجل نور الدولة أبو شجاع الآمرى :

شوال سنة ٥١٥ هـ حتى ٤ من رمضان سنة ٥١٩ هـ .

كان مولده فى سنة ٤٧٨ هـ وقيل فى سنة ٤٧٩ هـ ويصفه المقريزى بأنه كان من ذوى الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول كريماً واسع الصدر سفاكاً للدماء شديد التحرز كثير التطلع إلى أحوال الناس من الجند والعامة فكثر الواشون والسعاة بالناس فى أيامه .

ويختلف المؤرخون فى نشأة المأمون الأولى ، فالبعض مثل ابن الأثير يذكر أن أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق فمات ولم يخلف شيئاً فتزوجت أمه وتركته فقيراً فاتصل بإنسان يعلم البناء بمصر ، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبيرة ، فدخل مع الحمالين إلى دار الأفضل مرة بعد أخرى فرآه الأفضل خفيفاً رشيقاً حسن الحركة حلو الكلام فأعجبه فسأل عنه ، فقيل هو ابن فلان فاستخدمه مع الفراشين ، ثم تقدم عنده وكبرت منزلته وعلت حاله حتى صار وزيراً » .

وهذه القصة لا أساس لها من الصحة ، وقد أوردها المقريزى ، ولكنه أنكر صحتها ذاكراً أن المأمون من أخيـــار المشارقة ، وأن والده هو الأمير نور الدين أبو شجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار بن الأمير أمين الدولة أبى على حسن بن تمام المستنصرى . وكما نرى فهذا الوزير من بيت شغل أفراده المراكز العالية واتصلوا بخدمة الخلفاء . وقد مات أبوالوزير سنة ٥١٢هـ وابنه فى خدمة الأفضل فأخرج له الأفضل من ثيابه بدلة حريرية وقارورة كافور وشقق مريدى ديبقى ونصافى وطيباً وبخوراً وشمعاً ، وحمل له من القصر أضعاف ذلك ، وخرج الأفضل والأمراء وجميع حاشية القصر إلى الإيوان حيث خرج الخليفة وصلى عليه ثم أخرج فدفن . ومما رواه المقريزى نعلم أن الوزير المأمون كان وهو فى سن الثانية عشرة من جملة خاصة المستنصر ، وكان يرسله إلى بيت المال وخزانة الصاغة فى مهماته ، فيجد منه النهضة والأمانة ، فيقول هذا لمأمون دون الجماعة ، وبذلك عرف بالمأمون منذ ذلك الوقت ، ثم اتصل بخدمة الأفضل سنة ٥٠١ هـ إذ يذكر المقريزى فى حوادثها : « وفيها اتصل أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبو الشجاع فاتك المعروف بالمأمون بن البطائحى بخدمة الأفضل ، وسبب ذلك تغير الأفضل على تاج المعالى مختار الذى كان اصطنعه وفخم أمره وسلم إليه خزائن أمواله وكسواته ، فسلم لأخويه ما يتولاه واستعان بهما ، فحصل لهما من الإدلال على الأفضل ما حملهم على مد أيديهم إلى أمواله وذخائره وشاع أمرهم ، وكتب إلى الأفضل

بسببهم فتغير عليهم وأخرج مختار لولاية الغربية وخلع عليه ، فلما انحدر إليها سير صاحب بابه سيف الملك قطلح ويعرف بالبغل وكان من غلمان أبيه فقبض عليه وعلى أخويه من العشارى وكبل بالحديد ورمى فى الاعتقال . وأشيع أن مختاراً كاتب الفرنج ، وجعل هذا هو العذر فى القبض عليه ، وأنه كان أراد قتل الأفضل. فلما جرى لمختار وأخوته ماجرى ألزم الأفضل أبا عبد الله فاتك بتسلم ما كان بيد مختار من الخدمة ، فتصرف فيها وقرر له الأفضل ما كان باسم مختار من العين خاصة زروع الإقطاع وهو مائة دينار فى كل شهر وثلاثون ديناراً عن جارى الخزائن مضافاً إلى الأصناف الراتبة ميارمة ومشاهرة ومسانهة ، وحسن عند الأفضل موقع خدمته فسلم له جميع أموره وصرفه فى كل أحواله . ولما كثر الشغل عليه استعان بأخويه أبى تراب حيدرة وأبى الفضل جعفر فأطلق لهذا الأفضل ماوسع به عليهما ، ونعت أبا محمد بن فاتك بالقائد .

وعندما دفن الأفضل قلد الآمر المأمون الوساطة دون الوزارة ثم كمل له الوزارة وقرأ سجله فى الخامس من ذى الحجة سنة ٥١٥ هـ ، فدبر الأمر أحسن تدبير حتى قبض عليه فى ليلة السبت لأربع خلون من شهر رمضان سنة ٥١٩ هـ وقبض على إخوته الخمسة مع ثلاثين من أهله وخواصه وظل معتقلا حتى صلب مع إخوته فى سنة ٥٢٢ هـ وذكر فى سبب اعتقاله آراء مختلفة ، فيقول المقريزى : « ويقال إن سبب القبض عليه أنه بعث إلى الأمير جعفر بن المستعلى أخى الآمر يغريه بقتل أخيه الخليفة ، ووعده أنه يعتمد مكانه فى الخلافة . فلما تقرر ذلك بينهما بلغ الشيخ الأجل أبا الحسن على بن أبى أسامة كاتب الدست الحبر وكان خصيصاً بالآمر قريباً منه ، وكان المأمون يؤذيه كثيراً فبلغ الخليفة الحال . ويقال إنه سم مبضعاً ودفعه لفصاد الخليفة فأعلم الفصاد الخليفة بالمبضع ، وقيل إن الخليفة اطلع على أنه ادعى الخلافة وأنه من ولد نزار من جارية خرجت من القصر وهى حامل عندما خرج نزار إلى الإسكندرية فانزعج الخليفة لذلك ، ثم إنه سير إلى اليمن الموفق فى الدين على بن نجيب الدولة ،

وكان من أهل الأدب فصيحاً داهية ليحقق لغلبته هناك ، ويدعو الناس إلى بيعته وأنه أمره أن يضرب السكة ويكتب عليها الإمام المختار محمد بن نزار . ويقال إن الخليفة كان يقول ، أعظم ذنوبه عندى ما جرى منه فى حق صور وإخراجها من يد الإسلام إلى الكفر . واتهم المأمون بأنه هو الذى دبر قتل الأفضل ليكون له بذلك يدٌ عند الخليفة ، ولأنه كان يخاف أن يموت الأفضل فيلقى من الآمر ما يكرهه لأنه كان أكبر الناس منزلة عند الأفضل ومتحكماً فى جميع أموره ، كما اتهم بأنه هو الذى قتل أولاد الأفضل وأولاد أخيه الأوحد والمظفر وكانوا نحو المائة ذكر ما بين كبير وصغير فقتلوا بأجمعهم ولم يبق منهم سوى صغير نحيف هو أحمد أبو على الذى أصبح وزيراً فيما بعد . واتهم أيضاً بقتل الأمير حسام الملك أفتكين صاحب الباب فى أيام الأفضل لتخوفه منه ، وذلك أن حسام الملك دخل مرة على الآمر للسلام ، فلما خرج قال الآمر والله إنك لأمير حسن ، فبلغ ذلك المأمون فقامت قيامته ودس عليه من قتله .

فلما قبض على المأمون وأخيه المؤتمن وهما بالقصر أودعا فى خزانة به وصودرت دورهما وأنشئ سجل كتبه الشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست فى سبب اعتقاله ليقرأ على المنبر كان استفتاحه : « أما بعد ، فإن محمد بن فاتك استنجح فما نجح واستصلح فما صلح ، وجهل رفع قدره بعد الهبوط ، وقابل الإحسان إليه بدواعى القنوط » . فلما أصبح الصباح جلس الخليفة فى الشباك بالإيوان ونصب كرسى الدعوة أمامه وطلع قاضى القضاة عليه وقرأه بعد اجتماع الأمراء وأرباب الرتب والعوام ، فلم ينتطح فيهما عنزان .

الآمر بدون وزراء :

من رمضان سنة ٥١٩ إلى ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ .

يقول المقريزى : « وتفرغ الآمر لنفسه وبقى بغير وزير ، وأقيم صاحبا ديوان لاستخراج ما يجب من زكاة ومكس أحدهما مسلم يقال له جعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط ، والآخر سامرى يقال له أبو يعقوب إبراهيم ، واستمر

الآمر حتى تمكن الراهب أبو نجاح بن فنا من السيطرة على الدواوين فى شوال سنة ٥٢٠ ﻫ وظل يظلم الناس حتى قتل فى سنة ٥٢٣ ﻫ .

هزار الملوك جوامرد :

أقام لمدة نصف يوم فى ١٤ من ذى القعدة سنة ٥٢٤ ﻫ .

يقول المقريزى فى ترجمته للحافظ لدين الله: « إنه جلس يوم قتل الآمر كفيلا لطفل منتظر ، وتقرر أن يكون هزار الملوك جوامرد وزيراً وأن يكون الأمير السعيد يانس متولى الباب اسفهسلارا ، وقرئ سجل فى الإيوان بهذا التقرير ، والحافظ فى الشباك جالس ، وقد تولى قراءته قاضى القضاة ابن ميسر على كرسى نصب له أمام الحافظ وبحضور أرباب الدولة ، وخلع على هزار الملوك خلع الوزارة » . ولكن الجنـد المجتمعين بين القصرين أبوا ذلك وطالبوا بتولية أبى على أحمد بن الأفضل الملقب بكتيفات ، ولم تهدأ ثورتهم حتى اضطر الحافظ إلى قتل هزار الملوك وألقى برأسه إلى الجند ، واستدعى بالخلع لأبى على فأفيضت عليه فى يوم الأربعاء خامس عشر من ذى القعدة ، وركب إلى دار الوزارة والجماعة مشاة فى ركابه ، فكانت وزارة هزار الملوك نصف يوم بغير تصرف . ووقع النهب فى القاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة ونهبت القيسارية وكان فيها أكثر ما يملكه أهل القاهرة لأنها كانت مخزنهم ، فكان هذا أول حادث حدث على القاهرة من النهب والطمع وطيف برأس هزار الملوك على رمح .

وكان هزار الملوك من كبار غلمان الآمر وقد اصطفاه لنفسه ورد له المظالم والنظر فى أحوال الجند ، وهو نوع من الوزارة ، وكان ينعت بالأفضل ويذكر المقريزى : « أن الآمر وهب مرة لغلامه هزار الملوك جوامرد المنعوت بالأفضل ثمانين ألف دينار ، وكان قد أعطى غلامه الآخر المسمى برغش المنعوت بالعادل مثل هذا المبلغ ، وكانا أخص غلمانه وأقربهم منه وأشرفهم عنده منزلة ، وكانا أسمح خلق الله ، وكان الناس فى أيامهما لا يوجد فيهم من يشكو

الفقر بمصر ولا بالقاهرة . فإن هزار الملوك كانت صدقته فى كل يوم راتباً قد قدره بالقرافة أربعة آلاف درهم فى ألف كاغدة على يد الثقة ابن الصعيدى وغزال الوكيل ، وكانت عطاياه من يده لا تنقص عن عشرة دنانير أبداً وذلك عند ركوبه إلى القصر وعودته منه من أحد يقف له ويطلب منه » . كما يذكر أيضاً : « صار الناس فى مدة أيام الآمر التى استبد فيها فى لهو وعيش رغد لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذيه لا سيما غلاميه برغش وهزار الملوك حتى إنه لا يكاد يوجد فى مصر والقاهرة من يشكو زمانه لبسطهم الرزق بين الناس وتوسعهم فى العطاء » .

أبو على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى الملقب بكتيفات :

١٥ من ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ حتى ١٦ من المحرم سنة ٥٢٦ هـ .

مر بنا أن أبا على هو الذى بقى حياً من أولاد الأفضل وأولاد أخويه ، وأن الجند هم الذين أرغموا الحافظ على إسناد الوزارة إليه . وما إن استقر كتيفات فى دست الوزارة حتى قبض على الحافظ وسجنه وأعلن الدعوة للإمام المنتظر وأبطل الدعوة الإسماعيلية وكاد يقضى على الدولة نفسها لولا أنه قتل وأخرج الحافظ من معتقله وأعيد للخلافة فاتخذ هذا اليوم عيداً أسماه عيد النصر، ظل يحتفل به كل عام .

السعيد أبو الفتح يانس الأرمنى :

١٦ من المحرم سنة ٥٢٦ هـ حتى ٢٦ من ذى الحجة من السنة .

يقول المقريزى ، لما قتل كتيفات بادر صبيان الخاص الذين تولوا قتاله إلى القصر ودخلوا ومعهم الأمير يانس متولى الباب إلى الخزانة التى فيها الحافظ وأخرجوه إلى الشباك وأجلسوه فى منصب الخلافة ، وقالوا : والله ما حركنا على هذا إلا الأمير يانس ، فجازاه الحافظ بأن فوض إليه الوزارة فى الحال وخلع عليه فباشرها مباشرة جيدة .

وكان يانس هذا مولى أرمنياً لباديس جد عباس الوزير فأهداه إلى الأفضل ابن أمير الجيوش وترقى فى خدمته إلى أن تأمر ، ثم ولى الباب وهى أعظم الأمراء ، وكنى بأبى الفتح ولقب بالأمير السعيد ، ولما ولى الوزارة نعت بناصر الجيوش سيف الإسلام ، وكان عظيم الهمة بعيد الغور، شديد الهيبة . فهدأت الدهماء وصلحت الأحوال واستقرت الخلافة للحافظ إلا أن علاقة الوزير بالحافظ ساءت فدبر الخليفة عليه حتى قتله بالسم .

ولما مات يانس تولى الحافظ الأمر بنفسه ولم يستوزر أحداً ، وفى سنة ٥٢٨ هـ أقام الحافظ أسن أولاده سليمان وليًّا للعهد وأقامه ليسد مكان الوزير ويستريح من مقاساة الوزراء ومضايقتهم إياه فى أوامره ونواهيه . وظل الحافظ دون وزراء حتى جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ .

سيف الإسلام تاج الملوك أبو المظفر بهرام الأرمنى :

١١ من جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ حتى ١١ من جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ .

أرمنى الجنسية، نصرانى الدين من تل باشر ، ويذكر ابن ميسر أن سبب حضوره إلى مصر ، أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه ممن ولى بعده ، فتعصبت عليه جماعة من الأرمن ورفضوه وولوا عليهم غيره ، فخرج من تل باشر مغاضباً وقدم إلى القاهرة والتحق بخدمة الدولة. وكان بهرام عاقلا مقداماً فى الحرب حسن السياسة، جيد التدبير فترقى فى الخدم حتى ولى المحلة فقام بولايتها حتى خرج إلى القاهرة بعد قتل حسن وتولى الوزارة .

يقول المقريزى : « وقدم بهرام بالحشد كما تقدم فوجد حسن قد مات ، فمسكه الأجناد بظاهر القاهرة وأدخلوه على الحافظ لدين الله يوم الخميس بعد العصر الحادى عشر من جمادى الآخرة لتولية الوزارة ، فخلع عليه فى يوم الأحد رابع عشر ، ثم خلع عليه ثانياً يوم الخميس ثامن عشر خلع الوزارة ونعت بسيف الإسلام تاج الخلافة » . فشق ذلك على الناس وتطاول النصارى فى أيامه على المسلمين، وكان هو قد أحسن السيرة وساس الرعية وأدى الطاعة

للخليفة ، وأنفق فى الجند جملة من الأموال ودبر الأمور فاستقامت له الأحوال وراسله الملوك، وزال ما كان فى البلاد من الفتن فلم ينكر عليه سوى أنه نصرانى .

وظل بهرام فى الوزارة حتى طرده منها رضوان بن الولخشى وحل مكانه فى الوزارة .

ومات بهرام فى ٢٠ ربيع الآخر سنة ٥٣٥ هـ فحزن عليه الحافظ وأمر بإغلاق الدواوين ثلاثة أيام .

السيد الأجل الملك الأفضل رضوان بن الولخشى :

١١ من جمادى الأولى سنة ٥٣١ حتى ١٤ من شوال سنة ٥٣٣ هـ .

يذكر ابن ميسر أنه لما خرج بهرام من القاهرة دخل رضوان إليها فوقف بين القصرين واستأذن الحافظ فيما يفعله ، فأشار بنزوله إلى دار الوزارة فنزلها وخلع عليه خلع الوزارة ونعته بالأفضل ، وذلك لإحدى عشرة خلت من جمادى الأولى . ولكن المتريزى يذكر أن بهرام خرج من القاهرة يوم الأربعاء وقت العصر حادى عشر من جمادى الأولى ، وأن رضوان نزل دار الوزارة بعد خروج بهرام وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل . فاستدعى بالأموال من الخليفة وأنفق فى الجند ومهد الأمر وأن رضوان أول وزير لقب بالملك .

ولقد ولد رضوان بن الولخشى لليلة عيد الغدير ١٨ من ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ والتحق بخدمة الدولة وترقى فى الخدم حتى أصبح أحد الأمراء المميزين فى خلافة الآمر ، وامتاز بالشجاعة والإقدام وهو الذى قاد ثورة الجند ضد تولية هزار الملوك الوزارة وطالب بوزارة أبى على أحمد بن الأفضل ، ثم ولى قوص وإخميم سنة ٥٢٨ هـ ، وأصبح صاحب الباب سنة ٥٢٩ هـ وهى رتبة تلى رتبة الوزارة ، ولكن بهرام خشى وجوده بالقاهرة فولاه عسقلان فى رجب سنة ٥٢٩ هـ ثم اضطر لاستدعائه مرة أخرى للقاهرة لوقوفه فى وجه الأرمن الذين يقصدون مصر ومنعهم من ذلك ، ثم ولاه الغربية فى صفر سنة ٥٣٠هـ وظل

بها حتى خرج على رأس قواته لطرد بهرام وتولى الوزارة .

واستطاع الخليفة أن يثير ضد رضوان أحد كبار الأمراء ، هو على بن السلار ، وتمكن هذا من إثارة الجند ضده وقامت الفتنة فى يوم الاثنين الثالث عشر من شوال سنة ٥٣٣ هـ ، واضطر رضوان للهرب إلى عسقلان فدخلها وجعلها معقله ، وتوجه أخوه الأوحد إبراهيم إلى الحجاز وأقام به حتى مات ، وسار ابن أخيه الذى كان والياً على مصر إلى بغداد فأكرمه أصحاب الخليفة هناك ولم يزل عندهم إلى أن مات. ثم خرج رضوان من عسقلان إلى صلخد حيث نزل على أمين الدولة كمشتكين الذى أبره وأكرمه .

وعاد رضوان فى صفر سنة ٥٣٤ هـ فى قوة من ألف فارس ، ولكن الحافظ تمكن من القبض عليه يوم الاثنين ٤ من ربيع الآخر من السنة واعتقله بالقصر قريباً من الدار التى فيها بهرام وظل معتقلا حتى استطاع الهرب من نقب نقبه وذلك فى ٢٣ من ذى القعدة سنة ٥٤٢ هـ وتجمع حوله عدة من الأجناد وعرب لواته وتمكن من دخول القاهرة ونزل بالجامع الأقمر يوم الجمعة ٢٦ من ذى القعدة ، ولكن بعض السودان استطاعوا — بعد أن أجزل لهم الحافظ العطاء — قتله فى ذلك اليـــوم .

الأمير الأفضل أبو الفتح نجم الدين سليم بن مصال اللكى :

٥٣٤ هـ حتى ٥٤٢ هـ .

تولى الوزارة مرتين ، المرة الأولى فى خلافة الحافظ سنة ٥٣٤ هـ، إذ يذكر المقريزى فى حوادث تلك السنة « وفيها ولى الحافظ لدين الله الأمير الفضل نجم الدين أبا الفتح سليم بن مصال اللكى تدبير الأمور» . ويبدو أن ذلك بعد أن قبض على رضوان بن الولخشى فى ربيع الآخر. وقد ظل ابن مصال يدبر الأمور حتى سنة ٥٤٢ هـ على الأقل ، إذ يذكر المقريزى فى حوادث تلك السنة : « وفيها خرج رضوان من نقب نقبه بالقصر ، وذلك أن الحافظ اعتقله بالقصر وأرسل يسأله فى أشياء من جملتها زيارة نجم الدين بن مصال له

فى الوقت بعد الوقت ، فأجابه إلى ذلك لثقته بابن مصال ، فحضر ابن مصال فى يوم من الأيام لخدمة الخليفة . وبدأ بزيارة رضوان، فدخل إليه ومعه مشدة فيها رقاع بحوائج الناس ليعرضهـــا على الحافظ، وكانت عادته ذلك ، فاحتاج إلى الخلاء ، فترك مشدته عند رضوان ودخل الخلاء، فأخذ رضوان الرقاع ووقع بخطه عليها كل بما يسوغ التوقيع به وأتربها وطواها فى المشدة، وخرج ابن مصال فأخذها ودخل على الحافظ ، وقد علم أنه كان عند رضوان ، فقال له كيف ضيفنا ! فقال على غاية التذكر لنعمة مولانا وجواره، وأخرج رقعة من تلك الرقاع ليعرضها على الخليفة فوجد عليها التوقيع بخط رضوان ، فأمسكها وأخرج غيرها ، فإذا هى موقع عليها أيضاً . وكان الحافظ يراه فقال ما هذا ؟ فاستحيا ابن مصال عندما تناول الخليفة الرقاع وعليها توقيع رضوان فقال له الحافظ : يانجم الدين ما زلت مباركاً علينا والله يشكر لك ذلك، لقد فرجت عنا غمته . فقال كيف يامولانا ؟ قال رأيت البارحة رؤيا مقتضاها أنه ربما يشركنا فى كثير من أمرنا ، فالحمد لله إذ كان هذا . وكتب على الرقاع وأمضاها بخطه وخلع على ابن مصال » .

يتضح مماذكره المقريزى أن ابن مصال كان يدبر الأمور ويقوم بعمل الوزراء ، ولكن المقريزى يعود فيذكر وكذلك ابن ميسر أن الحافظ لم يستوزر أحداً بعد أن قبض على رضوان ، وإنما أقام كتاباً على سنة الوزراء أرباب العمايم ، ولم يسم أحداً منهم وزيراً وهم : أبو عبد الله محمد بن الأنصارى وخلع عليه بالحنك والدواه ، فتصرف تصرف وزراء الأقلام وصعد المنبر مع الخليفة فى الأعياد والجمع ، والقاضى الموفق محمد بن معصوم التنيسى ، وصنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم النصرانى .

ونرجح أن الحافظ صرف ابن مصال بعد القضاء على رضوان وقتله واستعان بالكتاب السابق ذكرهم .

وعلى ذلك يمكن أن نحدد وزارة ابن مصال الأولى من سنة ٥٣٤ حتى سنة ٥٤٢ هـ ولم يكن فيها وزير سيف .

ومن سنة ٥٤٢ حتى مات الحافظ فى ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ بدون وزراء .

السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش أبو الفتح سليم بن محمد بن مصال اللكى :

جمادى الآخرة ٥٤٤ هـ حتى ١٤ شعبان من السنة .

يقول المقريزى وهو يترجم للخليفة الظافر : « استوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال ، ونعت بالسيد الأجل الأفضل أمير الجيوش وخلع عليه خلع الوزارة بوصية الحافظ أيضاً ، وهو يومئذ من أكابر الأمراء وهو شيخ لين متواضع فسكن دار المأمون البطائحى . .

وابن مصال تولى الوزارة فى هذه المرة كوزير سيف ، وأصله من قرية لك من أعمال برقة ، وخدم أولا فى البيزرة والصيد هو وأبوه فتقدم فى الخدم حتى أصبح من كبار الأمراء ونال الوزارة ، واتفق أنه مر فى وزارته مرة ، فقالت له امرأة كانت تعرفه فى حال فقره ، سليم وزرت ! فقال لها نعم ، قالت والله ما وزرت وبقى أحد . فضحك وأمر لها بصلة » .

ولم تطل وزارة ابن مصال إذ ثار عليه الأمير المظفر أبو الحسن على بن السلار والى الإسكندرية والبحيرة ، واجتمع معه ابن زوجته عباس بن باديس واتفقا على إزالة ابن مصال من الوزارة ، فبلغه ذلك فأعلم به الخليفة الظافر الذى جمع الأمراء فى مجلس الوزارة ، وبعث إليهم زمام القصور يقول : هذا نجم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمتثل أمره ، فقال الأمراء : نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون ، فرجع الزمام بهذا الجواب ، فقال أمير من الأمراء شيخ يقال له درى الحرون وهو أحد أشرار القوم ومن رفقة ابن السلار : إن سمع منى ما أقول قلت . فقال له الوزير قل ، قال مولانا صلوات الله عليه يعلم ، وأنت تعلم أن ما فى الجماعة من يضرب ابن السلار بسيف أولهم أنا ، فإن كان مولانا يقتل جميع أمرائه وأجناده فالأمر لله وله . فلما سمع الجماعة ذلك قاموا وخرجوا من القصر وشدوا على خيولهم وساروا يريدون ابن السلار .

فلما غلب الظافر عن دفعه ، أعطى ابن مصال مالا كثيراً وأمره أن يعمل لنفسه ما يرى فيه الخيرة وهو يساعده، ولما رأى ابن مصال أنه لاطاقة له بملاقاة ابن السلار عدا إلى الجيزة ليلة الثلاثاء ١٤ من شعبان عندما علم بقدومه . ودخل ابن السلار إلى القاهرة يوم الأربعاء ١٥ من شعبان ، فوقف على القصر وسار إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء يعلم مجاله، فجرت بينه وبين أهل القصر مراجعات كثيرة حتى فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع الوزارة .

السيد الأجل أمير الجيوش شرف الإسلام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين العادل المظفر أبو الحسن على بن إسحق بن السلار :

١٥ من شعبان ٥٤٤ حتى ٦ من المحرم ٥٤٨ هـ .

يقول المقريزى ، خلع عليه الظافر خلع الوزارة ، ونعت بالسيد الأجل أمير الجيوش شرف الإسلام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين، وهو يحقد على الظافر ميله مع ابن مصال، وفى نفس الخليفة منه نفور أيضاً، وسكن دار الوزارة .

وجمع ابن مصال كثيراً من السودان ومن العربان ولواته وغيرهم ، وانضم إليه بدر ابن رافع مقدم العربان ، فندب ابن السلار ربيبه عباس لقتاله، يقول أسامة بن منقذ وهو ممن عاصر تلك الأحداث : «خرج عباس ركن الدين وهو ابن امرأة على بن السلار وضرب خيمة فى ظاهر مصر فغدت سرية من لواته ومعهم نسيب لابن مصال ، وقصدوا مخيم عباس، فانهزم عنه جماعة من المصريين ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه من الجند وبلغ الخبر إلى ابن السلار ، فاستدعانى فى الليل وأنا معه فى الدار ، وقال هؤلاء الكلاب يعنى جند مصر ، قد شغلوا الأمير يعنى عباساً بالقوارع حتى عدا إليه قوم من لواته سباحة ، فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة ، والأمير مواقفهم . قلت يامولاى نركب إليهم فى سحر وما يضحى النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى . قال صواب أبكر فى ركوبك ، فخرجنا إليهم من بكرة، فلم يسلم

منهم إلا من سبحت به فرسه فى النيل، وأخذ نسيب بن مصال ضرب رقبته وجميع العسكر مع عباس ، وسيره إلى ابن مصال فلقيه على دلاص فكسرهم وقتل ابن مصال وقتل من السودان وغيرهم ١٧ ألف رجل، وحملوا رأس ابن مصال إلى القاهرة ، ولم يبق لسيف الدين من يعانده ولا يشاققه .

ولم يصف الجو بين ابن السلار والخليفة حتى انتهى الأمر بأن قتل ابن السلار يوم الخميس السادس من المحرم سنة ٥٤٨ هـ .

وعن ترجمة ابن السلار يذكر ابن خلكان أنه كان كرديًّا زرزاريًّا ، وكان والده فى صحبة سقمان بن أرتق صاحب القدس ، فلما استولى الأفضل على القدس وجد فيها طائفة من عسكر سقمان فضمهم إليه ، ومن جملتهم ابن السلار والد الوزير فأخذه الأفضل إليه ، وتقدم عنده وسماه « سيف الدولة » وأكرم ولده هذا، وجعله فى صبيان الحجر[1] وكان العادل ممن امتازوا بالشجاعة والإقدام والعقل فأمره الحافظ. وتقلبت به الأحوال فى الولايات بالصعيد والريف حتى كان والياً على البحيرة والإسكندرية قبل تولية الوزارة . وكان ابن السلار شهما مقداماً مائلا إلى أرباب العقل والصلاح ، وكان ظاهر التسنن شافعى المذهب . ويستطرد ابن خلكان أنه كان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة وسطوة قاطعة يؤاخذ الناس بالصغائر والمحقرات . ومما يحكى عنه أنه قبل وزارته بزمان — وهو يومئذ من آحاد الأجناد — دخل يوماً على الموفق أبى الكرم بن معصوم التنيسى ، وكان مستوفى الديوان ، فشكا إليه حاله من غرامة لزمته، بسبب تفريطه فى شىء من لوازم الولاية بالغربية، فلما أطال عليه الكلام قال له أبو الكرم: والله إن كلامك ما يدخل فى أذنى ، فحقد عليه ذلك ، فلما تولى الوزارة طلبه ، فخاف منه واستتر مدة، فنادى عليه فى البلد ، وهدر دم من يخفيه ، فأخرجه الذى خبأه عنده فخرج فى زى امرأة بإزاروخف ،

---

(١) صبيان الحجر ، طائفة من الجند لكل واحد منهم فرس وعدة ، فإذا ما كلف بعمل لم يتردد فى القيام به ، وذلك على مثال الداوية والاستبارية ، فإذا تميز صبى من هؤلاء بعقل وشجاعة قدم للإمارة .

فعرف وأخذ وحمل إلى العادل ، فأمر بإحضار لوح من الخشب ومسمار طويل فألقى على جنبه وطرح اللوح تحت أذنه ، ثم ضرب المسمار فى الأذن الأخرى فصار كلما صرخ يقول له : دخل كلامى فى أذنك بعد أم لا. ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الأذن الأخرى ، ثم عطف المسمار على اللوح ويقال إنه شنقه بعد ذلك .

أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى :

١٢ من المحرم سنة ٥٤٨ هـ حتى ١٩ من ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ .

من المغرب ومن بيت الملك بها ، وصل مع أمه إلى مصر وهو صبى فتزوجها ابن السلار وتبنى عباساً الذى ترقى فى الخدم حتى ولى الغربية ولقب بالأمير ركن الإسلام ، ثم تولى الوزارة بعد قتله ابن السلار. وجرت فى عهد عباس أحداث ساعدت فى سرعة القضاء على الدولة الفاطمية تعرضنا لذكرها فيما مر من فصول .

السيد الأجل الملك الصالح ناصر الأمة كاشف الغمة أمير الجيوش سيف الإسلام غياث الأنام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو الغارات طلائع بن رزيك الفائزى :

١٩ من ربيع الأول ٥٤٩ حتى مات فى ١٩ من رمضان سنة ٥٥٦ هـ .

أرمنى الجنس ولد بأرمينية سنة ٤٩٥ هـ وأكب منذ صغره على العلم والأدب وكان من الشيعة الإمامية ، فقدم مع جماعة من الفقراء لزيارة مشهد الإمام على ابن أبى طالب ، فى النجف بالعراق ، فرأى السيد بن معصوم إمام المشهد فى منامه ، الإمام على رضى الله عنه يقول له : قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً ، من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزيك من أكبر محبينا ، قل له اذهب فقد وليناك مصر . فلما أصبح ، أمر أن ينادى من فيكم طلائع بن رزيك ، فليقم إلى السيد ابن معصوم، فجاء طلائع وسلم عليه فقص عليه ما رأى، فسار حينئذ

إلى مصر والتحق بخدمة الدولة وترقى فى المناصب حتى ولى الصعيد . فلما قتل عباس الخليفة الظافر ، بعث إليه نساء القصر يستغثن به ، فجاء إلى القاهرة ووضع السيف فيمن بقى من أصحاب عباس ، وخلع عليه الخليفة خلع الوزارة. يقول المقريزى : فباشر البلاد أحسن مباشرة واستبد بالأمور لصغر سن الخليفة الفائز إلى أن مات ، فأقام من بعده عبد الله بن محمد ولقبه بالعاضد لدين الله وبايع له ،وكان صغيراً لم يبلغ الحلم فقويت حرمة طلائع وازداد تمكنه من الدولة فثقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم واستبداده بالأمر دونهم ، فوقف له رجال بدهاليز القصر ، وضربوه حتى سقط على الأرض وحمل جريحاً إلى داره فمات يوم الاثنين تاسع عشر من رمضان سنة ٥٥٦هـ. وكان شجاعاً كريماً جواداً فاضلا محبًّا لأهل الأدب جيد الشعر ، وكان مهاباً فى شكله عظيما فى سطوته ، وجمع أموالا عظيمة ، وكان محافظاً على الصلوات فرائضها ونوافلها شديد المغالاة فى التشيع . . . ولما ولى الوزارة مال على المستخدمين بالدولة وعلى الأمراء ، وأظهر مذهب الإمامية وهو مخالف لمذهب القوم ، وباع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقررة ، وجعل مدة كل متول ستة أشهر ، فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة على البلاد وتعبوا من ذلك .. ولم يترك مدة أيامه غزو الفرنج وتسيير الجيوش لقتالهم فى البر والبحر ، وكان يخرج البعوث فى كل سنة مراراً ، وكان يحمل فى كل عام إلى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة وغيرها حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان ، التى يكتب فيها والأقلام والمداد وآلات النساء .

ولما كان فى الليلة التى قتل صبيحتها قال ، فى هذه الليلة ضرب فى مثلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأمر بقربة ممتلئة فاغتسل وصلى على رأى الإمامية مائة وعشرين ركعة أحيا بها ليله ، وخرج ليركب فعثر وسقطت عمامته عن رأسه وتشوشت ، فقعد فى دهليز دار الوزارة ، وأمر بإحضار ابن الضيف، وكان يتعمم للخلفاء والوزراء ، وله على ذلك الجارى الثقيل ، فلما أخذ فى إصلاح العمامة قال رجل للصالح ، نعيذ بالله مولانا ويكفيه هذا الذى جرى أمراً

يتطير منه ، فإن رأى مولانا أن يؤخر الركوب فعل ، فقال ، الطيرة من الشيطان ، ليس إلى تأخير الركوب سبيل ، وركب فكان من ضربه ما كان ، وعاد محمولا فمات منها » .

الملك الناصر العادل رزيك بن الصالح :

١٩ من رمضان ٥٥٦ حتى ٢٢ من المحرم سنة ٥٥٨ هـ .

ابن الصالح طلائع تولى الوزارة بوصية أبيه . يقول عمارة اليمنى فى ترجمته له : « إن الله لم يمهله إلا مدة يسيرة ، وكانت أفعال الخير فيها كثيرة ، وذلك أنه سامح الناس بالبواقى والحسبانات القديمة ، وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة . وقام عن الحاج بما يستأديه منهم أمير الحرمين ، وسير على يد الأمير شمس الخلافة إما خمسة عشر ألفا أو دونها إلى أمير الحرمين عيسى بن أبى هاشم برسم إطلاق الحاج وظفر بقتلة أبيه ظفراً عجيباً بعد تشتيتهم فى البلاد . وكان زفاف أخته إلى الخليفة العاضد فى وزارته . وحفر سرداباً تحت الأرض يوصل فيه دار الوزارة إلى دار سعيد السعداء » .

وترامت فى أيامه الحال بالأمير عز الدين حسام قريبه ، وعظم صيته ، واستولى على تدبير كثير من أمور عمه فارس المسلمين وصهره سيف الدين ، وعظم غلمان أبيه عن الوقوف عند أوامره . وفى أيامه قتل الخارجى ابن نزار ... ولم يشهد له من البأس إلا خروجه بعد عمه وسيف الدين فى نوبة غارة الإفرنج على أعمال الحوف ، فإنه أغذ السير خلف الإفرنج إلى أبى عروق . والموقف الثانى إدراكه لبهرام الغزى حين نافق طالباً الصعيد ، فإنه سرى فيمن خف معه من الجيش حتى أدرك الغز عند الفجر فقتلهم وأسرهم .

وقد خالف العادل وصية أبيه وعزل شاور عن ولاية الصعيد فخرج عليه وقدم من الصعيد عن طريق الواحات إلى أن وصل إلى تروجه بالقرب من الإسكندرية ، وتوجه إلى القاهرة ودخلها يوم الأحد الثانى والعشرين من المحرم سنة ٥٥٨ هـ .

شاور :

٢٢ من المحرم سنة ٥٥٨ هـ حتى رمضان من السنة .

أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاش بن مغيث بن حبيب ابن الحارث بن ربيعة بن مخيس بن أبى ذؤيب عبد الله وهو والد حليمة مرضع رسول الله .

أول وزير عربى الجنس يلى الوزارة من وزراء السيوف ، وكان الصالح بن رزيك قد ولاه الصعيد الأعلى ، ثم ندم على توليته ولكنه أوصى ابنه بعدم عزله لعلمه بمدى قوة شاور . ولكن ابنه خالف وصيته وعزله ، فثار عليه شاور كما رأينا واستطاع أن يحل محله فى الوزارة ويعتقله حتى قتله طى بن شاور .

يقول عمارة اليمنى : « ولما وزر جلس شاور فى دار الذهب على شط الخليج انثالت عليه وعلى ولديه طى والكامل أموال بنى رزيك وودائعهم من عند الناس حتى كان فى الناس من يتبرع بما عنده. وافترقت أمراء البرقية، فضرغام ومن معه حزب، والظهير مرتفع وعين الزمان وابن الزبير ومن معهم حزب، فأما ضرغام فكان أظهرالحزبين لأنه نائب الباب ولأنه من نفسه وإخوته وأصهاره فى جيش عظيم ، وأما نظراؤه فاختصوا بطى بن شاورفكاثروه ولا زموه إلى أن كان من خروج شاور إلى الشام وقتل ولده طى ووزارة ضرغام. فأما أخلاق شاور فى الوزارة الأولى فكانت مستورة باستمرار السلامة والطاعة والاستقامة ، ولم يكن فيها أقبح من قتل الناصر بن الصالح، فإنها سودت ما ابيض من عالى قدره وأعربت عن ضيق عطنه وحرج صدره. فأما كرم شاور فكان إليه المنتهى ، لم يكن يمسك شيئاً ولا يكنزه. وأما الحماسة وشدة البأس فهو فى موطن الموت شديد الثبات سديد الوثبات » .

وفى رمضان سنة ٥٥٨ هـ ثار ضرغام على شاور وقتل ولده طى وخرج شاور إلى الشام لاجئاً إلى نور الدين .

أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار اللخمى :

رمضان سنة ٥٥٨ هـ حتى آخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ .

من أمراء الدولة وكبار قوادها . وكان الصالح طلائع بن رزيك قد أنشأ فى وزارته أمراء يقال لهم البرقية وجعل ضرغاماً مقدمهم ، فترقى فى الخدم حتى صار صاحب الباب . ولما طرد شاور ولى الوزارة مكانه وتلقب بالملك المنصور .

يقول عمارة اليمنى فى ترجمة لضرغام : « وكانت مدة وزارته حمل الجنين تسعة أشهر سواء . وضرغام أشهر محاسن من أن يوصف ، كان فارس عصره ، وفى الكتابة وكمال الصورة وجمال المحاضرة وحيد دهره ، وكان عاقل الكرم لا يضعه إلا فى سمعة ترفعه أو مداراة تنفعه ، إلا أنه كان أذناً مستحيلا على أصحابه ، وإذا ظن بإنسان شراً جعل الظن يقيناً . وبعد زوال ما سبق إلى خاطره ، وبلى من أخيه فارس المسلمين همام بقذى الناظر وشجا الحناجر ، وفى أيامه ذهبت أمراء البرقية قتلا بسيفه صبراً ، وهم صبح بن شاهنشاه والظهير مرتفع وعين الزمان وعلى بن الزبد وأسد الغازى وأقاربهم ، وهم نحو من سبعين أميراً سوى أتباعهم ، فذهبت لذلك رجال الدولة واختلت أحوالها ، فضعفت بذهاب أكابرها وفقد أصحاب الرأى والتدبير » .

وعاد شاور بعد أن زوده نور الدين بجيش بقيادة شيركوه ، استطاع هزيمة ضرغام وقتله فى أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ .

شاور :

للمرة الثانية من رجب ٥٥٩ حتى ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ .

خلع على شاور خلع الوزارة فى مستهل رجب سنة ٥٥٩ هـ . وما إن استقر فى الوزارة حتى تنكر لشيركوه وأخل باتفاقه مع نور الدين واستعان بالصليبيين . وتلت ذلك أحداث أدت إلى تدخل نور الدين والصليبيين .

وانتهى الأمر باحتلال شيركوه مصر فى ربيع الآخرة سنة ٥٦٤ هـ وقتل شاور فى السابع عشر من الشهر المذكور .

السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأمة فخر الدولة أسد الدين كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو الحرث شيركوه العاضدى :

١٧ من ربيع الثانى **٥٦٤** حتى توفى **٢٢** أو **٢٣** من جمادى الثانية من السنة .

بعد أن قتل شيركوه شاور ، لم يجد الخليفة العاضد بدًّا من إسناد الوزارة له فهو قائد الجيش الفاتح ، يقول ابن واصل : « ولما انتظمت الأمور لأسد الدين بالديار المصرية ، أقطع البلاد للعساكر التى قدمت معه ، وصلاح الدين ابن أخيه مباشر الأمور مقررلها ، وبيده زمام الأمر والنهى » .

وشيركوه قائد كردى الجنس ، ومن أخلص أتباع نور الدين .

الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب :

٢٥ من جمادى الآخرة .

من الشخصيات الخالدة فى التاريخ عامة والتاريخ الإسلامى خاصة ، اشتهر بشجاعته وقدرته كقائد ، كما اشتهر بإنسانيته التى لم يختلف فيها حتى أعداؤه . وقد قضى صلاح الدين الجانب الأكبر من حكمه فى توحيد الجبهة الإسلامية والجهاد ضد الصليبيين . والمراجع العربية والإفرنجية حافلة بأروع الأعمال وأجل المواقف التى تنسب إلى صلاح الدين .

ولد صلاح الدين فى تكريت ، وأبوه نجم الدين أيوب قائد كردى كان فى خدمة خليفة بغداد ، ثم التحق بخدمة الأتابك زنكى وابنه نور الدين من بعده ، وقد اشترك صلاح الدين فى حملات عمه الثلاث على مصر واشتهر ذكره فى معركة البابين والدفاع عن الإسكندرية . وتحاول المراجع العربية أن تبرز موقف صلاح الدين ورفضه الالتحاق بحملة عمه الثالثة ، وأنه جاء معه مرغماً حتى يتم ما أراده القدر له .

وبعد أن مات شيركوه ، وقع اختيار الخليفة عليه ليتولى وزارته ، يقول ابن واصل : « ذكر القاضى بهاء الدين أن الوصية كانت إليه من عمه أسد الدين ،

وأنه لما فوض إليه الأمر تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد والاجتهاد ، وما عاد وما زاد إلا جداً إلى أن توفاه الله برحمته . قال : ولقد سمعته رحمه الله يقول : « لما يسر الله تعالى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك فى نفسى » .

ولقد كان موقف الوزير الشاب دقيقاً ، إذ وجد نفسه فجأة وزيراً لخليفة شيعى ، ونائباً لملك سنى ، يضغط عليه للقضاء على تلك الدولة الشيعية والعودة بمصر إلى المذهب السنى والخلافة العباسية . ولقد استطاع صلاح الدين أن يكسب ود الأهالى بكرمه وشخصيته العظيمة ، واستعان بمن يثق فيهم فى إدارة شئون الحكم . ولما قامت العناصر السودانية بثورتها استطاع بمجهود شاق أن يقضى عليها ، وبذلك أصبح القصر فى قبضته ، كما تمكن عقب هذه الثورة أن يرد هجمات الصليبيين على دمياط ، وانتصر عليهم انتصاراً رائعاً واضطرهم إلى طلب الصلح . وقد كانت هذه الحملة نقطة تحول فى الصراع مع الصليبيين فمنذ ذلك الوقت أصبحت مملكة القدس تقف موقف الدفاع بدلا من الهجوم الذى كان طابعها من قبل .

وفى أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ كتب صلاح الدين نهاية المذهب الإسماعيلى فى مصر إذ قطعت الخطبة للعاضد ، وخطب للخليفة العباسى . وبعدها بأيام قليلة مات العاضد ، وبموته طويت صفحة الدولة الفاطمية .

وأصبح صلاح الدين حاكم مصر وبدأت الدولة الأيوبية .

الملاحق

الملحق رقم : ١

المؤلفات التى ألفها الوزراء
والمؤلفات التى ألفت لهم ومؤلفوها

الملحق رقم : ٢

جنسيات الوزراء ودياناتهم

الملحق رقم : ٣

ترتيب الوزراء ومدة حكم كل منهم
دراسة تحليلية للملحقين ٢ و ٣

ملحق رقم (١)

المؤلفات التى ألفها الوزراء والمؤلفات التى أُلفت لهم ومؤلفوها

الوزير	مؤلفاته	الكتب التى ألفت له ومؤلفوها
يعقوب بن كلس	١ – كتاب فى القراءات ٢ – كتاب فى علم الأبدان وخلاصها . ٣ – كتاب فى الأديان . ٤ – كتاب فى الآداب . رسول الله . ٥ – كتاب فى الفقه الإسماعيلى وهو المعروف بالرسالة الوزيرية ضمنه ماسمعه من المعز والعزيز . وجميع هذه المؤلفات قد فقدت فيما عدا الرسالة الوزيرية .	(ا) الحسن بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلى . – كتاب الأسجاع . (ب) أبوعبدالله محمد بن سعيد التميمى المقدس الطبيب . – مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء . – كتاب تخليص النفوس . – الفحص والأخبار . – ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه .
ابن سديد الدولة الماشلى .	يذكر المقريزى وابن الصيرفى أن له كتباً مستحسنة ورسائل مدونة ولا يعرف أسماء هذه الكتب أو الرسائل .	
الأفضل	له بعض الشعر الجيد . وقد أورد ابن ميسر ، « أخبار مصر » ص ٦٠ ، بعضاً منه .	أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى المصرى . – كتاب الإيجاز فى معرفة ما فى القرآن من ناسخ ومنسوخ .
المأمون	–	(ا) أبو بكر محمد الطرطوشى . – سراج الملوك . (ب) يوسف بن حسداى الطبيب – الشرح المأمونى.

الوزير	مؤلفاته	الكتب التى ألفت له ومؤلفوها
		وهو شرح لكتاب الإيمان لأبقراط . جـ) على بن منجب الصيرفى ـــ الإشارة إلى من نال الوزارة .
أبو على أحمد بن الأفضل		على بن منجب الصيرفى . ـــ قانون ديوان الرسائل .
الصالح طلائع بن رزيك	١ ـــ ديوان طلائع ابن رزيك ويحوى شعر الصالح . ٢ ـــ الاعتماد فى الرد على أهل العناد وهو كتاب فى فقه الشيعة يتضمن الأحاديث الواردة فى إمامة على بن أبى طالب .	
شاور	ـــ	أبو عبد الله محمد بن سعد القرطى . ـــ تاريخ مصر .

ملحق رقم (٢)

جنسيات الوزراء ودياناتهم

الوزير	الجنسية	الديانة	المذهب [١]	ملاحظات
يعقوب بن كلس	عراقى	يهودى أسلم	إسماعيلى	
جبر بن القاسم	مغربى	مسلم	إسماعيلى	
على بن عمر العداس	مغربى ويرجح أنه مصرى	مسلم	إسماعيلى	رجحنا أنه مصرى إذ يذكر ابن الأثير فى «اللباب فى تهذيب الأنساب» أن العداس نسبة إلى العدس وأنه اشتهر بهذه النسبة أبو محمد الحسن بن على ابن موسى العداس المصرى المتوفى سنة ٣٢٤هـ لذلك يغلب أن يكون الوزير من نفس هذه العائلة .
أبو الفضل جعفر بن الفرات	عراقى	مسلم	سنى	
عيسى بن نسطورس	مصرى	نصرانى		
الحسن بن عمار	مغربى	مسلم	إسماعيلى	
أبو الفتوح برجوان	صقلبى	مسلم	إسماعيلى	
الحسين بن جوهر	رومى الأصل مغربى أومصرى المولد	مسلم	إسماعيلى	
فهد بن إبراهيم	مصرى	نصرانى		
صالح بن على الرزبارى	عراقى	مسلم	إسماعيلى	

(١) بالنسبة لمذهب الوزراء المسلمين الذين لم تذكر المراجع مذاهبهم رجحنا أنهم إسماعيليو المذهب لأن الفاطميين ألزموا فى أول الدولة جميع الموظفين أن يعتنقوا المذهب الإسماعيلى . كما أن الرغبة فى الحصول على مناصب الدولة دفعت بفريق من السنيين إلى التحول إلى المذهب الشيعى ، كما دفعت تلك الرغبة أيضاً بعض الذميين إلى اعتناق الإسلام واتخاذ التشيع مذهباً لهم .

الوزير	الجنسية	الديانة	المذهب	ملاحظات
منصور بن عبدون	مصرى	نصرانى		
أحمد بن محمد القشيرى	عراقى	مسلم	إسماعيلى	نسبة إلى قبيلة بالبصرة ، ابن الأثير ، « اللباب فى تهذيب الأنساب » .
زرعة بن عيسى بن نسطورس	مصرى	نصرانى		
الحسين بن طاهر الوزان	فارسى	مسلم	إسماعيلى	يقول ابن الأثير ، « اللباب » وبيت الوزان بالرى بيت العلم والفضل.
الحسن وعبد الرحمن ابنا أبى السيد		مسلمان	إسماعيليان	
الفضل بن جعفر بن الفرات	مصرى المولد	مسلم		لعله ظل سنيا كأبيه .
على بن جعفر بن فلاح	مغربى	مسلم	إسماعيلى	
صاعد بن عيسى بن نسطورس	مصرى	نصرانى		
المسعود بن طاهر الوزان	فارسى	مسلم	إسماعيلى	
عمار بن محمد		مسلم	إسماعيلى	
موسى بن الحسن		مسلم	إسماعيلى	
الحسن بن حسن الروزبارى	عراقى الأصل	مسلم	إسماعيلى	يحتمل أن يكون مصرى المولد حيث كان أبوه من كبار رجال الدولة.
على بن أحمد الجرجرائى	عراقى	مسلم	إسماعيلى	
الحسن بن على الأنبارى		مسلم	إسماعيلى	قديكون عراقى الأصل نسبة إلى الأنبار بلدة قديمة على عشرة فراسخ من بغداد .
صدقة بن يوسف الفلاحى	غير مصرى	يهودى أسلم	إسماعيلى	لم يكن الفلاحى مصريا ولكن لا نعلم جنسيته . فيذكر المقريزى ، : «م. اتعاظ الحنفا» ١٧٤ عن الفلاحى ، أنه فى صفر ٤١٥ هـ تسلم ديوان

الوزير	الجنسية	الديانة	المذهب	ملاحظات
				الكتاميين القائد عز الدولة معضاد ، فاستخدم فى تدبير أمواله أبا اليسر مينا الأسيوطى شركة بينه وبين صدقة بن يوسف الفلاحى اليهودى الوارد. ولكنه لم يذكر من أين جاء .
الحسين بن عماد الدولة الجرجرائى	عراقى	مسلم	إسماعيلى	
صاعد بن مسعود				لم تذكر المراجع جنسيته ولا ديانته .
الحسن بن على اليازورى	فلسطينى	مسلم	سنى	
عبد الله بن محمد البابلى		مسلم		لم تذكر المراجع جنسيته ولا مذهبه، كما أننا لا نرجح أنه إسماعيلى المذهب لأن الدولة دخلت فى طور من الضعف لم تعد فيه تحتم اعتناق المذهب الإسماعيلى
محمد بن جعفر المغربى	مصرى المولد	مسلم		رجحنا أنه مصرى المولد لأن عمه الحسين بن على بن الحسين المغربى ولد فى مصر سنة ٣٧٠هـ انظر ابن تغرى بردى ، «النجوم» ج٤ ص٢٦٦ ولا نعلم مذهبه .
عبد الله بن يحيى المدبر	مصرى	مسلم		ذكر أنه مصرى لأنه من ولد ابن المدبر متولى خراج مصر أيام ابن

الوزير	الجنسة	الديانة	المذهب	ملاحظات
				طولون فعائلته موجودة بمصر منذ ذلك الوقت.
عبد الكريم بن عبد الحاكم ابن السعيد الفارقى	مصرى	مسلم	إسماعيلى	الفارقى نسبة إلى ميافارقين ابن الأثير ، «اللباب» ولكنا ذكرنا أنه مصرى لأنه من ولد مالك بن سعيد الفارقى قاضى قضاة الحاكم وصاحب دعوته منذ سنة ٣٩٧هـ فهو إذن مصرى المولد إسماعيلى المذهب .
أحمد بن عبد الحاكم الفارقى	مصرى	مسلم	إسماعيلى	
على بن محمد بن عيسى الماشلى		مسلم		ربما كان شاميا إذ يذكر ابن الصيرفى «الإشارة» ص٤٩ . وكانت إقامته بدمشق واستدعى للوزارة ولم تذكر المراجع مذهبه
أحمد بن عبد الكريم الفارقى	مصرى	مسلم	إسماعيلى	لم تذكر المراجع جنسيته
عبد الظاهر بن الفضل بن العجمى		مسلم	إسماعيلى	أما كونه إسماعيلى فإن جده الموفق فى الدين كان من دعاة الدولة ..
الحسن بن مجلى بن كدينة		مسلم		لم تذكر المراجع عما إذا كان مصرى المولد من عدمه إلا أنه فارسى الأصل، لأنه من ولد عبد الرحمن بن ملجم انظر ابن الصيرفى ، « الإشارة »ص ٥١ .
المشرف بن سعد أبن عقيل		مسلم		لم تذكر المراجع جنسيته ولا مذهبه .

الوزير	الجنسية	الديانة	المذهب	ملاحظات
إبراهيم التسترى الحسن بن أبى سعد	مصرى المولد	يهودى وأسلم	إسماعيلى	
محمد بن محمد بن على بن خلف	عراقى الأصل وقد يكون مصرى المولد	مسلم	إسماعيلى	يقول ابن الصيرفى ، « الإشارة » ص ٥٣ إنه من رؤساء العراقيين وكان أبوه وزيراً لبهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة فناخسرو ابن بويه ، كما أن جده على بن خلف من كتاب ديوان الإنشاء فى الدولة الفاطمية . لذلك قد يكون الوزير المذكور إما ولد فى مصر فيكون مصرى المولد أو ولد فى العراق حيث وزر والده .
هبة الله بن محمد الرعبانى	غير مصرى	مسلم		يقول ابن الصير ، « الإشارة » ص ٥٢ إنه من الطارئين على مصر ، ولكنه لم يذكر من أين جاء . كما لا نعرف مذهبه .
أبو الحسن على بن الأنبارى		مسلم	إسماعيلى	رجحنا أنه إسماعيلى لأنه كان من خلصاء المؤيد فى الدين داعى الدعاة وجعله نائباً عنه فى ديوان الإنشاء الشامى .

الوزير	الجنسية	الديانة	المذهب	ملاحظات
الحسن بن سديد الدولة الماشلى		مسلم		نرجح كما رجحنا بالنسبة لأخيه أنه كان شاميا كما أنه أيضاً عندما عزل من الوزارة عاد إلى الشام مع أخيه .
طاهر بن وزير	شامى	مسلم		يذكر ابن الصيرفى ، « الإشارة» ص ٥٣ أنه من أهل طرابلس الشام ولكنه لم يذكر مذهبه كما لم يذكر غير ذلك .
محمد بن حامد التنيسى	مصرى	مسلم		
منصور بن مكرواه	مصرى	نصرانى وأسلم فى وزارته	إسماعيلى	يقول ابن الصيرفى ، « الإشارة »ص ٥٤ إن النصارى ينكرون إسلامه.
عبد الغنى بن سعيد الضيف		مسلم		
عبد الحاكم المليجى	مصرى	مسلم		نسبة إلى مليج قرية بدلتا مصر
خطير الملك محمد بن اليازورى	فلسطينى	مسلم	ربما كان سنيا كأبيه	
أبو النجم بدر المستنصرى	أرمنى	مسلم	شيعى إمامى	
الأفضل بن بدر الجمالى	أرمنى	مسلم	شيعى إمامى	
المأمون البطائحى	عراقى	مسلم	شيعى إمامى	ولكن سبط بن الجوزى ، « مرآة الزمان» ج ١٢ — ٣ ورقة ٣٠٧ أن المأمون كان على مذهب القوم أى إسماعيليًّا .
أحمد بن الأفضل بن بدر	أرمنى الجنس مصرى المولد	مسلم	شيعى إمامى	يؤكد أنه مصرى ما ذكره ابن تغرى بردى «النجوم» ج ٥ ص ٢٤٧ «أبو على أحمد بن الأفضل بن

الوزير	الجنسية	الديانة	المذهب	ملاحظات
				بدر الجمالى الأرمنى ثم المصرى .
أبو الفتح يانسى الأرمنى	أرمنى	مسلم	إسماعيلى	
أبو المظفر بهرام الأرمنى	أرمنى	نصرانى		
رضوان بن الولخشى		مسلم	سنى مالكى	
سليم بن مصال اللكى	برقى	مسلم	إسماعيلى	
على بن إسحق بن السلار	كردى	مسلم	سنى شافعى	
عباس بن يحيى بن باديس	مغربى	مسلم	سنى	رجحنا أنه سنى لأنه من نسل بنى باديس ملوك المغرب الذين قضوا على المذهب الإسماعيلى بالمغرب . كما أنه ربيب ابن السلار السنى الشافعى إلى جانب أن عباساً كان دائم القدح فى خلفائهم فيذكر ابن فضل الله العمرى ، « مسالك الأبصار » ج ١٥ قسم ١ ص ٦٥ أنه كان يقول : تبا لمن يعتقد فى إمامة هؤلاء أى الخلفاء الفاطميين .
طلائع بن رزيك	أرمنى	مسلم	شيعى إمامى	
رزيك بن طلائع	أرمنى الأصل ويرجح أنه مصرى المولد	مسلم	شيعى إمامى	
شاور بن مجير السعدى	عربى	مسلم		
ضرغام بن عامر بن سوار اللخمى	عربى	مسلم		نسبة إلى قبيلة لخم من اليمن .
أسد الدين شيركوه	كردى	مسلم	سنى شافعى	
صلاح الدين الأيوبى	كردى	مسلم	سنى شافعى	

جدول إحصائى

عدد الوزراء	مصريون	غير مصريين	غير معروف جنسيتهم	مسلمون	ذميون أسلموا	ذميون
٦٥	١٨	٣١	١٦	٥٥	٤	٦

ملحق رقم (٣)

ترتيب الوزراء ومدة حكم كل منهم

خلافة العزيز بالله ٣٦٥ – ٣٨٦ هـ = ٩٧٦ – ٩٩٦ م

الوزير والمدة	مدة الحكم
يعقوب بن كلس أول المحرم ٣٦٧ – شوال ٣٧٣	ست سنوات وتسعة أشهر
جبر بن القاسم شوال ٣٧٣ – المحرم ٣٧٤	ثلاثة أشهر
يعقوب ابن كلس المحرم ٣٧٤ – ٥ من ذى الحجة ٣٨٠	ست سنوات و ١١ شهراً
على بن عمر العداس ذى الحجة ٣٨٠ – المحرم ٣٨٢ سنة	سنة
جعفر بن الفضل بن الفرات ٣٨٢ – ٣٨٣	سنة
عيسى بن نسطورس ٣٨٣ رمضان – ٣٨٦	٣ سنوات

خلافة الحاكم بأمر الله ٣٨٦ – ٤١١ هـ = ٩٩٦ – ١٠٢٠ م

الوزير والمدة	مدة الحكم
الحسن بن عمار ٣ من شوال ٣٨٦ – ٢٧ من شعبان ٣٨٧	١١ شهراً
أبو الفتوح برجوان ٢٧ من شعبان ٣٨٧ – ٢٦ من ربيع الآخر ٣٩٠	سنتان وثمانية أشهر
الحسين بن جوهر ٣ من جمادى الأولى ٣٩٠ – ٧ من شعبان ٣٩٨	٨ سنوات و ٣ أشهر

ومعه :

فهد بن إبراهيم
٣ من جمادى الأولى ٣٩٠ — ٨ من جمادى الآخرة ٣٩٣ ٣ سنوات

ثم على بن عمر الحداسى
٨ من جمادى الآخرة ٣٩٣ — رجب ٣٩٣ ٢٩ يوماً

صالح بن على الروزبارى
٧ من شعبان ٣٩٨ — ١١ من صفر ٤٠٠ سنة و ٦ أشهر

منصور بن عبدون
١١ من صفر ٤٠٠ — ٤ من المحرم ٤٠١ سنة إلا أياماً

أحمد بن محمد القشيرى
٤ من المحرم ٤٠١ — ١٤ من المحرم ٤٠١ عشرة أيام

زرعة بن عيسى بن نسطورس
المحرم ٤٠١ — صفر ٤٠٣ سنتان

الحسين بن طاهر الوزان
١٩ من ربيع الأول ٤٠٣ — جمادى الاخرة ٤٠٥ سنتان و ٣ أشهر

الحسين وعبد الرحمن ابنا أبى السيد
١٣ من شعبان ٤٠٥ — ١٥ من شوال ٤٠٥ ٦٢ يوماً

الفضل بن جعفر بن الفرات
٢ من ذى العقدة ٤٠٥ — ٦ من ذى القعدة ٤٠٥ ستة أيام

على بن جعفر بن فلاح
شوال ٤٠٦ — ٤٠٩ ٣ سنوات وأشهر

صاعد بن عيسى بن نسطورس :
شوال ٤٠٩ — ذو الحجة ٤٠٩ أقل من ٣ أشهر

المسعود بن طاهر الوزان
ذو الحجة ٤٠٩ — جمادى الآخرة ٤١١ سنة وستة أشهر

عمار بن محمد
جمادى الآخرة ٤١١ مستمر

خلافة الظاهر لإعزاز دين الله ٤١١ ــ ٤٢٧ هـ = ١٠٢٠ ــ ١٠٣٥ م

عمار بن محمد		
	مستمر ذو الحجة ٤١٢	سنة وخمسة أشهر
موسى بن الحسين		
	المحرم ٤١٣ ــ ٢٠ من شوال ٤١٣	تسعة أشهر
المسعود بن طاهر الوزان		
	المحرم ٤١٤ ــ ذوالحجة ٤١٥	سنتان
الحسن بن صالح الروزبارى		
	٤١٦ ــ ٤١٨	حوالى السنتين
على بن أحمد الجرجرائى		
	١٢ ذو الحجة ٤١٨ مستمر	

خلافة المستنصر بالله ٤٢٧ ــ ٤٨٧ هـ = ١٠٣٦ ــ ١٠٩٤ م

على بن أحمد الجرجرائى		
	مستمر ــ ٦ من رمضان ٤٣٦	١٧ سنة و ٨ أشهر وأيام
الحسن بن على الأنبارى		
	٦ من رمضان ٤٣٦ ــ ١٠ من رمضان ٤٣٦	أربعة أيام
صدقة بن يوسف الفلاحى		
	١١ من رمضان ٤٣٦ ــ ٤٣٩	سنتان وأشهر
الحسين بن عماد الدولة الجرجرائى		
	٤٣٩ ــ منتصف شوال ٤٤١	سنة و ٩ أشهر وأيام
صاعد بن مسعود		
	شوال ٤٤١ ــ ٦ من المحرم ٤٤٢	حوالى ٣ أشهر
الحسن بن على اليازورى		
	٧ من المحرم ٤٤٢ ــ أول المحرم ٤٥٠	ثمان سنوات
عبد الله بن محمد البابلى		
	المحرم ٤٥٠ ــ ربيع الأول ٤٥٠	شهران و ١٤ يوماً

محمد بن جعفر بن الحسين المغربى
٢٥ من ربيع الآخر ٤٥٠ — ٩ من رمضان ٤٥٢ سنتان و ٤ أشهر وأيام

عبد الله بن محمد البابلى (ثانية)
٩ من رمضان ٤٥٢ — ٣ من المحرم ٤٥٣ أربعة أشهر

عبد الله يحيى بن المدبر
٣ من المحرم ٤٥٣ — رمضان ٤٥٣ تسعة أشهر

عبد الكريم بن سعيد الفارقى
رمضان ٤٥٣ — المحرم ٤٥٤ ثلاثة أشهر

أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى
المحرم ٤٥٤ — ربيع الأول ٤٥٤ حوالى ٣ أشهر

الحسين بن على الماشلى
ربيع الأول ٤٥٤ — ٢ من شعبان ٤٥٤ حوالى ٥ أشهر

عبد الله البابلى (ثالثة)
شعبان ٤٥٤ — المحرم ٤٥٥ حوالى ٥ أشهر

أحمد بن عبد الكريم الفارقى
١٣ من المحرم ٤٥٥ — ١٧ من صفر ٤٥٥ شهر وأيام

عبد الله بن المدبر (ثانية)
صفر أو ربيع الأول ٤٥٥ — ١٩ من جمادى الأولى ٤٥٥ ٣ أشهر وأيام

عبد الظاهر بن العجمى
١٩ من جمادى الأولى ٤٥٥ — ٢٧ من شعبان ٤٥٥ ٣ أشهر وأيام

مجلى بن أسد بن كدينة
شعبان ٤٥٥ — ٥ من ذى الحجة ٤٥٥ حوالى ٣ أشهر

أحمد بن عبد الكريم الفارقى (ثانية)
٥ من ذى الحجة ٤٥٥ — ١٣ من المحرم ٤٥٦ شهر وأيام

المشرف بن أسعد بن عقيل
١٣ من المحرم ٤٥٦ — ٢٧ من ربيع الآخر ٤٥٦ ٣ أشهر وأيام

عبد الظاهر العجمى (ثانية)
ربيع الآخر ٤٥٦ — رجب ٤٥٦ شهران وأيام

الحسين بن عماد الدولة الجرجرائى (ثانية)
مستهل رجب ٤٥٦ — العشر الأخير من رمضان سنة ٤٥٦ حوالى ٣ أشهر

ابن كدينة (ثانية)
أواخر رمضان ٤٥٦ — ٤ من ذى الحجة ٤٥٦ شهران و أيام

الحسن بن إبراهيم التسترى
٤ من ذى الحجة ٤٥٦ — منتصف المحرم ٤٥٧ شهر وأيام

محمد بن محمد بن على بن خلف
١٦ من المحرم ٤٥٧ — ١٧ من المحرم ٤٥٧ يوم واحد

ابن كدينة (ثالثة)
١٧ من المحرم ٤٥٧ — ٢١ من المحرم ٤٥٧ أربعة أيام

محمد بن خلف (ثانية)
٢١ من المحرم ٤٥٧ — منتصف ربيع الأول ٤٥٧ أقل من شهرين

هبة الله بن محمد الرعيانى
منتصف ربيع الأول ٤٥٧ — آخر ربيع الأول ٤٥٧ عشرة أيام

ابن كدينة (رابعة)
ربيع الآخر ٤٥٧ — منتصف رجب ٤٥٧ شهر ونصف

المشرف بن أسعد بن عقيل (ثانية)
منتصف رجب ٤٥٧ — العشر الأخير من شوال سنة ٤٥٧ ٣ أشهر وأيام

أبو الحسن على بن الأنبارى
ذو القعدة ٤٥٧ — ذو الحجة ٤٥٧ شهر

ابن كدينة (خامسة) ذو الحجة ٤٥٧ — ٢٦ صفر ٤٥٨ حوالى الشهرين

هبة الله بن محمد الرعيانى (ثانية)
٩ من ربيع الآخر ٤٥٨ — ١٦ من ربيع الآخر ٤٥٨ سبعة أيام

أحمد بن عبد الكريم الفارقى (ثالثة)
٤ من جمادى الآخرة ٤٥٨ — جمادى الآخرة أيام

الحسن بن على بن محمد الماشلى
٤٥٨ — ٤٥٨ أيام

محمد بن على بن خلف (ثالثة)
٤٥٨ — ٤٥٨ أيام

طاهر بن وزير

٤٥٨ — ٤٥٨ أيام

محمد بن حامد التنيسى

٤٥٨ — ٤٥٨ يوم واحد

منصور بن مكرواه بن زنبور

٤٥٨ — ٤٥٨ أيام

عبد الغنى بن نصر الضيف

٤٥٨ — ٤٥٨ أيام

ابن كدينة (سادسة)

— ٨ من المحرم ٤٥٩ أيام وأشهر قلائل

عبد الحاكم المليجى

٨ من المحرم ٤٥٩ — ٧ من جمادى الآخرة ٤٥٩ ٥ أشهر

ابن كدينة (سابعة)

٤٥٩ — ٤٥٩ أيام

عبد الحاكم المليجى (ثانية)

٤٥٩ — ٤٥٩ أيام

ابن كدينة (ثامنة)

٤٥٩ — ٢٨ من ذى القعدة ٤٥٩ مدة يسيرة غير محددة

أحمد عبد الكريم الفارقى (رابعة)

٢٨ ذى القعدة ٤٥٩ — ٤٥٩ أقل من شهرين

ابن كدينة (تاسعة)

المحرم ٤٦٠ — يرجح صفر ٤٦٠ حوالى الشهر

المليجى (ثالثة)

صفر ٤٦٠ — صفر ٤٦٠ خمسة أيام

ابن كدينة (عاشرة)

ربيع الأول ٤٦٠ — جمادى الأولى ٤٦٠ حوالى الشهرين

أحمد بن عبد الكريم الفارقى (خامسة)

جمادى الأولى ٤٦٠ — ١٠ من ذى الحجة ٤٦٠ حوالى ٨ أشهر

ابن كدينة (حادى عشرة)		
١٠ من ذى الحجة ٤٦٠ — ٢٣ من صفر ٤٦١		شهران وأيام
خطير الملك محمد بن اليازورى		
صفر ٤٦١ — ٤٦١		مدة يسيرة
محمد بن جعفر المغربى (ثانية)		
٤٦١ — رمضان ٤٦١		مدة يسيرة
أحمد بن عبد الكريم الفارقى (سادسة)		
رمضان ٤٦١ — رمضان ٤٦١		أيام
خطير الملك اليازورى (ثانية)		
رمضان ٤٦١ — شوال ٤٦١		حوالى الشهر
ابن كدينة (ثانى عشرة)		
شوال ٤٦١ — ذو القعدة ٤٦١		حوالى الشهر
المليجى (رابعة)		
ذو القعدة ٤٦١ —		مدة غير معلومة
ابن كدينة (ثالث عشرة)		
ربيع الأول ٤٦٤ — إلى آخر ٤٦٤		حوالى ١٠ أشهر
ابن العجمى (ثالثة)		
٤٦٥ — رجب ٤٦٥		أشهر
ابن كدينة (رابع عشرة)		
ربيع الأول ٤٦٦ — جمادى الأولى ٤٦٦		حوالى الشهرين
بدر الجمالى		
٢٨ من جمادى الأولى ٤٦٦ — ربيع الآخر ٤٨٧		٢١ سنة وأشهر
الأفضل بن بدر الجمالى		
ربيع الأول ٤٨٧ مستمر		

خلافة المستعلى بالله ٤٨٧ — ٤٩٥ ﻫ = ١٠٩٤ — ١١٠٢ م

الأفضل مستمر

خلافة الآمر ٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ = ١١٠٢ ـ ١١٣٠ م

الأفضل
مستمر آخر رمضان ٥١٥ — ٢٨ سنة ونصف

المأمون البطائحي
شوال ٥١٥ — ٤ من رمضان ٥١٩ — ٤ سنوات

الآمر بدون وزراء حتى وفاته

خلافة الحافظ لدين الله ٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ = ١١٣٠ ـ ١١٤٩ م

أبو علي أحمد بن الأفضل
١٥ من ذي القعدة ٥٢٤ ـ ١٦ من المحرم ٥٢٦ — سنة وشهران

أبو الفتح يانس الأرمني
١٦ من المحرم ٥٢٦ — ٢٦ من ذي الحجة ٥٢٦ — سنة وأيام

الحافظ دون وزراء حتى سنة ٥٢٩ هـ .

بهرام الأرمني
١١ من جمادى الآخرة ٥٢٩ ـ ١١ من جمادى الأولى ٥٣١ — سنتان إلا أياما

رضوان بن الولخشي
١١ من جمادى الأولى ٥٣١ ـ ١٤ من شوال ٥٣٣ — سنتان و ٥ أشهر

سليم بن مصال اللكي (وزير تنفيذ)
٥٣٤ — ٥٤٢ — ثمان سنوات

الحافظ دون وزراء حتى وفاته .

خلافة الظافر بالله ٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ = ١١٤٩ ـ ١١٥٤ م

سليم بن مصال اللكي (وزير سيف)
جمادى الآخرة ٥٤٤ ـ ١٤ من شعبان ٥٤٤ — حوالي شهرين

علي بن إسحق بن السلار
١٥ من شعبان ٥٤٤ ـ ٦ من المحرم ٥٤٨ — ثلاث سنوات و ٧ أشهر

عباس بن باديس الصنهاجي
١٢ من المحرم ٥٤٨ ـ مستمر

خلافة الفائز بنصر الله ٥٤٩ ــ ٥٥٥ هـ = ١١٥٤ ــ ١١٦٠ م

عباس بن باديس
مستمر ١٩ من ربيع الأول ٥٤٩ — سنة وشهران

طلائع بن رزيك
١٩ من ربيع الأول ٥٤٩ مستمر

خلافة العاضد بالله ٥٥٥ ــ ٥٦٧ هـ = ١١٦٠ ــ ١١٧٢ م

طلائع بن رزيك
مستمر ١٩ من رمضان ٥٥٦ — سبع سنوات

رزيك بن طلائع
١٩ من رمضان ٥٥٦ ــ ٢٢ من المحرم ٥٥٨ — سنة و٤ أشهر

شاور بن مجير السعدى
٢٢ من المحرم ٥٥٨ ــ رمضان ٥٥٨ — ثمانية أشهر

ضرغام بن عامر اللخمى
رمضان ٥٥٨ ــ آخر جمادى الآخرة ٥٥٩ — تسعة أشهر

شاور بن مجير السعدى (ثانية)
رجب ٥٥٩ ــ ١٧ من ربيع الآخر ٥٦٤ — ٤ سنوات و٨ أشهر

أسد الدين شيركوه
١٧ من ربيع الآخر ٥٦٤ ــ ٢٣ من جمادى الآخرة ٥٦٤ — شهران وأيام

صلاح الدين يوسف بن أيوب
٢٥ من جمادى الآخرة ٥٦٤ ــ المحرم ٥٦٧ — سنتان ونصف كوزير ثم استقل بالسلطنة .

دراسة تحليلية للملحقين ٢ ، ٣

بدراسة الملحقين الثانى والثالث الخاصين بجنسيات الوزراء وديانتهم ومدد حكمهم يمكن أن نخرج ببعض الحقائق التى تلقى الضوء على كثير من الأحداث التى فرضت وجودها وتعرضت لها الدولة الفاطمية ، كما أنها من ناحية أخرى تعطى المقدمات لكثير من النتائج ، فمن ذلك :

أولا : أن الفاطميين برغم أنهم فى أول الدولة ألزموا جميع الموظفين على اعتناق المذهب الإسماعيلى ، فإنهم فى أغلب الفترات كانت سياستهم مبنية على التسامح الدينى حتى إن الوزراء وهم أكبر موظفى الدولة لم يكونوا كلهم مسلمين فكان منهم الذميون حتى بين وزراء السيوف كما لم يكن كل المسلمين إسماعيلى المذهب . فكان منهم السنيون أو من الشيعة الإمامية خصوصاً بين وزراء السيوف الذين أصبحوا المتصرفين الحقيقيين فى شئون الدولة وأصبح القضاة والدعاة نواباً عنهم .

ونلاحظ أن عدد من تولى الوزارة خمسة وستون وزيراً ، منهم خمسة وخمسون مسلماً وستة ذميين وأربعة أسلموا قبل أو أثناء وزارتهم .

ثانياً : كان معظم الوزراء الذميين وهم من المسيحيين يتعصبون لأبناء دينهم فيعينوهم فى مختلف الوظائف التى يبعدون المسلمين عنها . وقد أدت هذه السياسة إلى شكوى المسلمين وقيام كثير من الأحداث التى أدت إلى تدخل الخلفاء أو قيام حروب أهلية . فالخليفة العزيز اضطر إلى القبض على عيسى بن نسطورس بعد ما عمت الشكوى من تحيزه لأبناء دينه ولم يطلقه إلا بعد أن شفعت له ابنة الخليفة وبعد أن دفع الأموال إلى خزينة الخليفة ،ولم يعد إلى خدمة الدولة إلا بعد أن شرط عليه استخدام المسلمين . كما أن الخليفة الحاكم أمر بقتل فهد بن إبراهيم بعد اتهامه بأنه آفة على المسلمين عدة للنصارى .

وبهرام وزير الحافظ استكثر من أبناء جنسه ودينه من الأرمن حتى كثر

عددهم ، وصار كل رئيس منهم يبنى كنيسة إلى جانب داره حتى هددوا المسلمين فى دينهم .

وكان لهذه السياسة أثر مضاد ، فكثيراً ما كان الوزراء المسلمون الذين يخلفون وزراء من النصارى يتخذون إجراءات مضادة ضد النصارى ، كما حدث فى وزارة أبى محمد الحسن بن عمار الذى وزر بعد عيسى بن نسطورس . وكما حدث من قيام رضوان بن الولخشى تحت تشجيع الرأى العام المسلم بحشد الجيوش وطرد بهرام من الوزارة ثم طرد جميع النصارى من وظائف الدولة علاوة على الإجراءات التى اتخذت ضد المواطنين من النصارى .

ثالثاً : وكما أن الفاطميين لم يتقيدوا كثيراً بديانة وزرائهم فإنهم لم يتقيدوا كذلك بجنسياتهم ، فوزر لهم وزراء من جنسيات مختلفة . فكان من بين وزراء الأقلام ستة عشر وزيراً من المصريين وباقيهم من جنسيات مختلفة . وكان كثير من وزراء السيوف من الأرمن الذين لعبوا دوراً هامًّا فى حياة الدولة ، كما أننا نلاحظ أنه ليس بين وزراء السيوف أى وزير مصرى إلا إذا اعتبرنا أحمد بن الأفضل ورزيك بن طلائع ، الأرمنيين الأصل ، مصريين بالمولد .

رابعاً : أن فترات الاستقرار السياسى والاقتصادى هى الفترات التى ظل فيها الوزير فى الحكم مدة طويلة ، بخلاف الفترات الأخرى التى تعرضت فيها البلاد لهزات سياسية أو حروب أهلية ومجاعات ، فنجد أن الوزراء لم يمكثوا إلا مدداً قصيرة جدًّا .

ومن أمثلة النوع الأول ابن كلس والجرجرائى واليازورى فى النصف الأول للدولة وبدر الجمالى وابنه الأفضل والمأمون وطلائع بن رزيك فى النصف الثانى . فإن البلاد كانت فى حالة رخاء واستقرار نتيجة بقاء الوزراء مدداً طويلة فى الحكم.

فى حين أنه فى حكم الحاكم مثلا والفترة الأخيرة من حكم المستنصر كانتا فترتى اضطراب سياسى ، فكان الوزراء يتساقطون كأوراق الخريف . أما فى أواخر حكم الدولة فقد تميز بالصراع بين الوزراء والطامعين فى الوزارة وأصبحت

مدة بقاء كل وزير تتوقف على مدى سيطرته على الأمور ومقدرته فى القضاء على محاولات منافسيه .

خامسا : من الأشياء الملفتة للنظر ، تولى أكثر من فرد من أفراد أسرة واحدة للوزارة مثل عيسى بن نسطورس وأولاده وآل الوزان والغافقى من وزراء التنفيذ . وأسرة بدر الجمالى والصالح طلائع بن رزيك من وزراء السيف . كما نلاحظ أن الوزارة فى عهد وزراء السيوف أصبحت كملك وراثى فى بعض الأحيان ، فبدر الجمالى يجعل ابنه الأفضل ولى عهده ، ونرجح أنه لولا قتل الأفضل أو ربما كراهيته لأولاده ، هى التى منعت من تعيين أحد هؤلاء الأبناء وليًّا لعهده . كذلك الصالح بن رزيك الذى جعل ابنه رزيك وليًّا لعهده وتولى الوزارة بعد قتل أبيه . وشاور أشرك ابنه الكامل معه فى الحكم ، ولو سارت الأمور على ما يشتهى لوزر بعد أبيه .

بل إن الأطماع حدت ببدر الجمالى والصالح رزيك إلى أكثر من ذلك فنراهما يصهران إلى الخلفاء ، فبدر يزوج ابنته لأحد أبناء المستنصر الذى أصبح خليفة باسم المستعلى ، والصالح طلائع يزوج ابنته للخليفة العاضد . ولعل الآمال كانت تراودهما فى نقل الخلافة لأسباطهما .

سادسا : فى فترات عدم الاستقرار خصوصاً فى أواخر عهد المستنصر نرى أسماء معينة تتولى الوزارة أكثر من مرة ، كما أن الوزير عندما يترك الوزارة يتولى عملا آخر وهى سابقة لم تحدث من قبل .

* * *

المراجع

١ ـ المراجع العربية

(ا) المخطوطات

١ – ابن أيبك (أبو بكر بن عبيد الله أيبك صاحب صرخد) توفى بعد سنة ٧٣٥ هـ – « تاريخ كنز الدرر » وهو الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية الجزء السادس القسم الثانى ـ نسخة دار الكتب والوثائق القومية : ٢٥٧٨ تاريخ .

٢ – ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٥٢ هـ . – « رفع الإصر عن قضاة مصر » نسخة دار الكتب والوثائق القومية : ١٠٥ تاريخ .

٣ – ابن ظافر (الوزير جمال الدين أبو الحسين على بن كمال الدين أبى منصور ظافر بن حسين الأزدى الأنصارى الخزرجى المصرى) المتوفى سنة ٦٢٣ هـ . – « أخبار الدول المنقطعة » نسخة دار الكتب والوثائق القومية : ٨٩٠ تاريخ .

٤ – سبط بن الجوزى (شمس الدين أبى المظفر يوسف بن غيزاوغلى المعروف بسبط بن الجوزى التركى ثم البغدادى الهيبرتى الحنفى) المتوفى ذى الحجة ٦٥٤ هـ . – « مرآة الزمان » حـ ١١ نسخة مصورة بدار الكتب والوثائق القومية .

٥ – ابن فضل الله العمرى .
– « مسالك الأبصار » حـ ١٥ / ١ نسخة مصورة دار الكتب والوثائق القومية : ٥٥٩ معارف عامة .

٦ – المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) المتوفى ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م .
– « اتعاظ الحنفا » نسخة مصورة بمكتبة الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال عن نسخة طوب قبوسراى .

(ب) المطبوعات

١ – ابن الأثير الجزرى (عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم بن عبد الواحد الشيبانى) المتوفى ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م .
– « تاريخ الكامل » المعروف بتاريخ ابن الأثير ١٢ جزءاً .
– « اللباب فى تهذيب الأنساب » طبع القاهرة ١٣٦٩ هـ ثلاثة أجزاء .

٢ – ابن أياس (محمد بن أحمد) .
« بدائع الزهور فى وقائع الدهور » القاهرة ١٣١١ هـ .

٣ – ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) المتوفى ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م .
– « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » جـ ٤ ، جـ ٥ طبعة دار الكتب والوثائق القومية .

٤ – ابن خلدون (عبد الرحمن) . المتوفى ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ – ١٤٠٦ م
– « العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » أجزاء ١ ، ٤ ، ٥ ، ٦ طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

٥ – ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد) ٦٠٨ / ٦٨١ هـ .
« وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان » ستة أجزاء .
تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٨ .

٦ – ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى) .
– «كتاب الا نتصار لواسطة عقد الأمصار » الجزءان الرابع والخامس بولاق سنة ١٣٠٩ هـ .

٧ – ابن سعيد الأندلسى المتوفى ٦٧٣ هـ
– « المغرب فى حلى المغرب » نشر الدكتور زكى محمد حسن وآخرين . الجزء الأول من القسم الخاص بمصر القاهرة ١٩٥٣ م .

٨ – ابن الصيرفى (أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب بن سليمان – « الإشارة إلى من نال الوزارة » القاهرة ١٩٢٤ .
– « قانون ديوان الرسائل » مصر ١٩٠٥ م »

٩ – ابن طباطبا (محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى)
– « كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » القاهرة ١٣١٧ هـ .

١٠ – ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) .
– « تاريخ ابن الفرات » مطبوعات الجامعة الأمريكية ببيروت – المطبعة الأمريكانية ببيروت – سنة ١٩٣٨ . المجلد التاسع الجزء الأول نشر الدكتور قسطنطين رزيق والجزء الثانى نشر الدكتور قسطنطين رزيق ، والدكتورة نجلاء عز الدين .

١١ – ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) المتوفى سنة ٢٧٠ هـ .
– « كتاب الإمامة والسياسة » جزءان طبع مصر سنة ١٣٤٤ هـ .

١٢ – ابن القلانس (أبو يعلى حمزة) المتوفى سنة ٥٥٥ هـ .
– « تاريخ ابن القلانس المعروف بذيل تاريخ دمشق» بيروت سنة ١٩٠٨ م.

١٣ – ابن مالك (محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى) من أواسط القرن الخامس الهجرى .
– « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥ م .

١٤ – ابن مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب) المتوفى ٤٢١ هـ – ١٠٣٠م
– « تجارب الأمم » نشر أمدروز – لندن سنة ١٩٢٠ .

١٥ – ابن المقفع (ساويرس أسقف الأشمونيين)
– « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة »
المجلد الثانى الجزء الثانى – القاهرة ١٩٤٨ .

١٦ – ابن منقذ (مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيرزى)
سنة ٥٨٤ هـ
– « كتاب الاعتبار » ليدن سنة ١٨٨٤ م .

١٧ – ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف بن جلب) المتوفى ٦٧٧ هـ /
١٢٧٨ م .
– « أخبار مصر » الجزء الثانى القاهرة ١٩١٩ م .

١٨ – ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) المتوفى سنة ٦٩٧ هـ .
– « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » الجزء الأول نشر الأستاذ
الدكتور جمال الدين الشيال – القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

١٩ – أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدس) المتوفى
٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ – ١٢٦٨ م
– «كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية »
الجزء الأول – القسم الثانى – القاهرة ١٩٦٢ .

٢٠ – أبو صالح الأرمنى (أبو المكارم جرجس بن مسعود)
– « تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى » أكسفورد سنة ١٨٩٥هـ .

٢١ – أبو الصلت (أمية بن عبد العزيز الأندلسى) المتوفى سنة ٥٢٨ هـ
– « الرسالة المصرية » ضمن المجموعة الأولى من نوادر المخطوطات
تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة سنة ١٩٥١ .

٢٢ — الأمينى (محمد هادى) .
— « عيد الغدير فى عهد الفاطميين » مطبعة القضاء — النجف سنة ١٩٦٢ .

٢٣ — الباشا (حسن)
— « التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى » القاهرة سنة ١٩٥٩ .
— « الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار » القاهرة ١٩٥٧
— « الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية » ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٦٦ .

٢٤ — البراوى (راشد — دكتور) :
— « حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » القاهرة ١٩٤٨ .

٢٥ — البرغوشى (عصر الصالح) :
— « الوزير اليازورى » طبع دار الفكر العربى .

٢٦ — البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) المتوفى سنة ٤٨٧هـ ١٠٩٤م.
— « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » وهو جزء من كتابه المسالك والممالك نشر دين سلين — طبعة ١٩١١ م .

٢٧ — البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى) :
— « سيرة أحمد بن طزلون » تحقيق محمد كرد على — دمشق ١٣٥٨هـ

٢٨ — البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى) .
— « الآثار الباقية من القرون الخالية » — طبع ليبزج سنة ١٩٢٣ .

٢٩ — تيمور (أحمد) :
« التصوير عند العرب » — القاهرة ١٩٤٢ م .

٣٠ — الثعالبى النيسابورى (أبو منصور عبد الملك) المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .
— « يتيمة الدهر » الجزء الأول — مصر سنة ١٩٣٤ م .

٣١ – الجهشيارى (أبو عبد الله محمد بن عبدوس) توفى سنة ٣٣١ هـ .
– «كتاب الوزراء والكتاب» الطبعة الأولى ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين .

٣٢ – الجوذرى (أبو على منصور العزيزى) :
– «سيرة الأستاذ جوذر» نشر دكتور محمد كامل حسين – طبع سنة ١٩٥٤ .

٣٣ – حبشى (حسن) :
– «الحرب الصليبية الأولى» الطبعة الأولى – القاهرة .

٣٤ – حتى (فيليب خورى) وآخرون :
– «تاريخ العرب» الجزء الثانى – بيروت – سنة ١٩٥٢ .

٣٥ – الحريرى (سيد على) :
– «كتاب الأخبار السنية فى الحروب الصليبية» – الطبعة الثانية – مصر سنة ١٣٢٩ هـ .

٣٦ – حسن (حسن إبراهيم – دكتور)
– «تاريخ الدولة الفاطمية – الطبعة الثانية من كتاب الفاطميون فى مصر – القاهرة ١٩٥٨ .
– «الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص – القاهرة ١٩٣٢ .
– «تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ٢ ، ج ٣ القاهرة ١٩٤٦ .
– «النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن – القاهرة ١٩٣٩ .
– «المعز لدين الله» بالاشتراك مع طه أحمد شرف – القاهرة ١٩٤٧ .

٣٧ ــ حسن (زكى محمد ــ دكتور) :
ــ « كنوز الفاطميين » القاهرة ١٩٣٧ م .

٣٨ ــ حسن (على إبراهيم ــ دكتور) :
ــ « تاريخ جوهر الصقلى » طبع سنة ١٩٣٣ .

٣٩ ــ حسين (محمد كامل ــ دكتور) :
ــ « فى أدب مصر الفاطمية » القاهرة سنة ١٩٥٠ .
ــ « الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية » (من مجموعة الألف كتاب) .

٤٠ ــ الخربوطلى (على حسنى ــ دكتور) .
ــ « تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى » القاهرة ١٩٥٩ .

٤١ ــ الخضرى (محمد)
ــ « تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) » القاهرة سنة ١٩٣٠ .

٤٢ ــ الدورى (عبد العزيز) :
ــ « دراسات فى العصور العباسية المتأخرة » بغداد ١٩٤٥
ــ « محاضرات فى تاريخ الدولية العباسية » بغداد ١٩٤٤ .

٤٣ ــ الذهبى :
ــ « دول الإسلام » الجزء الثانى ــ حيدر آباد سنة ١٣٦٥ هـ

٤٤ ــ الروزراورى (الوزير أبو شجاع محمد بن الحسين الملقب ظهير الدين) المتوفى ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م .
ــ « ذيل كتاب تجارب الأمم » نشر أمدروز طبعة مصر ١٩١٦ .

٤٥ ــ زيدان (جرجى) :
ــ « تاريخ التمدن الإسلامى » خمسة أجزاء ــ مراجعة الدكتور حسين مؤنس ــ الطبعة الثانية .

٤٦ – سرور (محمد جمال الدين – دكتور) :
– « النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة » القاهرة ١٩٥٧ .
– « النفوز الفاطمى فى جزيرة العرب » – الطبعة الأولى – القاهرة .
– « مصر فى عهد الدولة الفاطمية » – من سلسلة الألف كتاب .

٤٧ – سعيد بن بطريق البطريك افيتستيوس المتوفى ٤٥٨ ه ١٠٦٦ م .
– « كتاب المجموع على التحقيق والتصديق » ويليه « تاريخ يحيى ابن سعيد الأنطاكى » – بيروت سنة ١٩٠٩ .

٤٨ – السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن الكمال) المتوفى سنة ٩١١ ه/ ١٥٠٥ م .
– « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » جزءان – طبع مصر سنة ١٢٩٩ ه .
– « كتاب بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » – الطبعة الأولى .

٤٩ – الشيال (جمال الدين – دكتور) :
– « مجموعة الوثائق الفاطمية » المجلد الأول – القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
– « تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى » – طبع سنة ١٩٦٧ .
– « أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى » – طبع سنة ١٩٦٥ .
– « تاريخ مصر الإسلامية » ج ١ – طبع سنة ١٩٦٧ .

٥٠ – الصابى (أبو الحسن الهلال بن المحسن) ٣٥٩ – ٤٤٨ ه .
– « كتاب الوزراء أو تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » – تحقيق عبد الستار أحمد فرج – القاهرة سنة ١٩٥٨ .

٥١ – ضيف (شوقى – دكتور) :
– « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » – الطبعة الثالثة – القاهرة .

٥٢ – الطرطوشى (محمد بن محمد بن الوليد المكنى بأبى بكر والمعروف بالقهرى الطرطوشى) .

– « سراج الملوك » – القاهرة ١٢٨٩ هـ

٥٣ – طوسون (عمر) .

– « مالية مصر فى عهد الفراعنة إلى الآن » – الإسكندرية ١٩٣١ .

٥٤ – عاشور (سعيد عبد الفتاح – دكتور) :

– « الحركة الصليبية » – جزءان – الطبعة الأولى .

٥٥ – عبد الوهاب (حسن) :

– « تاريخ المساجد الأثرية » – الجزء الأول – سنة ١٩٤٦ .

٥٦ – عكوش (محمود) :

« تاريخ ووصف الجامع الطولونى » الطبعة الأولى سنة ١٩٢٧ .

٥٧ – العماد الأصفهانى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد) ٥١٩ – ٥٩٧ هـ .

– « خريدة القصر وجريدة العصر » – قسم شعراء مصر – ج ١ سنة ١٩٥١ ، ج ٢ سنة ١٩٥٢ . – نشر أحمد أمين وآخرين .

٥٨ – عنان (محمد عبد الله)

– « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » القاهرة سنة ١٩٣٧

– « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط » الطبعة الأولى ١٩٣١ .

– « تاريخ الجامع الأزهر » سنة ١٣٦١ هـ .

٥٩ – القلقشندى (أحمد بن على) المتوفى ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م .

– « صبح الأعشى » ج ٣ ، ج ٥ – المطبعة الأميرية ١٩١٤ .

٦٠ – الكاشف (سيدة إسماعيل – دكتوره) :

– « مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية » القاهرة ١٩٤٧ .

– « مصر فى عهد الإخشيديين « القاهرة ١٩٥٠ .

٦١ – الكتانى الفاسى (عبد الحى) .
– «كتاب التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية ، الجزء الأول ، الرباط سنة ١٣٤٦ ه .

٦٢ – الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد) المتوفى سنة ٧٦٤ ه .
– « فوات الوفيات » – ج ١ ، نشر محمد محيي الدين عبد الحميد .

٦٣ – كرد على (محمد)
– « أمراء البيان » – الجزء الأول – القاهرة ١٩٣٧ .
– « الإدارة الإسلامية فى عز العرب » – القاهرة ١٩٣٤ .

٦٤ – الكندى المصرى (أبو عمر محمد بن يوسف) المتوفى ٣٥٠ ه / ٩٦١م
– «كتاب الولاة والقضاة » – بيروت ١٩٠٨ .

٦٥ – ماجد (عبد المنعم – دكتور)
– « نظم الفاطميين ورسولهم فى مصر » – القاهرة ١٩٥٣ .
– « السجلات المستنصرية » – القاهرة ١٩٥٤ .
– « الإمام المستنصر بالله الفاطمى » – القاهرة ١٩٦١ .
– الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه » – القاهرة ١٩٥٩ .

٦٦ – الماوردى (على محمد بن حبيب المصرى البغدادى) المتوفى سنة ٤٥٠ ه .
– « الأحكام السلطانية » – القاهرة ١٩٠٩ .
– « أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك » ١٩٢٩

٦٧ – مرزوق (محمد عبد العزيز – دكتور)
– « مساجد القاهرة قبل عصر المماليك » القاهرة ١٩٤٢
– « الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية » القاهرة ١٩٤٢ .

٦٨ – مشرفة (عطية مصطفى – دكتور)
– « نظم الحكم فى عصر الفاطميين » الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٨ .

٦٩ – مصطفى (شاكر) :
– « فى التاريخ العباسى » الجزء الأول – دمشق ١٩٥٧ .

٧٠ – المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :
– « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » نشر الدكتور الشيال – القاهرة ١٩٤٨ .
– « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » جزءان – طبع بولاق ١٢٧٠ هـ .
– « إغاثة الأمة بكشف الغمة » القاهرة ١٩٤٠ – نشر الدكتورين مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال .
– « كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » ، نشر الدكتور زيادة ، سنة ١٩٣٤ .

٧١ – المؤيد فى الدين داعى الدعاة المتوفى ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م .
– « سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة » ، ترجمة حياته بقلمه ، تقديم وتحقيق دكتور محمد كامل حسين – القاهرة ١٩٤٩ .

٧٢ – اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) .
– « تاريخ اليعقوبى » – جزءان – طبع ليدن ١٨٨٣ .

٧٣ – اليمنى (القاضى الفقيه نجم الدين أبى محمد عمارة بن أبى الحسن الحكمى ثم اليمنى) قتل فى ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م .
– « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » ، ج ١ نشر در تبرع طبع شالون سنة ١٨٩٧ .

٧٤ – يونس (عبد الحميد – دكتور)
– « الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى » القاهرة ١٩٥٦ .

(ج) دواوين الشعر

١ – ابن رزيك (الملك الصالح طلائع) :
– ديوان طلائع بن رزيك الملك الصالح – نشر محمد هادى الأمينى – الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤ .

٢ – ابن قلاقس (أبو الفتح نصر الله الملقب بالقاضى الأعز) المتوفى سنة ٥٦٧ هـ .
– ديوان ابن قلاقس ، نشر خليل مطران ، سنة ١٩٠٥ .

٣ – المؤيد فى الدين داعى الدعاة :
– ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة – تحقيق الدكتور محمد كامل حسين القاهرة ١٩٤٩ .

(د) الدوريات

١ – الباشا (حسن) :
– التصوير العربى فى العصر الفاطمى ، مقالة فى المجلة العدد ٣٥ سنة ١٩٥٩ .

٢ – حسن (زكى محمد – دكتور) وآخرون :
– فى مصر الإسلامية ، مطبعة المقتطف والمقطم ، القاهرة ١٩٣٧ .

٣ – الشيال (جمال الدين – دكتور) .
– نظام الوزارة فى العصر الفاطمى ، مقال مجلة الثقافة ، العدد ٦٣٨ مارس ١٩٥١ .

٤ — مشرفة (عطية مصطفى — دكتور) ؛
— أهل الذمة فى العصر الفاطمى ، مقالة فى مجلة المقتطف ، أغسطس ١٩٤٥ .

٥ — تاريخ الحضارة المصرية ، اشترك فى وضعه نخبة من العلماء . المجلد الثانى — يصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد سنة ١٩٦٣.

(هـ) المؤلفات المعربة

١ — ترتون أ. س .
— أهل الذمة فى الإسلام ، ترجمة حسن حبشى طبع القاهرة .

٢ — دائرة المعارف الإسلامية — الطبعة العربية .

٣ — متز (آدم) :
— الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، تعريب محمد عبد الهادى أبو ريده — القاهرة سنة ١٩٤٠ .

٤ — ناصر خسرو علوى :
— سفرنامه ، ترجمها من الفارسية الدكتور يحيى الخشاب — طبعة أولى ١٩٤٥ .

٢ — المراجع الأجنبية

1. Demomlynes, Maurice gaudefroy.
— Muslim Institutions, translated from the french by; John P. Macgregor, London 1954.

2. Lane Poole, Stanley.
— The Story of Cairo, London 1906.
— A History of Egypt in the Middle Ages, IV Edition, London.

3. Runciman S.,
— A History of the Crusades Vol. I.

4. Stern S.M.,
— Fatimid Décrees. London.

المحتوى

الباب الأول

الوزارة فى العصر الفاطمى واختصاصاتها

الباب الثانى

رسوم الوزارة وتقاليدها ودورها

الصفحة

الباب الثالث

الوزراء والحياة الفكرية والعمرانية فى مصر

الباب الرابع

الوزراء والدولة

الباب الخامس

الوزراء والسياسة العربية

الصفحة

الباب السادس

الوزراء والعلاقات الخارجية

الباب السابع

الوزراء الفاطميون

الملاحق

المراجع

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠